الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قسنطينة 2
كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ
رقم التسجيل:....................
الرقم التسلسلي:...............

التوسع الزراعي في أفريقيا القديمة خلال الفترة الرومانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ

تخصص: تاريخ الريف و البادية.

اعداد الطالب: **اشراف الأستاذ:**

خنيش عبد الفتاح **د/ عقون محمد العربي**

اعضاء لجنة المناقشة: تاريخ المناقشة:2013/12/12م

الاسم و اللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د/عبد العزيز بن لحرش	أستاذ محاضر	رئيسا	جامعة قسنطينة2
د/محمد العربي عقون	أستاذ محاضر	مشرفا ومقررا	جامعة قسنطينة2
د/سليمان بن السعدي	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة قسنطينة2
د/مسعود شباحي	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة باتنة

2012-2013م

وصف بلين الكبير(*Pline l’Ancien*) خلال القرن الأول الاستغلال الزراعي بواحة قابس *(*تاكاب*Tacape)* التي تقع على حدود الصحراء جنوبا في سواحل السيرت الصغير غربي لبتيس الكبرى *(Leptis Magna)* فقال**:**" **هنا ، تحت نخلة مترامية الأطراف تنبت شجرة زيتون ، وتحت شجرة الزيتون شجرة تين ، وتحت شجرة التين شجرة لوز ، وتحت شجرة اللّوز كرمة ، وتحت الكرمة يزرع القمح ثم نباتات قرنية وأخيرا الخضروات ، كل هذا في نفس العام وكل واحدة تنمو تحت ظل الأخرى**".

Pline l’Ancien, Histoire Naturelle , XVIII, LI. 22.

قائمة المختصرات

A.A.A.: *Atlas Archéologique de L'Algérie .*
An.Af.*:Antiquités Africaines .*
C.I.L. *: Corpus Inscriptionum Latinarum.*
C.R.A.I. *: Comptes rendus de l’Académie des Inscriptions et Belles- Lettres.*
D.A.G.R . *:Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines.*
D.H.A. *: Dialogue d'Histoire Ancienne.*
E.S.C. *: Economie,Société,Civilisation.*
F° *: Feuille.*
H.A.A.N.*:Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord.*
M.A.H. *: Mélange d'Archéologie et d'Histoire.*
M.E.F.R.A.*: Mélange de l'Ecole Française de Rome, Antiquité.*
N° *: Numéro.*
R.Af. *:Revue Africaine.*
R.Ar*.: revue archéologique*
T. *: Tome.*

مقدمة

يندرج موضوع هذا البحث ضمن التّاريخ الاقتصادي للشّمال الأفريقي القديم خلال الفترة الرومانية، وسنتناول فيه أحد الجوانب الأساسية في اقتصاد هذه المنطقة وهو الجانب الزراعي، وخاصّة التوسّع الذي عرفته الزراعة خلال هذه الفترة، وهدفنا من خلال محاولتنا هذه هو معالجة هذا الموضوع من خلال تتبّع الظروف التي عرفها النشاط الزراعي واستغلال الأرض في منطقة ظلّت الزراعة بها هي الركن الأساس في اقتصادها عبر التاريخ، وكذا دراسة العوامل التي صنعت ذلك الازدهار الاقتصادي الذي تتحدث عنه المصادر الأدبية وتُثْبته المعالم والبقايا الأثرية عبر فترة طويلة امتدت على ما يزيد عن خمسة قرون.

لقد كان الثّراء الاقتصادي المبني أساسا على الثّروة الفلاحية أهم ما ميز منطقة الشمال الأفريقي منذ قرون طويلة، حيث عرفت هذه المنطقة ظهور الزراعة منذ فجر التاريخ ثمّ ظلّت تتطور تدريجيا خلال الفترة النوميدية والقرطاجية لتصل أوج ازدهارها وتوسّعها خلال الفترة الرومانية وذلك لتوفّر عوامل هذا الازدهار، فإلى جانب التربة الخصبة والمناخ الملائم هناك التقاليد الزراعية الراسخة، وكذا إقامة منظومة فلاحية بناء على تشريعات قانونية تحدد ملكية الأرض ونظام استغلالها وخاصة نظام المستثمرات الفلاحية: (*Latifundia, Fundus, Praedia, Saltus…*) وهذا ما جعل البلاد تصل في الفترة الرومانية أوج ازدهارها الاقتصادي الذي كانت الزراعة عماده الأول، ونحن في بحثنا هذا سنحاول الوقوف على حقيقة هذا الازدهار، من خلال تتبّع سير التوسّع الزراعي في المنطقة، ومن هنا جاء بحثنا تحت عنوان:

التوسّع الزراعي في أفريقيا القديمة(*) خلال الفترة الرومانية.

(*) إن المقصود بعبارة "أفريقيا القديمة" الواردة في العنوان هو أفريقيا خلال عصور التاريخ القديم التي اصطلح عليها الباحثون بـ" *Africa antiqua*" وليس المقصود بها مقاطعة أفريقيا القديمة "*Africa Vetus*" البروقنصلية سابقا التي أصبحت تسمي بهذه التسمية ابتداء من سنة 46 ق.م لتمييزها عن المقاطعة الأفريقية الجديدة "*Africa Nouva*" التي استحدثت بعد التوسّع على حساب نوميديا.

لقد آثرنا استعمال تسمية "أفريقيا" و"أفريقيا القديمة" واحيانا "أفريقيا الشّمالية" من بين التسميات المتعدّدة التي أطلقت قديما أو حديثا على المنطقة(ليبيا، افريقية، بلاد المغرب،بلاد البربر..الخ) نظرا لدلالتها الجغرافية واستعمالها القديم في المنطقة، فقد أطلق الرومان منذ البداية اسم "المقاطعة الأفريقية" على المجال الذي ورثوه عن قرطاج قبل أن يعمموه ليصبح له نفس مدلول مصطلح "ليبيا" الذي أطلقه الإغريق قبلهم على المنطقة [*]،وحديثا أصبح المصطلح دالا على عموم القارة الأفريقية واختفى من المنطقة نهائيا ما عدا الإشارة في الجغرافية السياسية إلى منطقة شمال أفريقيا للدلالة على البلدان الواقعة شمال القارة، في مقابل ذلك استعملنا مصطلح الأفارقة والأمازيغ للدلالة على أهل المنطقة الأصليين.

ويدخل اختيارنا للموضوع ضمن إطار اهتمامنا الشخصي بالتاريخ الاقتصادي لشمال أفريقيا وحضارة الأرياف، وهي في الحقيقة مجالات لم يعتن الباحثون بدراستها مقارنة بالتاريخ السياسي وتاريخ المدن والحواضر، بالإضافة إلى رغبتنا في المساهمة ولو بالقليل في تعريف الغير بحضارتنا القديمة وتصحيح بعض الرؤى والمغالطات التي لم يتوقف البعض إلى حد الآن عن دسّها ضمن مؤلفاتهم العديدة، وكذا لرغبتنا في إبراز دور الشعوب الأمازيغية وإسهاماتها الحضارية التي غيبتها المصادر الكلاسيكية وطمستها الدراسات الحديثة، ثم إنّ موضوع التوسع الزراعي في حد ذاته يعد ظاهرة جديرة بالدراسة أثارت دهشة لدى الباحثين، خصوصا وانّه موضوع يثير الفضول بعد العثور على هياكل خاصة بالزراعة في مناطق "انقرضت" منها الزراعة حاليا.

يثير الموضوع في الحقيقة تساؤلات عديدة عن مدى ما بلغه هذا التطور الاقتصادي، وعلى الخصوص حقيقة النّمو الواسع في استغلال الأرض والوصول بالزراعة إلى تخوم الصحراء، هذه الحقيقة التي كشفت بعض جوانبها بعض الدراسات الحديثة على رأسها الدراسة التي قام بها ضابط الطيران الفرنسي الكولونيل باراداز(***Baradez (J.)***) حول الخندق

[*] جوليان (شارل أندري) ، **تاريخ أفريقيا الشمالية (تونس ، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م)** ، تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة ، ط5، الدار التونسية للنشر ، جويلية 1985م ، ص11.

الأفريقي(*Fossatum Africae*) وأطروحة الدكتوراه التي قدمها الباحث جان بيربان(*Birebent (J.)*) للمناقشة بجامعة الجزائر تحت عنوان(*Aqvae Romanae*) والتي درس فيها نظام المياه الروماني بالشّرق الجزائري ، إلا أنّ هناك العديد من الجوانب التي بقيت خفية وهي بحاجة إلى العناية بدراستها ، ومع أنّ الاستغلال الزراعي خلال الفترة الرومانية لم ينطلق من فراغ إلاّ أنّ جلّ الباحثين الغربيين لا يولون أهمية للشعب الأمازيغي ومساهمته في مجال الزراعة على العموم والتوسّع الزراعي المحقق على الخصوص، بل ينسبون كل الفضل إلى العنصر الأجنبي (الرومان) ويتجاهلون مجهود السكان الأمازيغ في هذا المجال، وقد سعينا إلى إبراز دور هؤلاء وفق ما تؤكده الحقائق التاريخية والأثرية دون إغفال العناصر الجديدة التي أدخلت في نظام استغلال الأرض والتي كان لها دور كبير في التطور الذي تحقّق، وهذا ما جعلنا نطرح سؤالا مركزيا وهو:

هل كان التوسّع الزراعي في أفريقيا القديمة إنجازا رومانيا صرْفاً، أم أنّه ثمرة مساهمة الأفارقة الّذين انْتُزِعَت منهم أراضيهم فاستعاضوا عنها باستصلاح الأراضي البور حتى وصلوا بالتوسّع الزراعي إلى مشارف الصحراء ؟

وتتفرّع عن هذا السؤال المركزي أسئلة ثانوية هي:

ما مدى صحة القول بتحقيق ازدهار كبير جعل منه بعض المفتتنين بالحضارة الرومانية معجزة ؟

وهل ما أنجز على الأرض الأفريقية من ازدهار، مكرمةً رومانية ؟ أليس الأفارقة هم الذين ظّلوا يعملون ويكدحون وينتجون حتى بعد أن انتزعت من الكثير منهم أراضيهم بموجب حق الفتح ؟

هل كان للفترة السابقة للوجود الروماني اثر على تطور الزراعة خلال الفترة الرومانية؟ وهل كان التطور نتيجة لتفاعلات داخلية مست بدرجة أولى وسائل الإنتاج أم انه نتيجة لاستعارة تقنيات من شعوب أخري ؟

لماذا اهتم بعض الأباطرة الرومان بتوجيه الزراعة خلال مرحلة معينة من تاريخ الإمبراطورية لإنتاج أنواع معينة من المزروعات؟

ما هي خصائص الإنتاج الزراعي بأفريقيا خلال تلك المرحلة؟ وما السّر في انتشار آثار معاصر ومنشآت ري في مناطق هي اليوم جرداء؟! ثم لماذا شدّد الحكام الرومان على زراعة الزيتون بالمناطق المحاذية للصحراء؟!

وقد حاولنا في بحثنا هذا الإجابة على هذه الإشكالية، مع الحرص على أن يكون ذلك في سياق ورؤية موضوعية اعتمادا على المنهج العلمي عبر مقاربات نقرأ من خلالها تاريخ منطقتنا قراءة متحررة من كلّ النزعات التقليدية التي تحاول الالتفاف على الحقائق التاريخية، ومعتمدين أيضا على تقنيات التحليل والاستنباط والنقد وقراءة مابين السطور في معالجة المعلومات التاريخية التي زودتنا بها المصادر الكلاسيكية والحقائق التي توصل إليها علم الآثار حديثا.

وقد رسمنا لبحثنا هذا خطة نراها مناسبة لمعالجة الموضوع، حيث افتتحنا الدراسة بمدخل فضلنا أن نتناول فيه الخصائص الطبيعية لأفريقيا الشّمالية والمعلومات الجغرافية التي زودتنا بها بعض المصادر القديمة وهذا في الحقيقة ما تقتضيه دراستنا، حيث انه من المفيد كثيرا معرفة هذه الخصائص قبل الشروع في معالجة الموضوع ، ثم يلي المدخل ثلاثة فصول عالجنا من خلالها الإشكالية المطروحة.

في الفصل الأول تم التطرق إلى الزراعة الأفريقية قبل وصول الرومان للمنطقة، والهدف من هذا الفصل هو إبراز وتشخيص الحالة التي كانت عليها الزراعة خلال تلك المرحلة لمعرفة

الإضافات التي عرفها المجال خلال المرحلة اللاّحقة وهذا ما يسمح لنا باستنتاج الفرق بين الفترتين ، وقد ركزنا فيه أساسا على إشكالية ظهور الزراعة بالمنطقة وعالجنا مسألة الترويج لفكرة "أفضال" الفينيقيين في إدخالها للمنطقة التي يحاول البعض جعلها حقيقة تاريخية، كما تناولنا وضعية الزراعة خلال فترة السيطرة الإغريقية والقرطاجية والتطور الذي عرفته خلال فترة الملوك النوميد خاصة على عهد الملك ماسينيسا، وقد خصصنا في آخر الفصل عنصرا هاما حاولنا من خلاله إبراز منجزات فترة ما قبل الرومان *(Préromaine)* وإسهاماتها في التطور الذي سيتحقّق خلال الفترة الرومانية التي في اعتقادنا شكلت استمرارية لما قبلها واستفادت من القاعدة التي بنيت من قبل خاصة على عهد الملوك النوميد .

أما الفصل الثاني الذي عنوناه بـ"الزراعة الأفريقية خلال الفترة الرومانية" فقد خصصناه لدراسة الجوانب المتعلقة بالزراعة التي شكلت القاعدة التي ساهم بها الرومان بمهندسيهم وتشريعاتهم في بنائها والتي كان لها اثر واضح في تطور الزراعة خلال العهد الإمبراطوري الأول *(Haut-Empire)* على الخصوص، وقد استهللنا هذا الفصل بدراسة نظام مسح الأراضي(الكنترة) الذي ساهم في تنظيم المجال وسهل عملية توزيع الأراضي والإحصاء وجمع الضرائب، ثم انتقلنا إلى التشريعات الزراعية التي عثر عليها بأفريقيا وأثرها في تطوير الزراعة وتنظيم العلاقات بين الفئات المستغلة للمستثمرات، لنتناول بعد ذلك موضوع الري الزراعي ودوره في توسيع الزراعة خاصة بالمناطق الجنوبية الجافة أو شبه الجافة، ثم انتقلنا إلى منظومة الاستغلال الزراعي أين درسنا وسائل الإنتاج وعلى رأسها وضعية الأرض ونظام الملكية والموظفون القائمون على العمل الزراعي وأنظمة الاستغلال السائدة، بالإضافة إلى دراسة نماذج من المستثمرات الزراعية التي أنشئت على الأرض الأفريقية كالسالتوس واللاّتيفونديا...الخ، وفي آخر الفصل درسنا النظام الضريبي المتعلق بالزراعة وتأثيره على تدهور الزراعة خلال الفترة الأخيرة من السيطرة الرومانية.

في الفصل الثالث –الذي يمثل جوهر بحثنا– تناولنا ظاهرة التوسّع الزراعي وانعكاساتها، وقد عالجناها وفق منظورين ؛ توسّع نوعي في الزراعة متمثلا في زراعة الحبوب خلال القرن

الأول ثم الأشجار المثمرة خلال القرن الثاني للميلاد(الزيتون والكروم)، وتوسّع إقليمي للزراعة سواء باتجاه الجنوب أو باتجاه المناطق الجبلية ، وقد حاولنا إبراز الدور الأهلي في هذا التوسّع الذي تغاضى عنه الكثيرون ، وفي آخر الفصل عالجنا اثر التوسع الزراعي وانعكاساته على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الأفريقي خلال تلك المرحلة. وقد توّجنا بحثنا هذا بخاتمة لخصنا فيها النتائج التي توصلنا إليها من خلال معالجة عناصر البحث ، بالإضافة إلى تخصيص بعض الملاحق المتعلقة بالزراعة القديمة في المنطقة.

اعتمدنا في دراستنا على مجموعة من المصادر الكلاسيكية خاصة التاريخ الطبيعي *(Histoire Naturelle)* لبلين الكبير*(Pline l'Ancien)* ، فعلى العموم استفدنا من الأخبار المختصرة والنزر اليسير من المعلومات التي وردت في هذه المصادر سواء التي عاصرت الفترة الرومانية أو الفترة التي قبلها، فهي كما هو معروف تناولت التاريخ السياسي والعسكري للمنطقة ولم تتعرض للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي إلا عرضا، وهي في الحقيقة لم تتعرض إلى جوهر موضوعنا بشكل كبير ولكن ذلك لم يمنعنا من الاستفادة من بعض الإشارات الواردة فيها، ومن بين هؤلاء الذين اعتمدنا عليهم هيرودوت وسالوست وبوليب وديودور الصقلي وسترابون وديون كاسيوس وكلوميل وغيرهم.

كما استفدنا أيضا من القانون الثيودوزي *(Code Théodosien)*فيما يتعلق بالزراعة والضرائب خلال الفترة الأخيرة للإمبراطورية، ومن جهة أخرى شكلت النّقوش الأفريقية المحفوظة في بعض المؤلفات مصدرا آخر لدراسة بعض الجوانب المتعلقة بالزراعة، يأتي في مقدمتها مؤلفات المؤرخ اقزال التي تخصّ الجزائر وهي الأطلس الأثري للجزائر*(Atlas Archéologique de l'Algérie)* والجزء الأول من مؤلفه النّقوش اللاّتينية للجزائر (*Inscriptions Latines de l'Algérie*) ، بالإضافة إلى اعتمادنا ولو جزئيا على بعض النّقوش المنشورة في الجزء الثّامن من مدونة النّقوش اللاّتينية *(Corpus Inscriptionum Latinarum)*.

أما فيما يخصّ الدراسات ، فهي في الحقيقة متعددة لا يتّسع المجال لذكرها كلها، فبالإضافة إلى دراستي بيربان وباراداز المشار إليهما سابقا ، اعتمدنا على دراسات اقزال المتعدّدة من بينها التاريخ القديم لأفريقيا الشّمالية(*Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord*)، ودراسة بيكار(*Picard*) : حضارة أفريقيا الرومانية(*La civilisation de l'Afrique Romaine*)، ودراسة غابريال كامبس(في أصول بلاد البربر، ماسينيسا أو بداية التاريخ) التي أفادتنا فيما يتعلق بأصول الزراعة الأفريقية، ودراسة السيدة هنريات كامبس فيما يتعلق بزراعة الزيتون خلال الفترة الرومانية (*l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine*) وكذا تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي للمؤرخ رستوفتزف، بالإضافة إلى اعتمادنا على دراستي كل من الأستاذين شنيتي محمد البشير في كتابه "التّغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال الروماني" وعقون محمد العربي في كتابه "الاقتصاد والمجتمع في الشّمال الأفريقي القديم" اللّتان كانتا بالنسبة لنا دليلا وسراجا استهدينا به في ظلمات بحثنا هذا .

ولعل أكثر ما أفادنا في بحثنا هذا تلك المقالات والدراسات القيّمة المنشورة في الدوريات المتخصصة على الخصوص المجلة الأفريقية (*Revue Africaine*) و (*Antiquités Africaines*) و(*Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres*) والتي عالجت موضوعات متنوعة كالتشريعات الزراعية والكنترة والري...الخ ، كما استفدنا من موسوعة الأثريات القديمة الإغريقية والرومانية (*Dictionnaire des antiquités Grecques et Romaines*) التي أعانتنا على فهم العديد من المصطلحات بالإضافة إلى استفادتنا من عدة دراسات منشورة على شبكة الانترنيت.

إن صعوبة التوفيق بين العمل والدراسة تعد من أهم العراقيل التي واجهتنا ، بالإضافة إلى أن قراءة المصادر والدراسات التي كان جلها باللّغة الفرنسية يستغرق وقتا طويلا ويستدعى جهدا مضنيا أمام قلة الدراسات المحلية المتخصصة.

وفي الأخير نتقدم بشكرنا الخالص إلى أستاذنا الدكتور محمد العربي عقون الذي كان نعم الموجه، شاكرين له حرصه على تكويننا تكوينا أكاديميا صحيحا ، كما نشكره كثيرا على رحابة صدره وصبره على تقصيرنا وعلى حلمه وحكمته في التعامل معنا ، كما نشكر كل من أعاننا على انجاز هذا البحث على رأسهم عمال أرشيف ولاية قسنطينة وعمال متحف سطيف.

والله وليّ التوفيق.



مدخل:

الخصائص الطبيعية والجغرافية

التاريخية لأفريقيا الشّمالية القديمة.

مدخل

الخصائص الطبيعية والجغرافية التاريخية لأفريقيا الشّمالية القديمة

تتطلب دراسة موضوع الزراعة في الشّمال الأفريقي القديم - باعتباره فرعا من فروع التاريخ الاقتصادي ومرتبطا ارتباطا وثيقا بالمجال الجغرافي – من الباحث تقديم لمحة عامة عن الخصائص الطبيعية ومميزات السطح للمنطقة المراد دراستها، ولذا جاء هذا المدخل ليكون تمهيدا لموضوع البحث وقاعدة معلومات تخصّ الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا التاريخية للمنطقة، نرصد من خلاله المميزات الطبيعية على الخصوص من مناخ وتضاريس وهيدروغرافيا وتساقط...الخ، وهذا من شأنه أن يساعد سواء الباحث أو القارئ على فهم الموضوع فهما جيدا كما يساعد على معرفة خصائص المنطقة قديما حيث يمكن مقارنة الدّراسات المتعدّدة المنجزة حديثا في مجال الجغرافيا الطبيعية للمنطقة بالمعلومات الواردة في المصادر القديمة واستغلالها في معرفة خصائص المنطقة قديما .

أفريقيا(*Africa*) في التاريخ القديم وشمال أفريقيا *(North Africa)* حديثا هي البلاد الواقعة في الجزء الشّمالي الغربي من القارة الأفريقية، يحدّها من الشّمال البحر المتوسط ومن الجنوب الصحراء الكبرى ومن الغرب المحيط الأطلسي ومن الشرق مصر، وهي تمتد بين خطي طول 25°شرقا و17° غربا بالنسبة لخط غرينيتش وبين دائرتي عرض 15°و38° شمال خط الاستواء [1]، وهذا ما أعطاها موقعا استراتيجيا مميزا فهي مطلّة على الحوضين الغربي والشّرقي للبحر المتوسط وتشكّل الجزء الشّمالي من القارة الإفريقية.

---

[1] حارش(محمد الهادي)، **التاريخ المغاربي القديم(السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)**، المؤسسة الجزائرية للطباعة،الجزائر 1995م، ص14 .

قسم هيرودوت قديما المنطقة إلى ثلاثة أقاليم من حيث الأنشطة الاقتصادية والنمط المعيشي : إقليم السواحل الشّمالية الذي ينقسم بدوره إلى قسمين ؛ جزء شرقي يمتد من النيل إلى غاية بحيرة التريتون(*Lac Tritonis*) غربا وهو موطن القبائل البدوية، وجزء غربي يمتد من بحيرة التريتون إلى غاية المحيط الأطلسي وهي منطقة الليبيين المزارعين، أما إقليم الدواخل الليبية فقد وصفه هيرودوت على انه بلاد للحيوانات المتوحشة، وما وراء هذه المنطقة هناك الإقليم الجنوبي الذي هو عبارة عن كثبان رملية يمتد من طيبة (*Thébes*)شرقا إلى أعمدة هرقل غربا تتخلله عدّة سباخ وتسكنه عدة قبائل(انظر الخريطة (1)أدناه ص 4) [(2)].

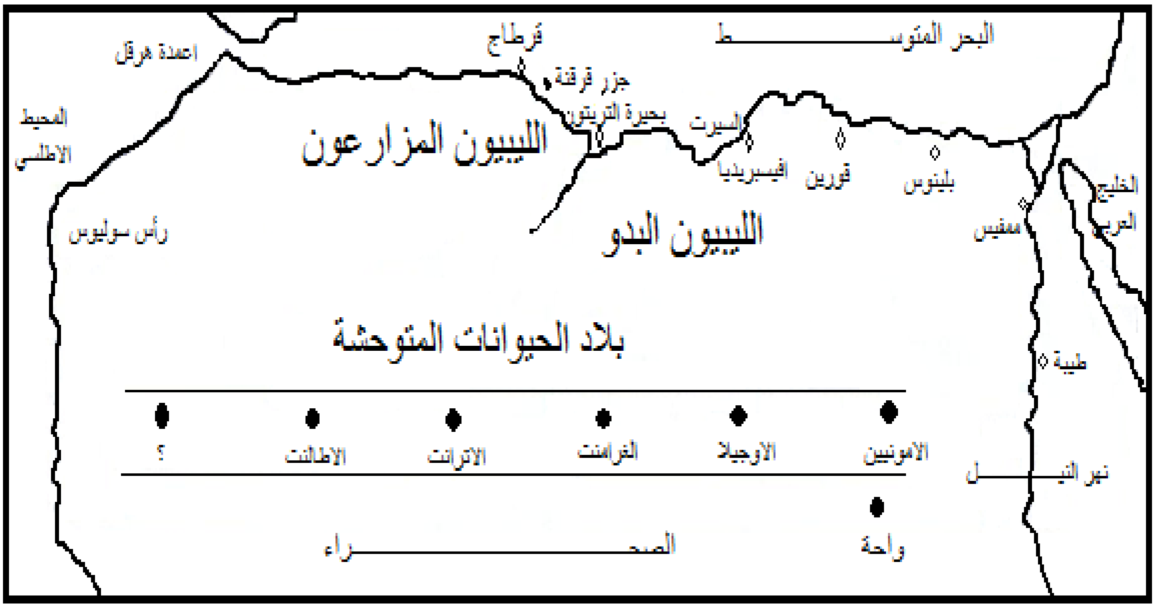
أما سالوست فقد ذكر أن أول مدينة تصادفنا عند قدومنا من مصر باتجاه السواحل الغربية الليبية هي قورين (*Cyréne*) وهي مستعمرة لإغريق قَدِموا من ثيرا (*Théra*)، يلي ذلك هياكل الفيلان وبين خليجي السيرتين تقع مدينة لبتيس(*Leptis*) ثم تأتي بعدها سلسلة من المصارف الفينيقية، أما باقي البلاد إلى غاية موريتانيا فقد كانت تحت سيطرة النوميد؛ حيث يتمركز المور شمالا قرب اسبانيا ؟ والجيتول جنوب نوميديا وأبعد منهم جنوبا يتواجد الإثيوبيون، ثم يأتي بعد ذلك إقليم الشّمس الحارقة[(3)].

أما الساحل الليبي فقد اعتبره سترابون ساحلا مستقيما في اتجاهه العام من مصر إلى أعمدة هرقل ، وهذا نفس الخطأ الذي وقع فيه هيرودوت قبله[(4)]، والحقيقة أن الساحل يتجه شمالا عند بداية إقليم القرطاجين ، كما يمكن أن نستنتج من تعدد الموانئ التي أقامها القرطاجيون على السواحل الغربية للشّمال الأفريقي بانّ هذا الساحل يكون مسننا تتنوع فيه الرؤوس والخلجان ما يسمح بإقامة هذه الموانئ الطبيعية المتعددة.

[(2)] *Gsell (St.),**Hérodote,Textes relatifs a l'Histoire de l'Afrique du Nord**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger1915 ,Livre IV,CLXXX-CLXXXXI.(par suite : Hérodote).*

[(3)] *Salluste , **la guerre de Jugurtha, les fragmens de la grande histoire romaine, la conjuration de catilina ,et les deux épîtres a César**, traduit par Ch.Du.Rozoir,T.I,imprimerie de C.L.F.Panckoucke, Paris 1835 , XIX.*

[(4)] *Strabo , **The Geography** , translated by H.C.Hamilton and W.Falconer, John Childs and Son Printers, London 1857, book II,V.*



الخريطة(1): خريطة ليبيا وأقاليمها حسب هيرودوت.

المصدر:*Gsell(St.),Hérodote,Op.Cit.,index.*

تطلّ المنطقة على البحر المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي، وقد منح لها هذا الموقع امتيازات عديدة، فهو مصدر التفاعل الذي سمح لشعوبها قديما وحديثا بالاحتكاك مع أجناس أخرى خصوصا وان منطقة شمال أفريقيا يقابلها شمالا الضفة الجنوبية لأوروبا، فلا يكاد يفصل أوروبا عن شمال أفريقيا إلا مضيق جبل طارق(13 كلم فقط) وهذا الموقع المتميز يسمح بالتبادل التجاري زيادة على التفاعل الثقافي والحضاري.

تنقسم منطقة شمال أفريقيا من حيث تكوينها إلى قسمين رئيسيين، قسم شمالي حديث التكوين وقسم جنوبي قديم التكوين، وتتوزع المظاهر التضاريسية السائدة في المنطقة بين مختلف الأزمنة الجيولوجية الأربعة ، وتظهر الصحراء كقاعدة قارية قديمة تميزها تكوينات يرجع بعضها إلى الزمن الأركي الذي لم تظهر الحياة الحيوانية فيه بعد، ولم تأخذ الشكل الذي هي عليه الآن إلا بعد استكمال تكوينها خلال العصور اللاّحقة[5].

---

[5] حليمي (عبد القادر علي)، **جغرافية الجزائر(طبيعية–بشرية–اقتصادية)**، ط2، مطبعة الإنشاء، دمشق 1968، ص ص 9-11.

يعود تكوين المنطقة الشّمالية إلى الزمن الجيولوجي الرابع خاصة خلال فترة البلايستوسين[6] التي شهدت تغيرات على مستوي المناخ والتركيبة الجيولوجية[7]، فالشكل الحالي لتضاريس الشمال يعود تكوينها إلى هذه الفترة التي تتجسد أساسا في الرواسب الفيضية التي حملتها المياه إلى المنخفضات ، وخلال هذا العصر بدأ الجفاف التدريجي للأطراف الشّمالية للصحراء أما المناطق الجنوبية فهي قديمة التكوين تتجاوز فترة تكونها 100مليون سنة [8].

أما في ما يخص تضاريس أفريقيا الشّمالية فيمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين ، أحدهما شمالي حديث التكوين و آخر جنوبي (الصحراء) قديم التكوين، ولكل قسم مميزات تضاريسية تميزه في التركيبة والارتفاع والتكوين عن الآخر، ويتميز القسم الشّمالي بثلاثة مظاهر رئيسية هي:

- **السّهول**:

هناك نوعان من السهول ؛ نوع يمتد في الشّمال على طول السواحل البحرية مثل سهل مجردة والسهول الشرقية بتونس، ثم السهول العليا الجزائرية – المغربية والسهول الساحلية الغربية بالمغرب الأقصى التي تظهر على شكل أحواض مغلقة[9]، وهي ذات تربة خصبة فيضية ورسوبية تعود في تكوينها إلى الزمن الرابع، وهناك السهول الداخلية الممتدة بين الكتل الجبلية

---

(6) البلايستوسين *(Pleistocene)* : وهي فترة زمنية امتدت من 2,588,000 إلى 11,700 سنة ق.م التي عرفت فترات جليدية متكررة، وقد اشتق اسم البلايستوسين من الكلمتين اليونانيتين (بليستو) وتعني "معظم" و(كينوس) وتعني "جديد"، والبلايستوسين أول فترة من فترات العصر الرباعي أو الفترة السادسة من حقبة السينوزي، و تتوافق نهاية البلايستوسين مع نهاية العصر الجليدي الأخير كما أنه يتوافق مع نهاية العصر الحجري القديم، انظر: ***http://ar.wikipedia.org/wiki/البليستوسين***

(7) الناضوري (رشيد) ، **المغرب الكبير**، ج1 (العصور القديمة: أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، بيروت 1981م، ص51.

(8) جودة(حسنين جودة)، **الجغرافيا الطبيعية لصحاري العالم العربي**، ط6، منشأة المعارف الإسكندرية، 1997م، ص66.

(9) حارش(محمد الهادي)، التاريخ المغاربي القديم...مرجع سابق، ص14 .

وهي عالية الارتفاع تزيد في عمومها عن 500م ، أهمها سهلا فاس ومكناس بالمغرب وسهلا السارسو وقسنطينة بالجزائر...الخ.

▪ **الجبال:**

تمتد في الشّمال الأفريقي سلسلتان متوازيتان من الجبال ؛ السلسلة الأولى مقابلة للسّاحل مباشرة (الأطلس التلي) والسلسلة الثانية داخلية موازية للسلسلة الأولى(الأطلس الصحراوي) وترجع تركيبة سلسلة الأطلس التلي إلى الحركة الألبية [10]، وهي عبارة عن حاجز منيع يعيق مرور المؤثرات المناخية القادمة من الشمال إلى الداخل ومن أهم جبال هذه السلسلة: جبال الريف بالمغرب (2453م)، جرجرة والبيبان بالجزائر، جبال خُمير ومُقعد بتونس...الخ، أما سلسلة الأطلس الصحراوي فتمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى رأس الطيب بتونس حيث تتجه من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي، وتقع ضمن هذه السلسلة أعلى قمة بالمنطقة وهي قمة طبقال(4265م) بالمغرب الاقصى، وعلى العموم فان متوسط ارتفاع جبال أفريقيا الشمالية يتراوح بين 800 و 1200م[11].(انظر الخريطة (2) ادناه ص7)

▪ **السهول العليا:**

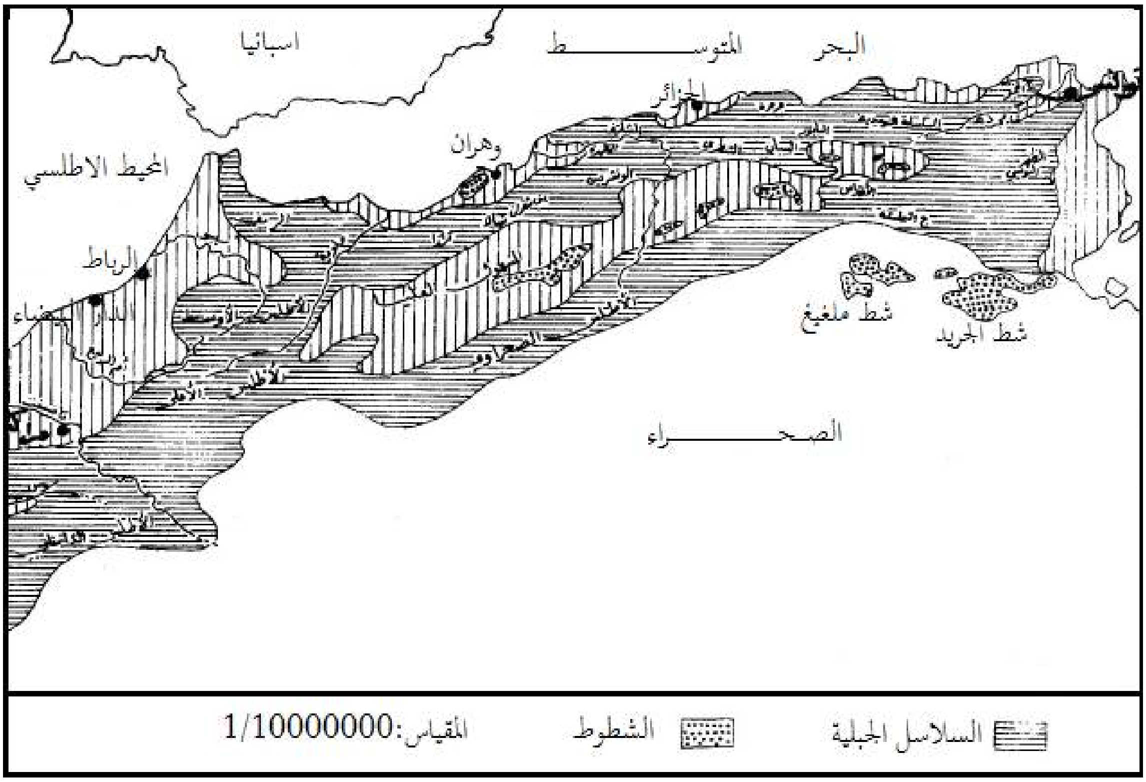
يتراوح ارتفاعها بين 500 و 1000م أهمها : المائدة المراكشية بالمغرب، والسهول العليا بإقليم سطيف بالجزائر...الخ ، تتخلّل هذه السهول المرتفعة مجموعة من البحيرات المالحة (السباخ) التي تصب فيها الأودية الداخلية.

---

(10) الحركة الألبية: أحدث الحركات الالتوائية التي أصابت القشرة الأرضية، ولذلك فجبالها أعظم جبال العالم من حيث الامتداد والارتفاع ، بدأت في أواخر الزمن الجيولوجي الثاني وبلغت أوجها في منتصف الزمن الجيولوجي الثالث، انظر: *http://www.arabgeographers.net*

(11) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص14.

أما إقليم الصحراء الذي يكون جفافه الكامل قد تمّ حوالي سنة 2500 ق.م[12]، فقد تشكّلت به منطقة شاسعة جافة تتميز بمجموعة من المظاهر التضاريسية وهي: **العرق** الذي هو عبارة عن كثبان رملية متنقلة بفعل الرياح مثل العرق الشرقي الكبير بالجزائر ، وهناك **الرّق** الذي هو عبارة عن تكوينات حصوية مثل رق تانزروفت بالجزائر، أما **الحمادات** فهي هضاب رملية و جيرية مثل الحمادة الحمراء بليبيا وتادمايت بالجزائر، بالإضافة إلى بعض الجبال القديمة التكوين كجبال الهقار بالجزائر[13].



الخريطة(2): تضاريس الشّمال الأفريقي.

المصدر: حارش(محمد الهادي)، التاريخ المغاربي القديم...مرجع سابق، ص19.

---

(12) *Robert (Jean-Baptiste), A propos de l'évolution du climat en Afrique du Nord depuis le début de la période historique, In: Revue de géographie jointe au Bulletin de la Société de géographie de Lyon et de la région lyonnaise, Volume 25,N°1, 1950,p54.*

(13) حليمي(عبد القادر علي)، مرجع سابق، ص ص 50-51.

تعتبر المياه من أهم العوامل الطبيعية التي تؤثر في مختلف أوجه الاقتصاد ، خاصة جانب الزراعة الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالرّي ، و لأفريقيا الشّمالية مصادر متنوعة من هذه المادة الحيوية سواء كانت مياها سطحية أو مياها جوفية ، لكن استغلال المياه الجوفية في الرّي الزراعي قد بقي محدودا مقارنة بالمياه السطحية التي يشكل التساقط مصدرها الأساسي.

يمكن تصنيف أودية الشّمال الأفريقي إلى عدة أصناف، سواء من حيث الطول أو كمية التصريف أو فترة الجريان ...الخ ، ويبدو أن تصنيفها حسب مصبها أكثر وضوحا، بحيث يظهر هذا التقسيم ثلاث مجموعات : أودية تصب في البحر وهي عديدة ودائمة الجريان واغلبها ينبع من سلسلة الأطلس التّلي، أهمّها وادي الشلف، ووادي سيبوس بعنابة، أما في تونس فتشتهر منطقة الشّمال الأكثر مطرا بأوديتها المنتشرة في كل الاتجاهات منها وادي مجردة ***(Bagradas flumen)*** أكبر وأغزر أودية تونس وينبع بالقرب من سوق اهراس ثم وادي خلاّد وواد سليانة والتي تنبع من جبال المجردة[14]، وبالمغرب يعتبر وادي أم الربيع أهم مجري مائي بالمنطقة، أما الأودية التي تصب في الأحواض الداخلية فتتميز بتذبذب جريانها وتصب بالأحواض الداخلية (الشّطوط) (انظر الخريطة(2) اعلاه ص7)، وهناك نوع ثالث يصب في رمال الصحراء وهي عبارة عن أودية فجائية عديمة الانتظام لقلة التساقط بهذه المناطق من بينها وادي ايغرغر الذي ينبع من الهقار ويصب في العرق الكبير الشرقي [15] ، وللتساقط علاقة مباشرة باختفاء الأودية بهذا الإقليم، فعندما اخذ مناخ الصحراء الكبرى في الجفاف التدريجي والمستمر منذ عصر البلايستوسين اختفت منذ ذاك الأودية التي اكتسحتها الرمال[16].

أشارت المصادر القديمة عرضا إلى العديد من المجاري المائية ، فقد حدثنا هيرودوت عن بحيرة التريتون التي افترض اغزال أن يكون موقعها بجوار خليج السيرت الصغير (خليج قابس) [17]، أما بلين[18] فقد ذكر وادي توسكا ***(Tusca)*** ووادي أمبساغا

---

(14) *Gsell (St.), **Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord** , Librairie Hachette, Paris , Tome I, p 19.*

(15) حليمي (عبد القادر علي) ، مرجع سابق، ص ص59-61.

(16) جودة(حسنين جودة)، مرجع سابق، ص65.

(17) *Hérodote, pp79-80.*

(Ampsaga) (الوادي الكبير حاليا) كما تعدّد ذكر وادي الملوية ***(Mulucha,Molochath,Malva)*** عند المؤرخين والجغرافيين القدامى ومن بينهم سترابون الذي اعتبره حدا فاصلا بين بلاد المور وبلاد الماسيسيل***(Masæsyles)*** [19]، أما بروكوب فقد حدثنا عن استغلال مزارعي منطقة الأوراس لوادي أبيغاس ***(Abigas)*** بنقل مياهه عبر قنوات باطنية إلى حقولهم [20].

إن الدور الاقتصادي لأودية الشّمال الأفريقي في نظر البعض قد ظلّ تقليديا[21] مع أنّ بعض المدن الشّمال الأفريقية عبر التاريخ قد قامت على ضفافها، وما يجدر الإشارة إليه هو الدور الذي لعبته هذه الأودية والري على العموم في التاريخ القديم للمنطقة ، حيث هناك عدة دلائل تشير إلى الاستغلال المكثف لمياهها خصوصا أودية الداخل والجنوب التي عثر على ضفافها على الكثير من منشآت الري التي يعود اغلبها إلى الفترة الرومانية.

أما فيما يخص المناخ فهو من العناصر التي تعرف تغيرا باستمرار نظرا لارتباطه بعدة عوامل تؤثر فيه، وهو حال المناخ بشمال أفريقيا الذي شهد تغيرات عديدة منذ أقدم العصور، وهو في وقتنا الحالي مناخ متنوع ومستقر في حالته العامة لكن بعض خصائصه عادة ما تعرف تغيرات مفاجئة تتسبب في إحداث خسائر معتبرة في الاقتصاد والثّروة الحيوانية والنّباتية، ويعتبر الموقع الجغرافي والفلكي اكبر مؤثر في هذا التّنوع والتغيّر، فالمنطقة تطل على واجهتين بحريتين وتشرف جنوبا على صحراء واسعة، يضاف إليها ارتفاع التضاريس ونوع الرياح والضغط الجوي التي تتحكم هي الأخرى في عناصر المناخ.

يسود المناطق الساحلية لأفريقيا الشّمالية مناخ البحر المتوسط الذي يتميز شتاؤه بالمطر والاعتدال وصيفه بالحرارة والجفاف ، وبه منطقتان: منطقة رطبة تغطي بالجزائر المنطقة الممتدة

---

(18) *Pline l'Ancien* ***, Histoire Naturelle*** *,C.L.F.Panckoucke , Paris 1831,livre V,II.3.*
(19) *Strabo, XVII,III,6-9.*
(20) *Procope de Césarée,* ***Bellum Vandalorum*** *, traduit par D.Roques ,Belles Lettres, Paris 1990,II,19,12.*
(21) *Gsell (St.),H.A.A.N., T.I, pp26-27.*

من جرجرة إلى منطقة القل ، حيث يزيد معدل المطر فيها عن 1000 ملم في كل من منطقة جرجرة والبابور وحوالي 2000 ملم في منطقة القل، التي تقع بها منطقة الزيتونة التي تعد أكثر المناطق الجزائرية تساقطا بنحو 2400 ملم سنويا، ومناطق شبه رطبة تغطي باقي مناطق الساحل بمعدل تساقط يقارب 700 ملم سنويا[22] ، وتحت هذه المنطقة توجد منطقة النجود التي تتميز بمناخ شبه جاف لان الرياح القادمة من الشمال تكون قد أفرغت حمولتها بالجبال الشّمالية.

تعتبر أمطار البحر المتوسط التي تجلبها الرياح من الجهة الغربية من النوع الإعصاري، والدور يعود للمنخفضات الجوية التي تدفعها الرياح الغربية إلى المنطقة ، كما أن المرتفعات الجبلية تعرف تساقطا أكثر من المنخفضات ذلك أن الكتل الهوائية المشبعة القادمة من الشّمال أو الغرب تصطدم بها وهو ما يولد تكاثفا ثم أمطارا، والملاحظ أن أمطار أفريقيا الشّمالية تتناقص تدريجيا كلما اتجهنا جنوبا مثلما تتناقص كلما اتجهنا شرقا نظرا للعوامل السالفة الذكر، فمدينة الجزائر معدل تساقطها حوالى750 مم سنويا في حين أن مدينة طرابلس التي لها نفس الخصائص لا يتجاوز تساقطها 340 مم سنويا[23] (انظر الخريطة (3)ادناه ص12).

تتميّز الأقاليم الصحراوية الجنوبية بسيادة الحرارة على امتداد أيام السنة، خاصة في فصل الصيف أين تعرف درجة الحرارة ارتفاعا قياسيا ، فتاريخيا سبق وان سجلت منطقة العزيزية القريبة من طرابلس ارتفاعا في درجة الحرارة وصل إلى 58° كما سبق وان سُجّل بعين صالح و تيميمون درجة حرارة قريبة منها، أما في الليل فان درجة الحرارة تشهد انخفاضا يقل عن الصفر في بعض المناطق ، فارتفاعها نهارا وانخفاضها ليلا يشكل اتساعا في المدى الحراري[24] ، أما الأمطار فهي شبه منعدمة تقل عن 100مم سنويا ما عدا المنطقة المحيطة بالهقار التي تتميز بأمطار صيفية تقارب 400مم سنويا ناتجة من الضغط القادم من المنطقة المدارية .

---

[22] لعروق (محمد الهادي)، **أطلس الجزائر والعالم**، دار الهدى،عين مليلة، ص14 .

[23] طريح (عبد العزيز شرف)، **الجغرافيا المناخية والنباتية مع التطبيق على مناخ أفريقيا ومناخ العالم العربي**، دار المعرفة الجامعية ،2000م ،ص ص358-359.

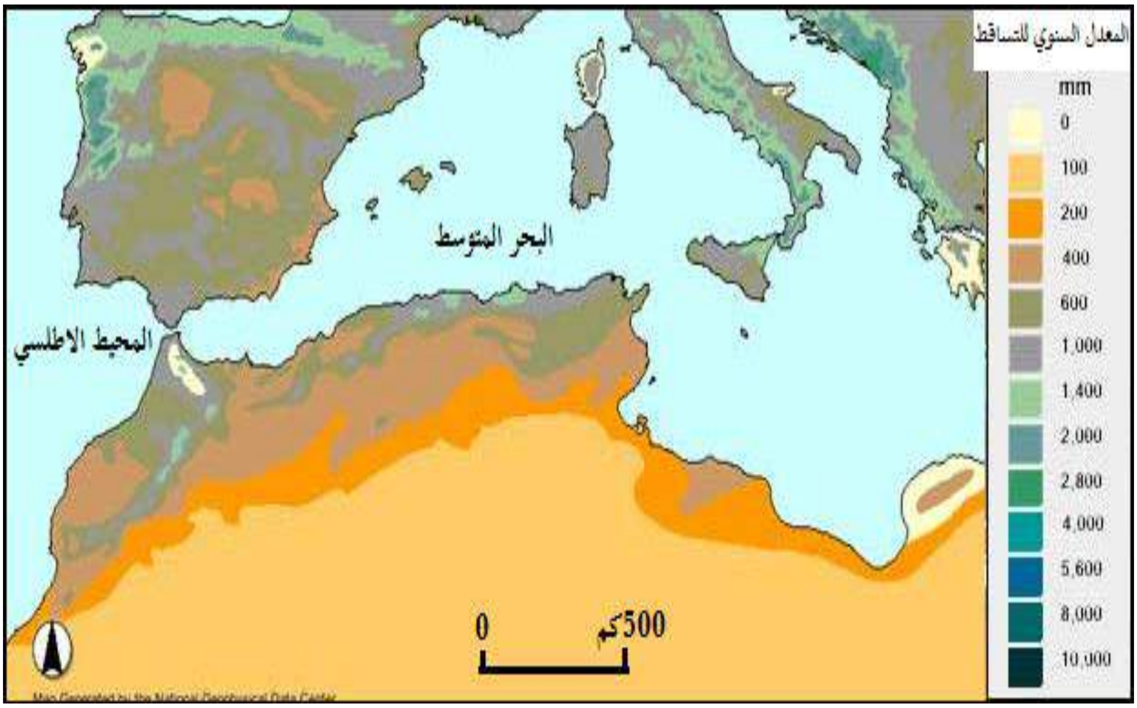
[24] حميدة (عبد الرحمان)، **جغرافية الوطن العربي**، ط2، دار الفكر- دار الفكر المعاصر، دمشق-بيروت،1997م، ص22.

وحول الحالة المناخية السائدة قديما ذكر هيرودوت خلال وصفه للمناطق الصحراوية الجنوبية أنّ "لا اثر للأمطار والمياه والرطوبة والنّباتات والغابات بهذه المناطق القاحلة"[25]، ومن جهته وصف ديودور المنطقة الممتدة جنوب قورينائية بأنها " أرض جرداء تنعدم فيها المياه الجارية ، وصحراؤها تظهر على شكل بحر ويعتبر التوغل فيها مغامرة، ولا أثر فيها لا للطيور ولا للنّباتات ولا لشيء آخر يثير الانتباه، وما وراء هذه المنطقة لا توجد إلا الكثبان الرملية"[26]، وهي نفس الأوصاف التي وصف بها سترابون الدواخل الليبية[27] ، أما بلين فقد اخبرنا بدوره عن تلك الرياح الحارة القادمة من الجنوب خلال "مواسم الشّمس"[28].

وقد أكّد اغزال أن مناخ المنطقة خلال الفترة القديمة كان قريبا في خصائصه من المناخ الحالي، حيث يميزه جفاف معتاد في الصيف و أمطار متذبذبة[29]، وهناك عدة قرائن تشير إلى ذلك منها سباخ منطقة قسنطينة التي تدل حدودها على أنها لم تكن أوسع ممّا هي عليه اليوم، كما أن الجسور التي أنشئت على عهد الرومان لم تشيد لاجتياز أسرة أودية عريضة ولا لمقاومة تيارات مائية أقوى[30].

---

(25) *Hérodote, CLXXXV.*
(26) *Diodore de Sicile ,**Histoire Universelle** ,traduite en français par l'Abbé Terrasson , imprimerie de Quillau ,Paris 1737, livre III,LIV.*
(27) *Strabo , XVII , III.*
(28) *Pline l'Ancien, XVIII,CCCXXIX.*
(29) *Gsell (St.),H.A.A.N.,T.I, p99.*
(30) *Gsell (St.), **l'Algerie dans l'Antiquité**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger 1903, p62.*



الخريطة(3): التساقط بأفريقيا الشمالية.

المصدر: *http://www.grabovrat.com*

إن المناطق الشّمالية التي تشهد تساقطا كبيرا مقارنة بالمناطق الجنوبية هي التي تعرف انتشارا للغابات التي تغلب عليها أشجار دائمة الاخضرار تتحمل جفاف فصل الصيف مثل أشجار الصنوبر ذات الأوراق الإبرية وأشجار البلوط والفلين...الخ، أما الأشجار التي تنفض أوراقها في فصل الخريف فهي منتشرة على نطاق محدود بهذه المنطقة ، إلى جانب ذلك تنمو في هذا النّطاق الأحراش ***(Maquis)*** تتخلّلها أشجار قصيرة متباعدة[31].

(31) طريح (عبد العزيز شرف)، مرجع سابق، ص360.

ولانّ درجة الحرارة بهذه المنطقة لا تقل عن درجة الصفر إلا نادرا فان ذلك يسمح بإقامة زراعة متنوعة وشبه دائمة للأشجار التي لا تحتاج إلى ري مثل الزيتون والكروم والتين وأشجار الفواكه التي تحتاج إلى الرّي كالخوخ والحمضيات ... الخ، أما زراعة الحبوب والشعير فتتزامن مع فصل الشتاء الممطر ويسمح وجود فترة حارة صيفا بحصد هذه المحاصيل[32].

أما منطقة السهول العليا التي لا تزيد كمية التساقط بها عن 350 مم سنويا فان الغابات تختفي فيها وتسود بدلا منها الأحراش والمراعي الواسعة، ومن أهم نباتات هذا الإقليم الحلفاء والسدرة والدّرين والشيح...الخ، أما الصحراء الواسعة فتسودها بعض النباتات القصيرة المقاومة للحرارة بجذورها الطويلة وأوراقها الشمعية وتركيبتها الشوكية وتنتشر أكثر على أسرة الأودية وبين الأحجار للاستفادة من الظلّ[33].

وقد أخبرنا هيرودوت نبات اللّوتوس *(Lotus)* الذي كان يستهلكه اللوتوفاجيون *(Lotophages)* بكثرة ويصنعون منه النبيذ[34] ، كما اشتهر خلال تلك المرحلة نبات السليفيوم الذي ينمو حسب هيرودوت ابتداء من جزيرة بلاتيا *(Platea)* إلى غاية حدود السيرت [35] ، أما الأصناف المزروعة – التي سنشير إليها لاحقا- فقد ورد ذكرها في العديد من المصادر على رأسها أشجار الكروم والزيتون.

إن هذه النظرة الوجيزة تبرز بانّ التباين وغياب التناسق هي الصفة التي تميز الخصائص الطبيعية لأفريقيا الشّمالية [36] ويظهر هذا الاختلاف على الأقل إذا قارنا خصائص الشّمال بخصائص الجنوب، ومن جهة أخري، فإنّه رغم الإمكانيات الطبيعية المتنوعة التي تميز شمال أفريقيا إلا انّه يجب الإقرار بان هناك بعض العوائق الطبيعية المعرقلة للاستغلال الزراعي والنشاط البشري كالجفاف الذي تشهده بعض المناطق خلال مواسم معينة وتذبذب المناخ وجفاف عدد

---

(32) طريح (عبد العزيز شرف)، مرجع سابق ، ص ص361-362.

(33) حليمي(عبد القادر علي)، مرجع سابق، ص ص 87-89.

(34) *Hérodote , IV , CLXXVII.*

(35) *Ibid., IV , CLXIX .*

(36) *Gsell (St.) , H.A.A.N. ,T. I, p 25.*

كبير من الأودية صيفا خصوصا الاودية الداخلية والصحراوية...الخ غير أن ذلك لم يحل دون التوسّع الزراعي في الشمال ونحو الجنوب كما سنبينه في الفصول التالية.



الفصل الأول:

الزراعة الأفريقية قبل الفترة الرومانية

I البدايات الأولى للزراعة بأفريقيا.

II الاستيطان الزراعي الإغريقي بقورينائية.

III الزراعة القرطاجية.

IV التطور الزراعي في عهد الملوك النوميد.

V دور فترة ما قبل الرومان في تهيئة قاعدة الازدهار الزراعي خلال الفترة الرومانية.

الفصل الأول:

الزراعة الأفريقية قبل الفترة الرومانية

أثار موضوع أصول الزراعة في العالم القديم عدة تساؤلات وشغل اهتمام الباحثين منذ فترة طويلة، حيث كانوا ولا يزالون ينظرون إلى الشرق الأدنى باعتباره المهد الأول للزراعة والرعي، ومركزا للعصر الحجري الحديث ، وظلّ نصيب منطقة شمال إفريقيا من أبحاث ونظريات هؤلاء شبه منعدم إلى أن جاء فافيلوف[37] الذي اقرّ بمساهمة المنطقة باعتبارها جزءا من حوض البحر الأبيض المتوسط وذات ارتباطات وثيقة بالمركز الواسع والمهم في الشرق الأدنى ، حيث رفض هذا العالم أن يسلم بأنّه لا وجود لمركز آخر في أفريقيا غير المركز الحبشي.

I– البدايات الأولى للزراعة بأفريقيا:

تتّجه مختلف الآراء إلى أن الفلاحة بأفريقيا تكون قد ظهرت خلال النيوليثي المتأخّر[38] اعتمادا على ما وفرته المعطيات الأثرية من أدوات فلاحية مثل الكويرات الحجرية المثقوبة و المناجل والمطاحن والمطارق والفؤوس...الخ .إلا أن غابريال كامبس الذي درس مختلف

---

(37) نيقولاي ايفانوفيتش فافيلوف *(Nikolaï Ivanovitch Vavilov)*:(1887-1943) عالم نبات روسي حدد ثمانية مراكز لأصل النباتات المزروعة في العالم ، منها خمسة مراكز رئيسية وثلاثة ثانوية واعتبر أن أفريقيا بها مركزان : المركز الحبشي(الإثيوبي) ومركز البحر المتوسط الذي يضم أفريقيا بصفة جزئية (شمال أفريقيا) انظر:

-Loskutov, Igor (G.),Vavilov and his institute,A history of the world collection of plant genetic resources in Russia, International Plant Genetic Resources Institute (R.I.P.G.R.I.), Rome, Italy1999,pp60-61.

(38) *Despois(J.), La culture en terrasses dans l'Afrique du Nord , in : E.S.C ,11éme Année, N°1,1956, pp49-50.*

هذه الأدوات الحجرية المستعملة في الزراعة المكتشفة وناقش مختلف آراء الباحثين بشأنها[39] ؛ تردد في التسليم بان هذه الأدوات يمكن أن تكون دليلا على وجود فلاحة افريقية حقيقية معتبرا أن "ذلك لا يسمح بتأكيد وجود زراعة في الفترة القفصية بل وحتى في النيوليثي، وكل ما في الأمر هو مجرد تخمين[40]" أي أنّه لا يمكن القول بوجود فلاحة حقيقية إلا بدلائل قوية وواضحة كاكتشاف بذور مزروعات مثلا.

ويبدو أن الآراء التي ترجع ظهور الزراعة بأفريقيا إلى الفترة الممتدة ما بين نهاية النيوليثي وفترة ارتياد البحارة الفينيقيين للسواحل الأفريقية هو الرأي الأكثر اعتدالا بسبب صعوبة إثبات وجودها – إلى حد الآن- في فترات اسبق من هذه الفترة نظرا لغياب أدلة واضحة تثبت ذلك. وقد دلت بعض الرسومات الصخرية وأعمال التهيئة الزراعية على ممارسة إنسان فجر التاريخ للزراعة، ففي كهف الأروية بالشافية(القالة) يظهر رسم شكل شبيه بمحراث[41] ، وفي أوكايمدن *(Oukaimeden)* بالأطلس الأعلى المغربي اكتشف مالوم *(Malhomme)* رسومات تمثّل فؤوسا وخناجر وسهاما ومشهد حرث في اعزيب'ن'إيكيس*(Azib n'Ikkis)* قام كامبس بمقارنتها بالرسومات المكتشفة بجبل بيقو *(Bégot)* الذي يقع على الحدود الفرنسية الايطالية وهي رسومات تعود إلى العصر البرونزي الأوربي الأوسط مؤكدا وجود تطابق كبير بينهما [42]، والنتيجة هي انه إذا كان الذين نقشوا رسوماتهم بجبل بيقو رعاة ومزارعين فما المانع في أن يكون الذين نقشوا رسوماتهم في الأطلس الأعلى المغربي رعاة ومزارعين أيضا؟

---

[39] كامبس (غابريال) ، **في أصول بلاد البربر: ماسينيسا أو بدايات التاريخ** ، تعريب وتحقيق العربي عقون، نشر المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2010م، ص 88.

[40] نفسه ، ص83.

[41] ديزانج (جيهان)، البربر الأصليون، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني (حضارات إفريقيا القديمة) ، إشراف جمال مختار، نشر جين أفريك/اليونسكو 1985م، ص443.؛ كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص 93-94.

[42] نفسه ، ص ص94-95.

تظهر لنا الصور الجوية الملتقطة الخاصة بدوار تازبنت (جنوب غرب تبسة) آثار تهيئة ذات طابع زراعي لم تعرف بالتحديد الفترة الزمنية التي تعود إليها ولكن الأكيد أنها سابقة للفترة الرومانية [43]، فهذه التهيئة تظهر قطعا أرضية صغيرة المساحة ذات أشكال مربعة محاطة بأسوار محدودة الارتفاع للتّكيف مع الواقع الطبغرافي والمناخ الجاف الذي يسود المنطقة، وما يميز هذه التهيئة عن نظيرتها الرومانية أنها ليست بالدّقة التي عرفت بها عملية الكنترة *(Centuriation)* الرومانية.

أما النظرية التي تعتبر بان الزراعة في أفريقيا الشّمالية يعود الفضل فيها إلى الفينيقيين فقد أثارت جدلا واسعا وردود أفعال متباينة، فالنصوص تخبرنا أن القبائل الليبية التي سبقت وصول الفينيقيين أو التي توطنت خارج المجال القرطاجي فيما بعد كانت تعيش حالة من الهمجية ولم تمارس الزراعة ، فقد أكد هيرودوت بان القبائل من مصر إلى غاية بحيرة التريتون *(Lac Triton)* كانت قبائل بدوية تتغذى على اللحوم وتشرب الألبان [44]، كما أكد أبيان بان النوميدين كانوا يستهلكون النّباتات البرية ويجهلون الزراعة[45] أما بوليب فيذكر أن الأغلبية كانوا يجهلون الثمار التي تنتج من زراعة الأرض ولا يعيشون إلا على لحوم الحيوانات [46]. وقد ظل الباحثون[47] لمدة طويلة متمسكين بهذه النظرية التي بنوها انطلاقا من هذه النصوص رغم أنها لا تعتبر دليلا كافيا لإصدار أحكام من هذا النوع.

---

(43) كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص 97-99.

(44) Hérodote, IV , CLXXXVI .

(45) Appien , Punic, 106. D'après Lacroix(F.), Afrique Ancienne (procédés agricoles), R.Af, Année 1870, p15.

*(46) Polybe , **Histoire Générale ,** traduit par Félix Bouchot , Adolphe Delahays libraire, Paris 1847, livre XII , III.*

(47) رفض لاكروا الفكرة القائلة بممارسة السكان الأوائل لأفريقيا للزراعة قبل ظهور المستعمرات الفينيقية انظر: *Lacroix.(F),Op.Cit., pp12-13.* ؛ ومثله أكدت جان مازيل بانّ الفينيقيين هم الذين نقلوا الزراعة من الشرق إلى الغرب انظر: مازيل(جان) ، **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية** ، ترجمة ربا الخش ، تقديم ومراجعة عبد الله الحلو، ط1، دار الحوار، سوريا 1998م، ص165. وعلق محفوظ قداش بأنّه" من المعقول جدا أن يعلم القرطاجيون البربر الفلاحة" انظر: قداش (محفوظ)، **الجزائر في العصور القديمة** ، ترجمة صالح عباد ، المؤسسة الوطنية للكتاب،

والملاحظ أن البحوث الحديثة قد تجاوزت هذه النظرية ؛ فهذا اقزال يقول:"إنّ أهالي هذه المنطقة (الليبيون) لم ينتظروا مجيء البحارة السوريين لممارسة الرعي والزراعة"[(48)]، في حين وصف جيهان ديزانج هذه النظرية بكونها "افتراض جزافي غير مترو"[(49)]. أما رينيي *(L.Reynier)* فقد أكد أن الزراعة بشمال أفريقيا سابقة للوجود الفينيقي بالفعل ودليله على ذلك هو بنية المؤسسات التي يُشار إليها بتسمية ليبيفينيقية *(Lybophéniciens)*[(50)] ، بينما لم يتردد البعض في الدعوة صراحة إلى ضرورة تجاوز هذه النظرية القديمة [(51)].

وردت أول إشارة إلى الزراعة الشّمال أفريقية في النصوص المصرية التي تعود إلى الأسرة التاسعة عشر في عهد الفرعون مرنبتاح والتي تذكر أن هذا الفرعون قد اخذ كل نبتة من حقول الزعيم الليبي المهزوم ولم يعد هناك فوق أرض الليبو أي حقل صالح لإعالة السكان وانه نهب كل ما في مخازن الزعيم الليبي من حبوب [(52)]، كما ظهر في نص مصري آخر رسم لشجرة زيتون أمامها تسمية تحنو[(53)].

الجزائر1993م، ص29. ومن جهتنا نعتبر أن مثل هذه التأويلات تدخل في سياق مدرسة تاريخية تعتبر أن المشرق هو أصل الحضارة، وهو موضوع ينبغي مراجعته.

(48) *Gsell (St) , H. A.A.N. ,T.I, p 239.*

(49) ديزانج (جيهان)، مرجع سابق ، ص443.

(50) يرى رينيي انّه إذا لم يكن هناك مزارعون ليبيون فانّ الفينيقيين سينشئون مؤسساتهم دون الاشتراك مع الأهالي الذين كانوا بدوا ولا تكون هناك أية نقطة اتصال بينهم وبالتالي سيكونون أعداء لهم، وبما أن الأهالي كانوا مزارعين فقد حصل تقارب بينهم .انظر: *Reynier(L.) , **De l'Economie publique et rurale des Egyptiens et des Carthaginois** , J.J.Paschoud imprimeur-libraire ,Genéve-Paris 1823,p481.*

(51) *Boudribila (Mohamed-Mustapha), les anciens Amazighs avant les Phéniciens : modes de vie et organisation sociale , Awal , N°29 ,2004 ,p22.*

(52) عبد العليم(مصطفى كمال) ، **دراسات في تاريخ ليبيا القديم** ، المطبعة الأهلية ، بنغازي 1966م، ص37.؛ البرغوثي(عبد اللطيف محمود) ، **التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي** ،ج1، نسخة الكترونية أعدها للنشر تامغناست،www.dzlib.com، ص93.

(53) *Jaleaud (L.) , l'ancienneté de la fabrication de l'huile d'Olive dans l'Afrique du Nord , R.Af ,Année 1929,p35.* ;. عبد العليم(مصطفي كمال) ، مرجع سابق ،ص12.

أما هيرودوت فقد أطلق على الماكسي*(Maxyes)* الذين يسكنون وراء بحيرة التريتون أي غربها لقب "الليبيون المزارعون"[54] كما أشار إلى تواجد زراعة الكروم والزيتون في جزر قرقنة *(Cyraunis)*[55] وأشاد كثيرا بخصوبة الأرض في إقليم كينوبس *(Cinyps)* [56] واعتبرها مماثلة في خصوبتها لإقليم بابل وذكر أنها تنتج في المواسم الجيدة ثلاثمائة ضعف ما بذر منها[57]، وبالجهات الجنوبية ذكر بانّ النسامونيين يرتحلون صيفا إلى أوجلة ليجنوا البلح الذي كان مثقلا بثماره[58]، وذكر أيضا أن القرامنت كانوا يكسون سطح الأرض المالحة(السباخ) بطبقة من التربة الخصبة ثم يزرعونها [59] وعلق كامبس بأنه حتى وان كان ما ورد في هيرودوت مقتصر على عموميات إلا انّه يحق لنا أن نثق في روايته لان ما ذكره قد أكدته المعطيات الأثرية والإثنوغرافية[60].

يذكر سالوست أن: " سكان أفريقيا الأوائل هم جيتول وليبيون وهم أناس غلاظ ومتوحشون يتغذون على لحوم الحيوانات وعلى النباتات البرية كالقطعان"[61] وأشار إلى أنّ المناطق المحيطة بكابسا *(Capsa)* خلال فترة حرب يوغرطة هي مناطق جرداء وجافة [62]،

(54) *Hérodote , IV ,CXCI .*
(55) *Ibid., IV , CXCV.*
(56) إقليم الكينوبس : سمي نسبة إلى الوادي الذي يعبره *(Cinyps)* وادي كعام حاليا ، الذي يصب في البحر المتوسط بالقرب من لبتيس ماغنا غربا ، ويغطي منطقة معروفة بخصوبتها ومناخها الرطب وتنوع الإنتاج بها، انظر: *Ibid.,pp90-91.*
(57) *Ibid., IV , CXCVIII .*
(58) *Ibid., IV , CLXXII.*
(59) *Ibid.,IV , CLXXXIII .*
(60) كامبس(غابريال) ، مرجع سابق، ص 34.
(61) *Salluste , XVIII.*
(62) *Ibid., LXXXIX.*
وعلى حد قول السيدة هنريات كامبس فأنّ هذه المناطق التي وصفها سالوست بأنها جرداء وجافة هي التي قدمت لنا اليوم أكبر عدد من آثار معاصر الزيتون ، ويمكن ملاحظة آثار بساتين الزيتون فيها بكلّ سهولة وأرجعت السبب إلى التوسع الروماني في زراعة الزيتون بالمنطقة بعد ذلك.انظر:
- *Camps-Fabrer (Henriette),**l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine*** *, imprimerie officiale , Alger ,1953, p9.*

بينما وصف سترابون الدواخل الليبية بأنّها صحراء محجرة ورملية ، قاحلة وجافة[63] ، أمّا بوليب فقد خالفهم الرأي لما أشاد بخصوبة الأرض الأفريقية المدهشة وفند ادعاء تيمي *(Timée)* الذي جزم بانّ الأرض الأفريقية كلها رملية وجافة وغير منتجة [64]، و قد أشار ديودور من جهته إلى وجود زراعة الزيتون بجهات تبسة *(Hécatompyle)* حين ذكر بانّ أهلها قد توجهوا إلى القائد القرطاجي حانون الذي اسر أبناءهم حاملين أغصان الزيتون طالبين الأمان متوسلين إليه بان يطلق سراح أبنائهم[65].

إذا كان للفينيقيين تأثير وفضل كبير في تطوير الزراعة في شمال إفريقيا [66] فذلك لا ينفي أصالة الزراعة وقدمها في المنطقة ، فزراعة قدماء الأمازيغ للحبوب(القمح والشعير) قديمة وسابقة للوجود الفينيقي بكثير[67]؛ وقد اقترح دوكاندول أن يكون القمح الصلب(*Triticum Durum)* في بلاد البربر ذا أصل محلي[68]. أما كامبس فقد لاحظ أن مكانة القمح والشعير عند قدماء الأمازيغ تتفاوت من منطقة لأخرى، ففي المناطق الجبلية يحتل الشعير المكانة الأولى نظرا لكون التربة بها خفيفة ومناسبة لزراعته عكس المناطق السهلية التي يأتي فيها القمح الصلب في المقام الأول[69].وقد أكد لاوست أن الأمازيغ لا يزرعون إلا القمح الصلب وهو مصنف عندهم في المرتبة الثانية أو الثالثة بعد الشعير والسورغو[70].

إن ما اتفق عليه اغلب المؤرخين سابقا من فضل كبير يوعزونه للفينيقيين في توسيع زراعة الزيتون خارج المجال القرطاجي أصبح متجاوزا، خاصّة وانّه اتضح أخيرا أن الفضل لا يعود إليهم في إدخال زراعة هذه الشجرة إلى المنطقة لأنها أقدم في وجودها من وصولهم إلى

---

(63) *Strabo , XVII , III.*
(64) *Polybe , XII ,III.*
(65) *Diodore de Sicile , XXIV ,Extraits .*

(66) انظر أدناه ص 36.

(67) *Gsell (St.)* **,** *H.A.A.N.,T.I, p 236.*
(68) *De Condole (Alph),* ***Origine des plantes cultivées*** *, 3éme édition ,Félix Algan éditeur, Paris 1886, p289.*

(69) كامبس(غابريال) ، مرجع سابق ، ص 102.

(70) *Laoust (E.),* ***Mots et choses berbères, notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc****, librairie maritime et coloniale , Paris 1920, p265.*

السواحل الأفريقية ، وإذا كان القائلون بالدور الفينيقي في هذا المجال يبنون آراءهم على الاسم السامي المتداول في عموم أفريقيا للدلالة على الزيتون المطعم "الزيتون" للدلالة على الشجرة و"الزيت" للدلالة على المادة المستخرجة من ثمار الشجرة، فانّ اللّغة الأمازيغية لا تنقصها التسميات الدالة و الأصيلة غير المأخوذة من لغات أخري ، والحال أن زراعة هذه الشجرة ممارسة عريقة بشمال أفريقيا؛ فدراسة المواد والبقايا المتفحمة المجلوبة من غيل ايلاي (*Reliai*)(10كلم جنوب غرب تليجان *Tlidjéne* بمنطقة تبسة) تكشف عن وجود الزيتون البري في أفريقيا خلال الباليوليثي الأعلى[71]. وقد أكد جولو (*Jaleaud*) بان استغلال الأمازيغ لثمار شجرة الزيتون المحلية لصناعة الزيت قد بدأ في أفريقيا خلال الفترة الممهدة للعصر النّحاسي على الأقل[72]، كما أن هناك أسماء محلية واسعة الانتشار تطلق على هذه الشجرة مثل آزمور(*Azemmour*) الذي يطلق على الزيتون المطعم وآزبوج (*Zebouj*)[73] (انظر أدناه الشكل(1) ص23) الذي يطلق على الزيتون البري ، فاستعمال هذه المصطلحات من طرف الأمازيغ قديم مما يدل على أن استغلال أشجار الزيتون بأفريقيا القديمة من طرف السكان عريق وأصيل [74].

ومن المعروف أن قدماء الأمازيغ كانوا يمارسون التطعيم منذ القديم بطريقة مختلفة عن تلك التي مارسها الرومان فيما بعد[75]، فقد اخبرنا بلين في هذا الشأن أن "تطعيم الزيتون

---

(71) *Le Du(R.) et Saccardy (L.) ,étude de quelques charbons préhistoriques de la région de Tébessa , R.Af , Année 1948 ,pp 111-119.*
(72) *Jaleaud (L.), Op. Cit.,p35.*
(73) أثار أصل هذا الاسم جدلا بين الباحثين ؛ فقد لاحظ البعض قربه من الاسم الاسباني (*Acebuche*)الذي له نفس المعنى، وبقي إشكال من نقله للآخر مطروحا ، واجتهد آخرون في نسبه إلى اللّغة اللاّتينية واعتبروا أن الكلمة محرفة من الكلمة اللاّتينية (*Acerbus*) والكلمة الأخرى (*Aquifolium*) ويبدو أن المصطلح أمازيغي محلي خاصة وانّ انتشاره واسع وصيغته الأمازيغية واضحة لكن كامبس اعتبر أن هذا المصطلح غريب عن اللّغة الأمازيغية دون أن يقدم على ذلك دليلا انظر: كامبس(غابريال)، مرجع سابق ، ص 115.
(74) *Jaleaud(L) , Op.Cit., p30.*
(75) الطريقة الرومانية تتمثل في تطعيم البرعم(*la greffe en écusson*) وهي قطع جميع أغصان الشجرة البرية وتثبيت برعم مجلوب من شجرة زراعية مطعمة في لحاء وغشاء الشجرة البرية وحمايته بطلاء وشده برباط انظر:
Pline l'Ancien ,XVII , XXVI.16 .

البري لا يمارس إلا في أفريقيا"[76] ورجحت هنريات كامبس أن يكون القدماء قد مارسوا التطعيم التّاجي *(La greffe en couronne)* الذي لا يزال يمارس إلى اليوم في منطقة القبائل[77]، خاصة وانّه ورد في رحلة سيلاكس*(Scylax)* أن أهالي جزيرة جربة كانوا يستخرجون الزيت من ثمار الزيتون البري، ويستعملون في ذلك الطريقة البدائية التي تتمثل في سحق الثمار وتركها في الماء تحت صخور كبيرة حتى يطفو الزيت فوق الماء[78].



الشكل (1): الزيتون البري المعروف باسم آزبوج

أمّا فيما يخصّ الكروم فقد أكّد دوكندول أنّها تنمو طبيعيا بالجزائر والمغرب[79] وهو نفس الاتجاه الذي سار عليه اقزال عندما أكّد بأنّها تنمو على حالتها البرية في بلاد البربر منذ

---

(76) *Pline l'Ancien , XVII , XXX.*
(77) *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine…Op.Cit.,p15.*
(78) كامبس(غابريال) ، مرجع سابق ، ص63.
(79) *De Condole (Alph.), Op.Cit.,pp151-152.*

بدايات الزمن الجيولوجي الرابع[80]، أما التين فان جلّ الكتابات التاريخية تجمع على أصوله الشرقية والأمر الذي مازال مختلفا فيه هو كيفية تحوله إلى الغرب التي بقيت محل جدال[81] ، و يري اقزال[82] أن بعض أنواع التين المختلفة قد تم إحضارها إلى أفريقيا الشّمالية من طرف الفينيقيين وعنهم يكون الأمازيغ قد أخذوا طريقة التأبير [83]، وهو الرأي الذي تمسك به باسي (*Basset*)[84]، أما كامبس فقد تحفظ من كون الفينيقيين هم من علم البربر طريقة التأبير وتساءل عن سبب التمسّك بهذه الآراء ونسب كل التقنيات الفلاحية – حتى البسيطة منها مثل التأبير الذي يمكن أن يتمّ بطريقة طبيعية- إلى الأجانب وتجريد البربر من أي مبادرة؟![85]

من النباتات التي أكّد العلماء أنها خاصّة بأفريقيا نجد اللّوز البربري[86] (انظر أدناه الشكل (2) ص25) وهو شجر خاص بالمنطقة يستخلص منه الزيت والصمغ [87] ، وأكّد دوكندول أن اللّوز من النباتات ذات الأصل المحلى بكل من أفريقيا الشّمالية وصقلية لكن زراعته تعود إلى بضعة قرون فقط عكس أسيا الغربية واليونان التي يظهر بانّ زراعته فيها تعود

---

(80) *Gsell (St.) ,H.A.A.N., T.I, p166.*

(81) عن موضوع التين وأصوله التاريخية راجع الدراسة :

- El Bouzidi (Said) ,le Figuier : Histoire ,rituel et symbolisme en Afrique du nord , in : D.H.A , Volume 28 ,N°2,2002, pp 103-120.

(82) *Gsell (St.),H.A.A.N , T.IV, p31.*

(83) التأبير*(la caprification)* : تتمثل العملية في نقل ثمار التين البري إلى شجرة التين البستانية فتنتقل الحشرات التي تسكنها إلى ثمار الشجرة المزروعة لوضع بيضها فتجلب معها لقاح الأعضاء الذكرية للتين البري التي تقوم بإخصابها، انظر: *Gsell (St.),H.A.A.N , T.IV, p31,note n°2.*

(84) *Basset (Henri) , les influences Puniques chez les Berbères ,R.Af ,Année 1921 ,p 348.*

(85) كامبس(غابريال) ، مرجع سابق ، ص ص116-117.

(86) اللّوز البربري يعرف بشجر الأرقان*(Arganier)* اسمه العلمي *(Argania spinosa)* من عائلة *(Sapotaceae)* وهو شجر متوطن في منطقة السوس جنوبي المغرب وكذا في منطقة تندوف بالجزائر ، انظر:

-El Alaoui (Narjys), L'Arganier,RAM Magazine(sept-oct),Casablanca 2001,pp24 et78-80.

(87) بورتير(رولان) و بارو(جاك) ، بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الأول (المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا) ،إشراف ج.كي- زيربو ، جان أفريك/اليونسكو،1983م، ص704.

إلى ما قبل التاريخ [88]. أما فيما يتعلق بالبقول والخضروات كالفول والعدس والحمص...الخ فانّ الباحثين قد أكّدوا قدم معرفة الأمازيغ لها استنادا إلى الأسماء الأمازيغية لبعضها وما جادت به الأبحاث الأثرية التي كشفت عن الفول المصري*(Féveroles)* مثلا في عدّة مناطق من شمال أفريقيا[89]. كما اخبرنا هيرودوت أنّ اللوتوفاجيين*(Lotophages)* كانوا يتغذون من اللّوتس *(Lotus)* وأنّهم كانوا يستخلصون منه نوعا من النبيذ[90].



الشكل (2): شجرة الأرقان *(Arganier)* المعروفة أيضا باسم اللّوز البربري.

---

(88) *De Condole (Alph.),Op. Cit. ,p175.*

(89) كامبس(غابريال) ، مرجع سابق ، ص ص105-107.

(90) حسب هيرودوت فانّ هذا النبات ينمو بجهة قورين وغربها على امتداد المنطقة الساحلية بين السيرت وبحيرة التريتون، وهو نبات شوكي ،ثمره يشبه التمر في رطوبته، ولعل الافراط في استهلاكه من طرف اللّوتوفاجيين هو الذي جعل هيرودوت يدعوهم بذلك، انظر: *Hérodote , IV , CLXXVII.*

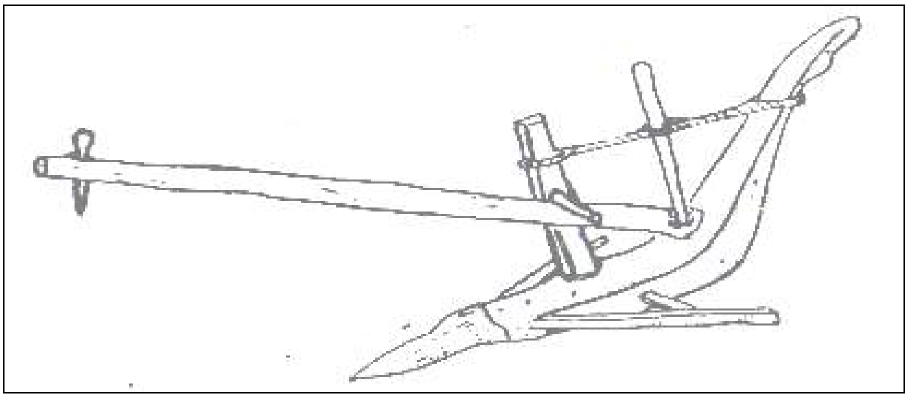
كشفت الحفريات الأثرية عن استعمال القدامى لعدّة أدوات في النشاط الفلاحي كالمجرفة *(Houe)* والمعول *(Pioche)* والمعزقة *(Binette)*...الخ بينما ظهر المحراث كشكل متطور يسهل عملية قلب التربة (انظر الشكل(4)أدناه ص27)، وقد أجمعت الدّراسات على وجود محراث محلي لا يد فيه لا للفينيقيين ولا للرومان بدأ قدماء الأمازيغ في استعماله منذ وقت مبكر كما دلّت على ذلك الرّسومات والنّقوش ، وتمّ تصنيفه إلى نوعين : محراث خشبي بسيط مسنّن ومحراث خشبي بسيط ذا مقبض زاحف وهو أكثر بدائية من الأول [91]. ولعملية درس المحصول فالأرجح أن الطريقة البدائية هي التي كانت تستعمل أين تقوم الحيوانات بدوس السنابل من اجل فصل الحبوب عن سوق النّباتات[92].



الشكل (3): مشهد حرث باستعمال محراث تقليدي(منطقة شمال غرب سطيف).

[91] ديزانج (جيهان)، مرجع سابق، ص443.؛ كامبس(غابريال)، مرجع سابق ، ص ص 107-112.

[92] حارش(محمد الهادي)، التاريخ المغاربي القديم ...مرجع سابق، ص119.



الشكل(4): محراث من منطقة الريف.

المصدر: كامبس (غابريال)، مرجع سابق، ص109.

وإثراءً لما أخبرتنا به النصوص وما كشفت عنه الحفريات الأثرية والرّسوم الصخرية ، فان الباحثين اعتمدوا على الدّراسات اللّغوية لدعم فكرة أصالة الفلاحة الأفريقية وذلك من خلال أسماء النّباتات والثّمار في اللّغة الأمازيغية بالإضافة إلى تحديد مجالها الجغرافي وفق ما يبينه الجدول التالي:

المقابل العربي	الاسم الأمازيغي	مجاله الجغرافي
القمح الصلب	إرْدَنْ (*Irden*) ومفرده إرَدْ (*Ired*)	اسم عام عند الأمازيغ يستعمل من واحة سيوة إلى جزر الكناري مع اختلاف طفيف في نطقه من جهة لأخرى *irdèn,iardèn,ihden,irisèn,irdayen, tirdent*.
الشّعير	ثِيمْزِّينْ (*Timzin*)	يطلق من واحة سيوة إلى جزر الكناري.
السورغو الأسود (*Sorgho noir*)	تَفْسُوتْ (*Tafsut*) إلّنْ (*Illan*) إنَلِّي (*Inelli*)	حبوب ثانوية عند أمازيغ الشمال ولكنها مفضلة عند طوارق الصحراء وقوا نش (*Gunanches*) جزر الكناري على القمح والشّعير وهي بعيدة عن المصطلح اللاّتيني(*milium*).
بذور الحبوب	إمَنْدِي (*Imendi*)	يستعمل عند جميع الأمازيغ للدّلالة على بذور الحبوب.

الزيتون	آزَمُورْ(*Azemmur*)	يطلق من طرف الأمازيغ للدلالة على الزيتون المطعم ماعدا في الأطلس الأعلى أين يطلق على الزيتون البري.
	زيتون (*Zitoun*) وزيت (*Zit*)	أسماء سامية تطلق على شجرة الزيتون والمادة المستخرجة من ثمارها ماعدا في طرابلس وعند الطوارق (*Jaleaud (L.), Op.Cit. ,p30.*).
	آزَبُّوجْ (*Zebouj*)	كلمة دالة على الزيتون البري في الريف ومنطقة القبائل والأوراس والفزان.
	أَلْيُو (*Aleo*)	اسم يطلقه الطوارق على الزيتون البري و هو قريب من المصطلح الإغريقي (*elaia*) واللاّتيني (*olea*) (كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص113-116.).
التين	أَزَارْ (*Azar*)	تطلق هذه التسمية عند أمازيغ التل أما الطوارق والقوانش فيسمونه ب: أهار(*Ahar*) ومؤنثها تاهارت. ويطلق عليها سكان المغرب الاقصى عدة تسميات هي تازارث *Tazarth*، *Bacor*, *l'araoula*, *takhrifa*, *karmous* ويظهر جليا بان بعضها عربي (*El Boozidi (Said), Op.Cit.,p111.*).
اللّوز	تَالُوزَتْ(*Talouzet*)	اللّوز يحمل اسما عربيا عند جميع الأمازيغ (*De Condole (Alph.), Op.Cit., p175.*).
النّخيل	تِيزَدَايِّينْ(*Tizdain*)	كل الأمازيغ
العنب	تِيزُورِينْ (*Tizurin*)	كل الأمازيغ
الحمص	إِكِّيكَرْ (*Ikiker*)	يطلق من طرف سكان جنوب المغرب ومشتق من المصطلح اللاّتيني(*Cicer*).
الفول	إِبَاوَنْ (*Ibaun*)	يطلق من واحة سيوة إلى المغرب ونفي الباحثون أن يكون له

		علاقة بالاسم الذي يطلق في اللاّتينية على الفول(*Faba*) (كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص106.).
الثّوم	تِيسْكَرْتْ (*Tiskert*) تِيسَرْتْ (*Tissert*)	عند كل الأمازيغ وقد أكد دوكندول أن هذه التّسمية مختلفة تماما عن اللّغات الأخرى (*De Condole (Alph.), Op.Cit., pp50-52.*).

الجدول (1):أسماء مواد زراعية في اللّغة الأمازيغية

المصدر: *Laoust (E.), Mots et choses berbères…Op.Cit.,pp263-448.*

إنّ الأمر الملاحظ من خلال الجدول هو أن هذه الأسماء أمازيغية ولا علاقة لها بلغات أخري ، والملاحظ أيضا هو الانتشار الواسع في استعمال هذه التّسميات عند الأمازيغ فاغلبها لا تختص بمنطقة معينة بل هناك تسميات تستعمل حتى خارج المنطقة في غرب مصر وفي الصحراء الواسعة وجزر الكناري ، فالأصول المحلية الأمازيغية لهذه التّسميات وكذا انتشارها الواسع بين الشّعوب الأمازيغية هو الذي جعل الباحثين يقرّون اليوم بقدم الزراعة لدى سكان شمال أفريقيا.

إن هذه الدلائل لا تدع المجال لأي شك في شأن قدم وعراقة النشاط الزراعي في أفريقيا القديمة؛ فالمشاهد التي نقشت على الصخور واستعمال المجرفة والمحراث والتحكم في التقنيات الفلاحية المختلفة بالإضافة إلى الوجود القديم للمنشآت المائية وأعمال التهيئة الأخرى على بساطتها وكذا وجود تسميات أمازيغية لهذه المواد الفلاحية... كل هذه الإثباتات شواهد قوية على قدم الزراعة بالمنطقة وتأريخ لحضارة زراعية ريفية بربرية باكرة.

II– الاستيطان الزراعي الإغريقي بقورينائية:

بدأ الاستيطان الإغريقي في سواحل برقة منذ القرن الثّامن قبل الميلاد ، فقد نزح أهالي جزيرة ثيرا *(Thera)* في البداية إلى جزيرة بلاتيا *(Palatéa)* (انظر الخريطة (4) أدناه ص35) أين أقاموا فيها مدّة منتظرين انتقالهم إلى البر الأفريقي ، فإذا كانت الهجرات الأولى

تتسم بالفردية وقلة عدد المهاجرين فإنّها اكتست طابعا تنظيميا فيما بعد خاصّة بعد النّداء الذي وجهه باتوس الثاني والذي أقدم على توطين جاليات إغريقية جديدة قادمة من المدن اليونانية على أراضي الليبيين، ومع مرور الوقت وزيادة عدد الأفراد المهاجرين سيطر الإغريق على أخصب الأراضي بالمنطقة و التي كانت قبل ذلك ملكا للقبائل الليبية المحلية.

اخبرنا هيرودوت عن أسطورة تأسيس قورين وشخصية باتوس المتلعثم الذي تسبّب في غضب الآلهة بعد أن رفض الاستجابة لطلبها المتمثل في إنشاء مستعمرة جديدة بليبيا ، فتسبّب هذا الرفض في حدوث جفاف مسّ جزيرة ثيرا مدّة طويلة أنهك أهلها ما جعلهم يفكرون في تنفيذ هذا الأمر[93].

حتى لو سلمنا بدور هذا الدافع الديني الاعتقادي رغم أحداثه الأسطورية في تأسيس مستعمرة قورين ، فان الدافع الاقتصادي يظهر بوضوح ؛ فالقحط الذي أصاب هذه الجزيرة جعل من سكانها يفكرون في الهجرة ، وقد اتفق معظم الباحثين على أن الاستيطان الإغريقي بقورينائية هو "استيطان زراعي" تم بدافع البحث عن الأراضي الصالحة للزراعة والتي تفتقد إليها جزيرة ثيرا [94]، وما لبث هؤلاء المعمرون الوافدون أن استقروا في المناطق الصالحة للزراعة ولم يبقوا لليبيين سوى على مناطق السهوب الجرداء التي أُرغم هؤلاء إلى النّزوح إليها[95].

---

[93] نقلا عن: عقون (محمد العربي) ، **الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم** ، نشر دار الهدى ، عين مليلة، الجزائر 2008م ، ص ص 65-67.

[94] شامو(فرنسوا)، **في تاريخ ليبيا القديم : الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ**، ترجمة وتقديم محمد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي 1990، ص172.

[95] نفسه ، ص 286.

لقد مجّد هيرودوت ثراء منطقة قورين[96] وأشاد بخصوبة الأرض السوداء التي يتميّز بها إقليم الكينوبس *(Cinyps)* فالأرض كما يقول لا خشية عليها من الجفاف ولا من الفيضانات ، وأشاد كذلك بمردودية ارض إقليم يوسبيريدس *(le teretoire de les Evespérites)* التي تغلّ كل عام مائة ضعف ما بذر فيها إلاّ أنّها اقل من الإقليم الأول الذي ينتج ثلاثة أضعاف من ذلك[97].

وعن إقليم قورين دائما يحدثنا هيرودوت عن نظام دورة زراعية عجيبة [98] تدوم فيها فترة جني المحاصيل ثمانية أشهر في السنة ، بحيث تسبّب التّفاوت في الارتفاع في تباعد مواسم جني المحاصيل بين المنطقة المحاذية للساحل والمنطقة الوسطي الموازية له(منطقة التلال) والمناطق العليا الجبلية ؛ فلا تكاد تنتهي محاصيل منطقة ما حتى تنضج في الأخرى ، ووصف شامو هذه الرواية بأنّها رواية صادقة وانّ ما جاء به هيرودوت مطابق للحقيقة تماما ، ويضيف الباحث انّه قد شاهد بنفسه هذه الظاهرة أواخر يناير 1946م[99].

وعن خصائص الإنتاج الزراعي بالإقليم تحدث القدامى عن نوعين من المظاهر خلال القرن الرابع ق.م ؛ جهة مفتوحة على السهول العليا تنتج الحبوب ويمارس فيها الرّعي وجهة أخرى خاصة بزراعة الأشجار المثمرة على رأسها الزيتون ، ورغم أن السهول العليا أكثر عرضة للجفاف والرّياح الجنوبية إلا أنّ انتشار زراعة الحبوب فيها كان واسعا [100] (انظر المنطقة B على الخريطة (5)أدناه ص35).

---

[96] حسب البعض فانّ تسمية قورين أطلقت على المنطقة من طرف المستوطنين الإغريق وتعني " المكان الذي ينمو فيه نبات القورا بكثرة" والقورا هو نبات الزنبق البري والمقطع الأخير "ايني" لازمة خاصة بأسماء النباتات أو الحيوانات أو التربة، انظر: شامو(فرنسوا) ، مرجع سابق ، ص157.

[97] *Hérodote, IV , CXCVIII.*

[98] *Ibid., IV , CXCIX .*

[99] شامو (فرنسوا) ، مرجع سابق ، ص ص186-187.

[100] *Laronde(A.) , la vie agricole en Libye jusqu'à l'arrivée des Arabes* , libyan studies 20, *edeted by D.J.Mattingly and J.A.Lloyd , 1989 , p131.*

أدي احتكار الأراضي من طرف المعمرين الإغريق إلى ظهور إقطاعيات زراعية في مختلف المناطق، بحيث يشيّد داخل كل إقطاعية حصن يحتمي داخله الإقطاعي الإغريقي عند الضرورة و يتحول في موسم الأمن والثّراء إلى مخزن للمحاصيل ، كما أنّ لكلّ إقطاعية زراعية جهازها الإداري وقضاتها وجمعيتها وكهنتها ، يتعاونون على تسيير شؤون الإقطاعية والاستثمار الأمثل لأرضها الخصبة [101]، فحتى وان لم تصلنا أخبار عن وضعية السكان الليبيين المحليين وعن النظم الاقتصادية السائدة خلال تلك الفترة إلا انّه دون شك كان لليبيين دورهم كمزارعين وأجراء في الأراضي الاحتكارية الخاصة بالملك والطبقة الإقطاعية ، ويمكن حتى أن نتصور وجود طبقة من الفلاحين الليبيين الملاّك إلى جانب العاملين لدي الإغريق[102].

كان من نتائج سياسة الاحتكار و الاستيلاء على الأراضي الخصبة من طرف الإغريق أن دُفِع الملاّك الأصليون الليبيون جنوبا نحو منطقة السهوب الجافة والصحراء أين مارسوا نشاط الرّعي واضطروا لاستصلاح الأراضي البور وابتكروا طرقا جديدة لاستغلالها ؛ فهيرودوت اخبرنا أن القرامنتيين *(Gramantes)* كانوا يغطون التربة المالحة للسبخات بطبقة من التربة الخصبة ليتمكنوا من استزراعها[103]، كما استغلوا مياه العيون والآبار لري مزروعاتهم ، واستخدم القرامنت كذلك وسائل بدائية لحرث أراضيهم [104]. ونشير إلى أنّ الأهالي الليبيون لم يكتفوا بالنّزوح جنوبا دون أن يقاوموا هذه السياسة ؛ فقد قامت القبائل الليبية بعدة ثورات ضد الإغريق بل واستعانوا حتى بجيرانهم المصريين لمواجهتهم[105].

---

(101) شامو(فرنسوا) ، مرجع سابق ، ص 274.

(102) عبد العليم (مصطفى كمال)، مرجع سابق، ص77.

(103) Hérodote ,IV , CLXXXIII .

(104) دراز (احمد عبد الحليم) ، **مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م** ، نشر موقع تاوالت الثقافي، http://www.tawalt.com/ ، ص ص 128-129.

(105) عن الثورات التي قامت بها القبائل الليبية ضد الإغريق يراجع:

- Masson (Olivier) ,Grecs et Libyens en Cyrénaïque,d'après les témoignages de l'épigraphie, in : Ant.Af, T.10,1976, pp 49-52.

تنوعت الزراعة التي أقامها الإغريق بقورينائية وانتشرت على السهول الساحلية ومنطقة التلال وخاصة في مناطق الوديان أين شهدت على ذلك السدود الصغيرة التي اكتشفت في مجاري الوديان والتي بنيت للسيطرة على المياه وتثبيت التربة [106]، وكانت الأرض الليبية تنتج إنتاجا وفيرا ومتنوعا فقد أكّد هيرودوت على أهمية إنتاج القمح وانتشار زراعته بالمنطقة [107]، كما دلّ لوح الإمدادات بالحبوب الذي عُثِر عليه بقورينائية على وفرة إنتاجه ، فالنّقيشة أشارت إلى أن قورين أمدت مدنا إغريقية عانت من المجاعة بكميات كبيرة من الحبوب بلغت ثمانمائة وخمسة آلاف مكيال إغريقي[108] ، ولاشك أن هذا لم يكن إلا جزءا بسيطا من الإنتاج دون احتساب الاستهلاك المحلي والكميات المخزنة والموجهة نحو الأسواق.

كما أكّد القدامى على تواجد أشجار الزيتون بقورينائية منذ أكثر من ثلاثة قرون قبل الميلاد وأشادوا بوفرة الزيت بالمنطقة [109] وقد تحدثت قوائم المنتجات الزراعية التي حدّد المدبرون الزراعيون أسعارها عن اللّوز والتين بالإضافة إلى الزيت ، وورد ذكر لثلاثة أنواع من العنب في سجلات المدبرين الماليين الذين كانوا يشرفون على أوقاف معابد قورين الزراعية : عنب المائدة الطازج والعنب الأسود الذي تصنع منه الخمور والعنب الذي يصنع منه الزبيب[110].

وما اشتهر به أهل قورين أكثر هو تجارة نبات السلفيوم *(Silphium)* [111] حيث احتكرت عائلة باتوس تجارته نظرا لأهميته المتعددة : حيث يستعمل كعلف مسمن للمواشي

---

[106] انديشة (احمد محمد)، **التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث** ، ط1 ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا 1993م ، ص125.

[107] *Hérodote , IV , CXCVIII .et CXCIX.*

[108] دراز (احمد عبد الحليم) ، مرجع سابق ، ص 90.

[109] *Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux) ,R.Af , 13 éme Année, 1869 , p96.*

[110] شامو(فرنسوا) ، مرجع سابق ، ص ص 289-290.

[111] ظلّ هذا النبات ولا يزال مجهولا ، حيث لم يتوصل الباحثون إلى العثور عليه وتحديده ، وتشير النصوص القديمة إلى انقراضه تدريجيا من قورينائية في المرحلة الأخيرة التي سبقت ميلاد المسيح ولم يعد موجودا نهائيا مطلع القرن الخامس في شمال أفريقيا، انظر: نفسه ، ص309.

ويستخرج منه عصير لذيذ ويستعمل في الطبخ كنوع من الخضروات والتوابل بالإضافة إلى انّه تستخرج منه مادة صمغية قوية الرائحة تستعمل للتداوي قديما(112)، وقد أشار هيرودوت إلى أن هذا النبات ينمو ابتداء من جزيرة بلاتيا *(Platea)* إلى غاية حدود السيرت (113)، وقد اخبرنا سترابون أن القرطاجيين يبدلون الخمر بالسلفيوم الذي يهربه أناس من قورينائية بمنطقة شاراكس *(Charax)* بالسيرت الكبير (114)، وقد حافظ هذا الترياق على قيمته خلال العصر الروماني وكانت تجارته تخضع للوائح صارمة ، ولكن هذا النبات انقرض نهائيا أواخر العهد الروماني وترجع أسباب ذلك حسب شامو إلى ممارسة الرّعي المكثف بمناطق نموه واستنزافه من طرف صيادي السلفيوم الذين يتنافسون على عصارته بالإضافة إلى التوسّع الزراعي الذي شهدته المنطقة خاصة خلال العصر الروماني(115).

ممّا سبق يظهر بان الاستيطان الإغريقي بقورينائية قد نجح إلى حد كبير في تحقيق أهدافه الاقتصادية المتمثلة في استغلال الموارد خاصة منها الإمكانيات الزراعية الكبيرة التي يتميز بها الإقليم ؛ حيث احتكرت الطبقة الحاكمة كل مصادر الثّروة بدءا باحتكار الأراضي الزراعية إلي احتكار تجارة نبات السلفيوم ، وعملت على تغطية عجز المدن الإغريقية بتموينها بخيرات أفريقيا خاصة في المراحل التي عانت اليونان فيها من أزمات ومجاعات.

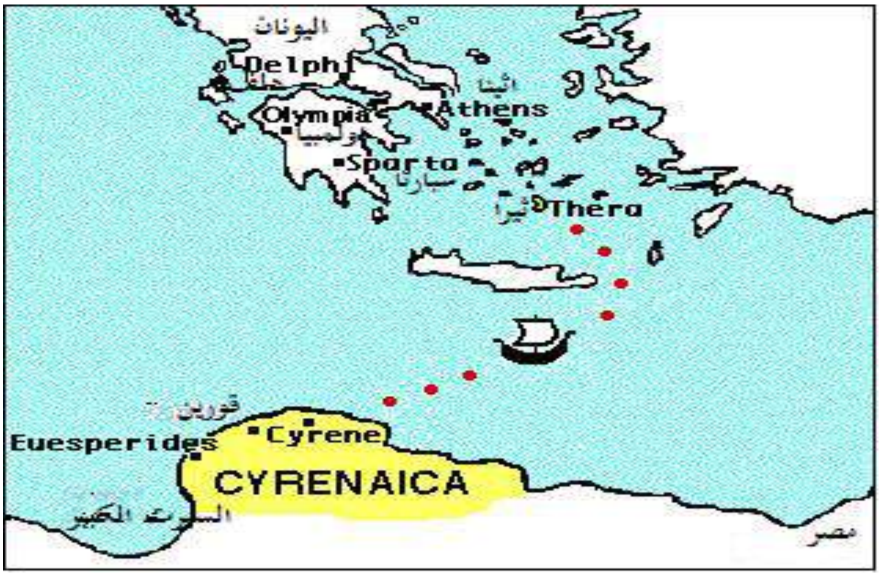
---

(112) صفر(احمد) ، **مدنية المغرب العربي في التاريخ** ، ج1 ، دار النشر بوسلامة ، تونس1969م، ص50.

(113) Hérodote, IV , CLXIX .

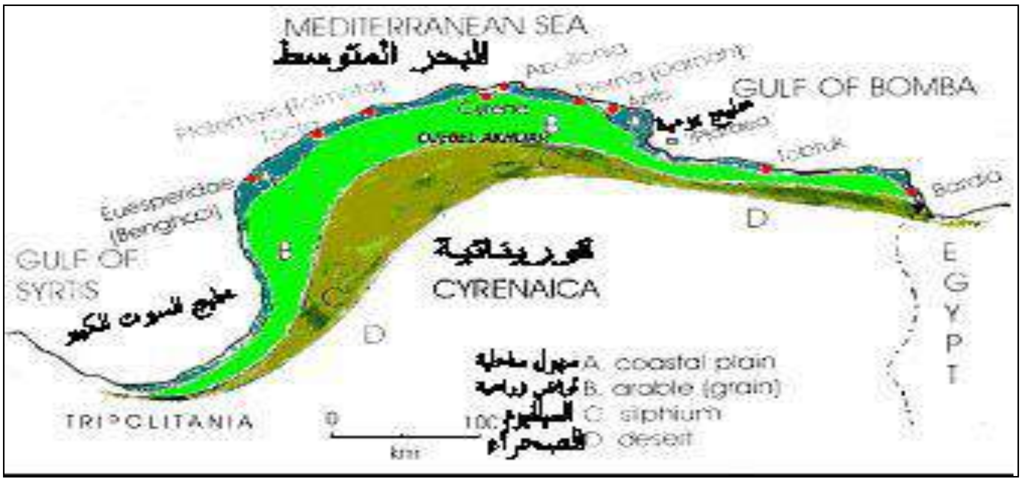
(114) Strabo , XVII ,III ,20.

(115) شامو(فرنسوا) ، مرجع سابق ، ص ص 316-317. وقد اهتم شامو بالدراسة والبحث عن هذا النبات "اللّغز" حيث خصص الفصل الأخير من دراسته(الحادي عشر) لدراسة هذا النبات (انظر: ص ص307-331). كما قام مترجم دراسته الأستاذ محمد عبد الكريم الوافي بترجمة دراسة أخرى لنفس الباحث حول نفس الموضوع منشورة سنة 1985 م بلندن في مصنف جماعي تحت عنوان*(Cyrenaica Antiquity)* (انظر الملحق1 من الكتاب ص ص 339-359).



الخريطة(4): موقع قورينائية واليونان

المصدر: *http://venitism.blogspot.com*



الخريطة(5): الزراعة القديمة في قورينائية.

المصدر: *http://www.sciencefile.org/*

III– الزراعة القرطاجية:

حتى ولو كان المجتمع القرطاجي ميّالا بطبعه إلى البحر والتجارة وتأسيس المستعمرات إلاّ أنّ ذلك لم يصرفه عن ممارسة النشاطات الاقتصادية الأخرى ، فقد أجمع المؤرخون على اهتمام القرطاجيين وبراعتهم في ممارسة التجارة ، ولكن ذلك لا ينبغي أن يُفهم منه إهمال الزراعة ؛ فقد كان القرطاجيون مشدودين إلى الأرض التي زرعوها وطوّروا أساليب استغلالها وأحسنوا استثمارها، فبالإضافة إلى التجارة كانت الأرض هي الأخرى مصدرا لثراء القرطاجيين خصوصا في المراحل الأخيرة من تاريخهم بل و بالغ البعض كثيرا عندما أكّدوا بانّ الزراعة كانت عند القرطاجيين أكثر اهتماما وشرفا من التجارة[116].

ساد الاعتقاد عند المؤرخين والباحثين لفترة طويلة بانّ الفينيقيين هم الذين نقلوا الزراعة وأساليبها من الشرق إلى الغرب ، لكن البحوث الحديثة قد تجاوزت هذه النظرية القديمة[117] ، ولا يجب من جهة أخرى أن نهمل الدور الذي لعبه القرطاجيون في تطوير الزراعة بشمال أفريقيا ، ولعل الإضافة القرطاجية في هذا المجال تكمن أساسا في تطوير تقنيات الإنتاج و تنويع الزراعة وتكثيف الاستغلال [118]. فإذا كان معظم الباحثين ينكرون فضل الفينيقيين في إدخال زراعة بعض الأنواع إلى المنطقة كزراعة الزيتون والكروم ؛ فإنّهم قد ابدوا من جهة أخرى تقبلهم لهذا الفضل فيما يتعلق بزراعة الرّمان الذي ذكر بلين بانّ زراعته منتشرة بكثرة حول قرطاج وأشاد بجودة الأنواع التي تغرس بقرطاج [119]، وهو معروف بتسمية التفاح البوني(*Malum Punicum*) وقد حافظ على هذه التسمية خلال العهد الروماني، ورجّح دوكندول أن يكون ذا أصل شرقي بحيث يرى انّه من المحتمل جدا أن يكون الفينيقيون هم

---

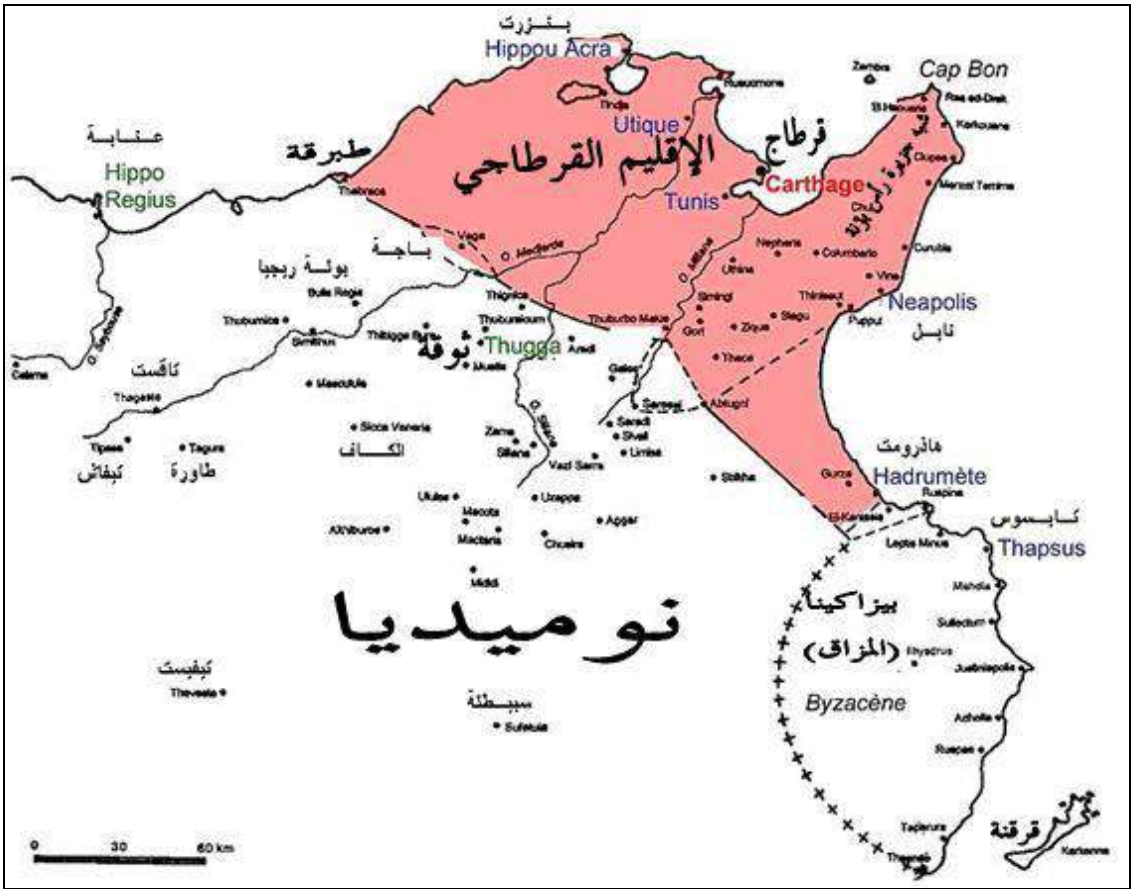
(116) *Lacroix (F.) , Afrique Ancienne (procédés agricoles) , R.Af , Année 1870 , p13.*

(117) انظر أعلاه ص19.

(118) رستوفتزف (م.) ، **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي** ، ج1 (المتن) ، ترجمة ومراجعة زكي على ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1957م، ص29. ؛ بورونية (الشاذلي)و الطاهر (محمد)، **قرطاج البونية : تاريخ حضارة** ، مركز النشر الجامعي ، تونس 1999م، ص253.

(119) *Pline l'Ancien ,XIII , XXXIV .*

الذين نقلوه إلى قرطاج ومن الممكن أن يكون مزروعا مثل مصر[120] ، أمّا التين فانّ اقزال يري أن الفينيقيين يكونون هم الذين نقلوا بعض أنواعه إلى أفريقيا الشّمالية[121].



الخريطة (6): الإقليم القرطاجي خلال القرن الثالث ق.م

المصدر: *http://www.memo.fr*

لقد عرف الكتّاب القدامى أفريقيا من خلال إقليم قرطاج ، ونرى أنّهم وهم يصفون ازدهار ذلك الإقليم إنّما يصفون ازدهارا لا يد لأشفاط قرطاج فيه ، بل إنّ ساكنة الإقليم الأصلين الذين يعبر عنهم باسم الليبيفينيقيين أي رعايا قرطاج من الليبيين (قدماء الأمازيغ) هم من كانوا يقومون بكلّ الأنشطة الفلاحية وهم الذين ظلّوا يزودون قرطاج بما تحتاج إليه من مؤن على امتداد قرون ، وإذا كان هؤلاء قد أشادوا بالثّراء الزراعي الذي عرفته قرطاج والأقاليم

(120) *De Condole (Alph.), Op.Cit., p191.*
(121) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T. IV, p31.*

المجاورة لها من خصوبة في التربة وتنوع في المحاصيل واستعمال لأساليب علمية في الزراعة ، فإنّهم في واقع الأمر إنّما يشيدون بنشاط أولئك الليبيفينيقيين، وهذا ما ينبغي أن نعرفه وأن نستنتجه من القراءة بين السطور، فهذا ديودور الصقلي يتحدث عن إعجاب اغاثوكليس*(Agathocles)* وجنوده بالازدهار الزراعي الذي لاحظوه في طريقهم إلى قرطاجة بعد نزولهم في شبه جزيرة رأس الطيب أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ؛ فقد كانت الأرض حسب ديودور رائعة الخصوبة وكثيرة الإنتاج والمياه تنساب بين الحقول والمزروعات بوفرة والمحاصيل متنوعة ومنتشرة في جميع الأرجاء خاصة منها الكروم والزيتون ،فقد كانت الأرض تفيض بالخيرات وتتدفق منها المحاصيل على تباين أنواعها [122] ، وهو نفس الثّراء والازدهار الذي عرفته أفريقيا بعد ذلك بحوالي نصف قرن أثناء حملة ريقولوس*(Régulus)*[123].

وكانت قرطاج محاطة بالبساتين والحدائق التي تنتج البقول والخضروات ، بينما تميزت المناطق الساحلية التي سيطر عليها القرطاجيون وشمال شبه جزيرة رأس بونة[124] بالتوسع في إنتاج مختلف المحاصيل خاصة منها الزيتون والكروم ، وقد وسّعت قرطاج ملكياتها على حساب جيرانها وشهدت الطبقة الارستقراطية تنافسا حول امتلاك أراض زراعية جديدة ، وتوسع القرطاجيون حتى وصلوا إلى مدينة تبسة وأخضعوها للجزية خلال الحرب البونية الأولى[125] ، ولكن التوسّع الحقيقي في الأراضي الأفريقية تم بعد معاهدة سنة 201 ق م بين قرطاج وروما ؛ فعندما استحال على القرطاجيين أن يبقوا تجارتهم الخارجية واسعة ومزدهرة كما كانت من قبل انصرفوا إلى تنمية المصادر الطبيعية الداخلية التي يتميز بها إقليمهم ، فحسب الرواية التي نقلها لنا المؤرخ أوريليوس فيكتور *(Aurellus Victor)* فان القائد القرطاجي هانيبال قد وجّه

---

[122] *Diodore de Sicile , XX ,I , 752.*

[123] *Polybe , I , XXX et XXXVI.*

[124] ميادان (مادلين هورس) ، **تاريخ قرطاج** ، ترجمة إبراهيم بالش ، ط1، منشورات عويدات ، بيروت-باريس 1981م، ص 13.

[125] شنيتي (محمد البشير) ، **أضواء على تاريخ الجزائر القديم(بحوث ودراسات)** ، دار الحكمة ، الجزائر 2003م، ص44.

جنوده لاستصلاح الأراضي وغراسة أشجار الزيتون بعد هذه المعاهدة خشية منه من الخطر الذي قد تشكله بطالتهم على الدولة القرطاجية(126).

أشاد بلين بالخصوبة النادرة للتربة بجهة المزاق *(Byzacium)* فقد كانت مردودية الحبوب فيها تعادل مائة للواحدة (127) ويقول في موضع آخر: "إن ارض بيزاكيوم بأفريقيا خصبة إلى درجة أنّها تنتج مائة وخمسين للواحدة ، ولا يستطيع المحراث اختراقها في مواسم الجفاف لكن عند هطول الأمطار فانّ حمارا هزيلا يجر السكة مع عجوز ضعيفة يجعل التربة تتفتت بسهولة"(128). وما شكّل دليلا آخر على الثّراء والتنوع الزراعي القرطاجي حتى ولو كان بطريقة غير مباشرة هو ما وصل إلينا من فقرات من موسوعة ماغون الفلاحية(129) التي دلّت على تنوع زراعي وفلاحي واستعمال أساليب علمية في الزراعة وحتى نصائح في كيفية تسيير المرافق الزراعية ، فما ورد في هذه الموسوعة دون شك مستنبط من الطبيعة الأفريقية ووصف

(126) ديكيريه (فرنسوا) ، **قرطاجة أو إمبراطورية البحر** ، ترجمة عزالدين احمد عزو ، مراجعة وتحقيق عبد الله الحلو ، ط1، الأهالي للنشر والتوزيع ، دمشق 1996م، ص ص 96-97.

(127) *Pline l'Ancien , V, III.4.*

(128) *Ibid., XVII , III.5.*

(129) ماغون القرطاجي*(Magon le Carthaginois)*: (القرنان*III* و*II* ق.م) نشر كتابا عرف باسم الفلاحة الأفريقية في ثمان وعشرين جزءا دون فيه كل الخبرات الفلاحية التي استخلصها من تجواله في الأرياف الأفريقية واحتكاكه بالفلاحين في تلك الأرياف ، لم يصلنا شيء من كتابه هذا الذي ترجم إلى اللّغة اللاّتينية والإغريقية سوى بعض الإشارات في أعمال بلين وفارون وكلومال، انظر:(http://fr.wikipedia.org/wiki/Magon_le_Carthaginois)، ولقد تركت هذه الموسوعة الفلاحية أثرا بالغا على الفلاحة خلال العصور القديمة ، حيث كان لها دور كبير في تطوير الفلاحة خاصة في العهد الروماني ، حيث تفطن مجلس الشيوخ الروماني بعد غزو قرطاج إلى أهميتها فأمر بالاحتفاظ بها والعناية بترجمتها ، لكن ولسوء الحظ لم يصلنا من هذه الموسوعة إلا بعض الفقرات التي اقتبسها الكتاب القدامى منها والتي تدور مواضيعها حول تربية المواشي وكيفية زرع بعض الأنواع بالإضافة إلى نصائح عامة حول الاستغلال الزراعي ، ولقد أثارت شخصية ماغون جدلا بين الباحثين والمؤرخين فبلين قد اعتبره جنرالا(*Pline l'Ancien, XVIII ,V.*)، وتبدو مسألة التحقق من هذا الاسم صعبة للغاية نظرا لوجود عدة جنرالات بنفس الاسم تعاقبوا على قيادة الجيش القرطاجي، غير أنّ ما لا جدال فيه هي الشهرة الكبيرة التي اكتسبها ماغون وكتابه، فقد أكد فارون أن شهرته قد فاقت شهرة كل الكتاب الإغريق الذين كتبوا في نفس المجال، أما كلوميل فقد دعا إلى اعتباره"أبا للعلوم الريفية"، انظر: *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.IV , pp4-5.*

للأوضاع الزراعية السائدة ونقل للخبرات الأفريقية في هذا المجال والتي يمكن أن نعتبرها مقياسا لطبيعة النشاط الزراعي الذي كان لدي القرطاجيين، وهذا الازدهار والتطور الذي بلغته قرطاج في هذا المجال هو الذي جعل من أعدائها الرومان يرمقونها بعين الغيرة والحسد ، حيث تزعم كاتون[130] العضو بمجلس الشيوخ الروماني الفئة التي تدعو إلى تدميرها والقضاء على منافستها لروما.

إن عملية ضبط الأملاك في المناطق الأفريقية الخاضعة لقرطاج صعبة للغاية ولكن ما لا شك فيه أن الطبقة الارستقراطية القرطاجية كانت تحتكر نسبة كبيرة منها [131]، حيث تشيّد وسط هذه الملكيات بيوت ريفية متقنة الصنع تعكس ثراء ملاكها حسبما اخبرنا به ديودور الصقلي [132]، وكانت هذه الطبقة الغنية من أعيان قرطاج تحتكر الوظائف الاقتصادية بقرطاج بالإضافة إلى اهتمامها بالزراعة في الأرياف وهو ما اضرّ بالزراعة حسب ماغون الذي نصح " كل من يبتغي شراء ارض بالريف عليه أن يبيع مسكنه بالمدينة حتى لا يفضل طيب المقام في المدينة على الريف[133]". وعن طبيعة هذه الملكيات ومقدار مساحتها يرى اقزال بأنّه حتى ولو ورد في النصوص ذكر لوجود ملكيات في أيدي الطبقة الارستقراطية في الشّمال الشرقي من تونس إلاّ أنّ وضعيتها تبقي مجهولة واستبعد بان تكون هذه المستثمرات أكثر اتساعا من مستثمرات العهد الروماني[134].

افترض الباحثون أن يكون قدماء الأمازيغ الذين انتُزِعت منهم الأراضي هم الذين كانوا يعملون بالأرض سواء كعمال مسخرين أو كأجراء يوميين أو رقيقا والذين كانت

---

(130) كاتون الكبير *(Caton l'Ancien ou le Censeur)*: (234-149ق.م) كاتب روماني معاصر لماغون القرطاجي نشر عددا من الأعمال أهمها كتاب الفلاحة *(De Agri Cultura)* يراجع في هذا المجال:

*-Martin (René) ,**Recherches sur les agronomes latins** ,Les Belles Lettres ,Paris 1971 , chap.IV.*

(131) جوليان (شارل أندري) ، مرجع سابق ، ص 112.

(132) Diodore de Sicile , XX ,I , 752.

*(133) Columelle, **De l'économie rurale**, traduit par Luis Du Bois, C.L.F.Panckoucke, Paris 1844,I,I.*

(134) Gsell (St.) , H.A.A.N., T.IV , p46.

وضعيتهم دون شك مزرية [135]، ولا يستبعد اقزال أن يكون بعض الليبيين من العمال البسطاء ملاّكا لقطع أرضية صغيرة بجوار قرطاج والمدن الساحلية الفينيقية الأخرى[136].

اشتهر القرطاجيون بزراعة الأشجار المثمرة وعلى رأسها أشجار الزيتون و الكروم نظرا لملاءمة مناخ المنطقة مع هذه الزراعة ، ويظهر التأثير البوني واضحا في الانتشار الواسع للمصطلح السامي"زيتون" الذي أطلقه الفينيقيون على هذه الشجرة، وكانت زراعة هذه الشجرة واسعة في جنوب قرطاج وجزيرة قرقنة حسب ما اخبرنا به هيرودوت[137]، كما لاحظ ديودور انتشار زراعتها بشبه جزيرة رأس بونة [138]، وقد سبق وان تحدثنا عن دور جيش حنبعل في توسيع هذه الزراعة ، ورغم هذه الحقائق الواضحة إلاّ أنّ هناك من يرى أنّها لم تتجاوز إقليم التل التونسي ولذلك كانت قرطاج تستورد الزيت من صقيلية لمدة طويلة[139] . أمّا بالنسبة للتطعيم فرغم أن بعض الباحثين يعتبرونه ابتكارا فينيقيا [140]إلاّ انّه هناك عدة تأكيدات تبرز أنّ البربر قد مارسوه قبل وصول الفينيقيين بكثير[141].

وفق ما اخبرنا به ديودور فان زراعة الكروم قد ازدهرت حول قرطاج وغربها [142]، أمّا بلين فيخبرنا بانّ بقايا أشجار النخيل والكروم كانت من مخلفات الفينيقيين بالعرائش (*Lixos*) عند قدم جبال الأطلس المغربي[143]، ولقد اشتهر القرطاجيون بإنتاج الخمور الجيّدة وعرفوا باستهلاكهم الكبير لها مما اضطر الحكام إلى سن قانون يمنع استهلاكها على الجنود والعبيد وربات البيوت نهائيا بالإضافة إلى المسيرين والقضاة أثناء أداء مهامهم[144].

---

(135) جوليان (شارل أندري) ، مرجع سابق ، ص 112.

(136) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.IV , p46.*

(137) *Hérodote ,IV , CXCV .*

(138) *Diodore de Sicile , XX ,I , 752.*

(139) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.IV , pp29-30.*

(140) مازيل (جان) ، مرجع سابق ، ص165.

(141) انظر أعلاه ص22.

(142) *Diodore de Sicile , XX ,I , 752.*

(143) *Pline l’Ancien ,V,I .*

(144) *Gsell (St.) , H.A.A.N.,T.IV , pp25-26.*

كما اشتهر الإقليم القرطاجي بزراعة أشجار التين وإنتاج أنواع جيدة منه وهذا ما جعل كاتون يستعمل ثمرة تين أفريقية ليبرز ثراء ونمو قرطاج المتزايد ويحرض مجلس الشيوخ على تدمير قرطاج [145] في عبارته الشهيرة[146] ، وقد يكون الفنيقيون هم الذين حوّلوه إلى الغرب وعلموا البربر عملية التأبير رغم أن بعض الباحثين يستبعد ذلك [147]، ومن الأشجار الأخرى التي اهتم القرطاجيون بزراعتها النخيل الذي اخبرنا بلين بانّ آثار زراعته موجودة بالأطلس المغربي وهو من بقايا الفينيقيين بالمنطقة [148]، أما اقزال فيري أن ظهور هذه الشجرة على النقود القرطاجية " *EX-VOTO* " دليل على أنّها كانت ذات أهمية عندهم[149]، ولم يكتف القرطاجيون بزراعة هذه الأنواع فقط بل اشتهروا أيضا بزراعة البقول والخضروات خاصة بضواحي قرطاج منها: الخرشف ، الثّوم البونيقي ، الجلبان البونيقي والعدس البونيقي[150].

بالمقارنة مع الأشجار المثمرة وتربية الحيوانات فانّ القرطاجيين لم يهتموا كثيرا بإنتاج الحبوب ؛ فقد كانت الأرياف البعيدة عن قرطاج هي التي تتولى عملية إنتاج القمح والشّعير بينما شكلت قرطاج والمدن الفنيقية الأخرى مراكز استهلاك له [151]، واعتبر بوليب أن المجال الزراعي لقرطاج يغطي احتياجاتها اليومية لكن الدولة القرطاجية تضطر في حالة الحروب إلى اعتماد موارد مناطق اللوبيين والنوميدين من اجل ضمان الاحتياطي الضروري لها وفي هذه الحالة يفرضون على القبائل ضعف ما كانت تدفعه قبل ذلك [152]، أما اقزال فقد اعتبر " أنّ

---

(145) *Pline l'Ancien , XV ,XX.*

(146) كان كاتون الكبير قد زار قرطاج في مهمة دبلوماسية العام 153 ق.م فأعجب بازدهارها ومنذئذ اتخذ منها موقفا عدائيا ، وكان يختم كل خطاب يلقيه في مجلس الشيوخ الروماني بعبارة { *Et ceterum censeo Karthaginem esse deledam* ومن جهة أخرى فانيّ أرى أن قرطاج ينبغي أن تدمر} التي اختصرت إلى:{ *Delenda est Karthago* الدمار لقرطاج}.

(147) كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص 116-117.

(148) *Pline l'Ancien ,V,I .*

(149) *Gsell (St.) , H.A.A.N.,T.IV , p34.*

(150) صفر (احمد)، مرجع سابق ، ص160.

(151) *Reynier (L.) , Op. Cit., p 486.*

(152) *Polybe , I , LXXI ,LXXII.*

زراعة القمح والشّعير هي قضية الليبيين أكثر مما هي مسألة القرطاجيين"[153] ويري أن مناطق تركز زراعته هي باجة (*Béja*) وماطر (*Mateur*) والسهول الكبرى لمجردة و شمال تونس و السهول العليا الوسطي، ومن بين المظاهر التي تبرز إنتاج هذا النوع من المحاصيل هو العثور على مخازن للقمح والشّعير بأسوار قرطاج بالإضافة إلى إظهار النقود القرطاجية لرسومات سنابل قمح عليها[154]، وكان القرطاجيون يستعملون لقلب الأرض محراثا سكته مثلثة الشكل وهو ما تظهره النصب والنقود البونية [155]، ولعملية الدّرس يستعملون عربة تعرف بالعربة البونيقية (*Plostellum Poenicum*) تتكون من قطعتين من خشب وعجلتين مسننتين صغيرتين من الحديد[156].

ما يلاحظ على الزراعة القرطاجية أنّها كانت تعتمد على أساليب متطورة وأنّها قائمة على علم حقيقي لها علماؤها وخبراؤها المتخصصون ، وما ذكرناه عن ثراء إقليم قرطاج وتنوع إنتاجه يدل على الخبرة في الاستغلال واستعمال أساليب جديدة في هذا المجال قد يكون بعضها منقولا من الشرق ، فهذا ما جعل هذه الزراعة تنال شهرة كبيرة وإعجابا من المؤرخين والباحثين من بينهم رينيي(*L.Reynier*) الذي قال:" لو خصّصت لي إمكانيات لتطوير زراعة القرطاجيين لاتبعت نهجهم"[157].

---

(153) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.IV , p11.*

(154) صفر(احمد) ، مرجع سابق، ص158.

(155) جوليان (شارل أندري) ، مرجع سابق ، ص 113.

(156) فرحاتي (فتيحة) ، **نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213ق.م-46ق.م (الحياة السياسية والحضارية)** ، منشورات أبيك ، مطبعة متيجة ، الجزائر 2007م ، ص 232.

(157) *Reynier (L.) , Op. Cit., p 493.*

IV– التطور الزراعي في عهد الملوك النوميد:

يبدو أن اهتمام المجموعات السكانية الأمازيغية المتمركزة غربي قرطاج وجنوبها بتربية المواشي كان أكثر من اهتمامها بالزراعة ؛ فبوليب الذي زار بنفسه عدّة مناطق بأفريقيا اندهش من العدد الكبير لقطعان الأغنام والماعز والخيول والأبقار التي لاحظها بهذه المنطقة وجزم بالقول أنّه لا وجود لمثل هذا العدد الكبير من المواشي في أي مكان من العالم وهذا راجع حسبه إلى كون الشعوب الأمازيغية في المنطقة تجهل مقدار الفوائد التي ستجنيها من الزراعة لو هي اهتمت أكثر بها وجعلت منها نشاطها الأول[158]، أمّا سالوست فاخبرنا بانّ النوميد [159] كانوا يفضلون أكثر ترك أراضيهم لتكون مراع لقطعانهم من أن يزرعوها[160] ، وهو ما تفطن إليه الأقليذ ماسينيسا الذي شهدت الزراعة النوميدية في عهده تطورا وازدهارا ملحوظا، أما قبل ذلك فقد كان نشاط الرعي والترحال يطغى على نمط الحياة لدى قبائل المنطقة ، ولعلّ ذلك كله راجع إلى كون تربية المواشي اقل عناء وتكلفة من خدمة الأرض التي تستوجب عناية وإمكانيات كبيرة بالإضافة إلى تخوف الفلاحيين من عمليات النهب التي تعرض محاصيلهم للتخريب والضياع عكس المواشي التي يسهل نقلها وحمايتها من أخطار النهب في حال وقوع خطر ما[161].

إذا كان هذا هو حال المناطق الداخلية والجنوبية ، فانّ هذا لا ينفي أبدا وجود مناطق للحياة المستقرة التي مورست فيها الزراعة بصفة دائمة خاصة في المناطق الشّمالية قرب السواحل حيث الشروط الضرورية متوفرة لإقامة زراعة مربحة ، ومع ذلك فانّ البعض يريد أن يرجع ما

---

(158) *Polybe ,XII ,III.*

(159) حسب بلين فان مصطلح النوميد *(Numides)* مشتق من البداوة *(Numadas)* التي تعني البداوة ، لان أفراد هذا الشعب يغيرون المراعي باستمرار ويلفون خيامهم داخل عربات النقل *(Chariots)* ، انظر: *Pline l'Ancien, V ,II.3.* ، وقد ناقش كامبس هذا المصطلح وافتراضات المؤرخين حوله ، انظر: كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص181-187.

(160) *Salluste , XC.*

(161) صفر(احمد) ، مرجع سابق ، ص58.

شهدته تلك المناطق من تطور زراعي إلى التأثير البوني[162] ؛ رغم أن العنصر الأهلي هو الذي ظلّ يزود قرطاج بما تحتاجه من مؤن خاصة في قرونها الأولى وفترات الحروب.

أشاد القدماء كثيرا بثراء الأراضي التي تقع غرب الإقليم القرطاجي ، فقد وصف بوليب خصوبة أرضها بالمدهشة [163]، أما استرابون فقد تحدث عن أمور عجيبة بمقاطعة ماسيسيليا؛ فالأرض حسبه تغلّ مرتين في السنة ؛ مرة في الربيع وأخرى في الصيف وعلو سوق السنابل فيها حوالى خمسة أذرع [164] وحجم حبة القمح يماثل حجم الخنصر أما مردوديتها فهي 250 للواحدة، كما اخبرنا نفس المؤرخ أيضا أن الماسيل لا يزرعون في الربيع بل كانوا يكتفون بتحريك التربة بواسطة حزمة من الأغصان الشوكية ، والبذور التي تكون قد سقطت خلال مرحلة الحصاد تنتج محصولا وافرا في الصيف[165].

أشار سالوست بدوره إلى أن إقليم ماسيسيليا أكثر ثراء بمنتوجات الأرض وأكثر سكانا من بلاد ماسيليا [166]، غير أن ما اخبرنا به كل من سترابون و سالوست قد لقي تعليقا ونقدا من طرف الباحثين الذين استبعدوا أن تكون المنطقة الغربية أكثر ثراء من نظيرتها الشّرقية ، فبلاد الماسيل مشهورة بخصوبة تربتها ووفرة محاصيلها ، وقد افترض اقزال أن يكون المؤرخان قد نقلا المعلومة من نفس الكاتب وهو بوسيدونيوس(*Posidonius*) [167].

---

[162] كامبس (غابريال) ، مرجع سابق ، ص50.

[163] *Polybe , XII ,III.*

[164] خمسة أذرع (*5 Coudées*) تعادل مترين و20 سنتيمتر.

[165] يبدو أن هذه المعلومات التي زودنا بها سترابون مبالغ فيها(*Strabo , XVII , III , 11.*)، وهو الأمر الذي لمسه بعض الباحثين من بينهم جوليان الذي عبر عن خشيته من أن تكون معلومات هذا الجغرافي في عمومها غير صحيحة، انظر: جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق ، ص 132. وفي أمر أخر افترض كامبس أن يكون المحراث البربري البدائي البسيط هو ما قصده سترابون في عبارته" حزمة من الأغصان الشوكية" ، انظر: كامبس(غابريال) ، مرجع سابق ، ص110.

[166] *Salluste , XVI.*

[167] *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.V , p193.*

كان ماسينيسا أكثر ملوك البربر اهتماما بمجال الزراعة ، فقد اخذ نصيبا وافرا من المدح عند المؤرخين القدامى الذين مجّدوا سياسته الفلاحية والمجهودات التي بذلها لتغيير الأوضاع السائدة بنوميديا ؛ فأعظم عمل قام به هذا الملك خلال فترة حكمه حسب بوليب هو استصلاح الأراضي الزراعية وجعلها تنتج مختلف الخيرات فقد كان أول من اظهر بانّ ارض نوميديا باستطاعتها إنتاج مختلف المحاصيل وهي التي كان ينظر إليها قبل ذلك بأنها أرض غير مجدية (168)، ولا يخلو هذا الوصف من المبالغة ولعل الفكرة التي أراد بوليب إبلاغها هي أن هذا الملك قد غرس في رعاياه حب العمل وخدمة الأرض وبين أن الأرض الأفريقية لا تصلح فقط للرعي والترحال.

ذكر سترابون أن ماسينيسا قد حول النوميدين إلى فلاحيين واجتماعيين(169)؛ فقد غيّر هذا الملك عادات رعاياه تغييرا جذريا حيث نقلهم من البداوة إلى الاستقرار ومن ممارسة نشاط الرعي إلى ممارسة الزراعة وخدمة الأرض ومن حالة العزلة والتّوحش والفقر إلى الحياة الاجتماعية والحضارة والغني(170)، ولعل ماسينيسا كان يرمي من وراء هذه السياسة إلى تحسين دخل المملكة من الضرائب باعتبار أن المستقرين والحضر عموما هم خير من يدفع الضرائب عكس القبائل المتنقلة باستمرار التي يصعب تعقبها وإحصاء ثرواتها.

حتى وان كانت أحكام القدامى هذه مبالغ فيها بعض الشيء إلا أن ذلك لا ينقص من المجهودات التي قام بها هذا الملك وفضله في تطوير الزراعة بنوميديا ؛ فقد دفع رعاياه إلى استصلاح الأراضي البور التي لم تستغل قبل ذلك و زاد من المساحة المزروعة خاصة بعد توسّعه شرقا في الإقليم القرطاجي وضمه لإقليمي الامبوريا سنة 162 قبل الميلاد والسهول الكبرى

(168) *Polybe , XXXVII ,III.*
(169) *Strabo , XVII ,III ,15.*
(170) ايمار (أندري) و ابوييه(جانين) ، **تاريخ الحضارات العام** (**روما وإمبراطوريتها**) ،ج2 ، إشراف موريس كروزيه ترجمة فريد م.داغر وفؤاد ج.أبو ريحان ، ط2 ، منشورات عويدات، بيروت -باريس 1986م ، ص64.

حوالي سنة 152 قبل الميلاد[171] وزاد من الإنتاج الزراعي في نوميديا زيادة كبيرة حققت الفائض الذي سمح بالتصدير.

ويذكر ديودور أن هذا الملك قد برع في الأشغال الفلاحية وترك لكل واحد من أبنائه عند وفاته عشرة آلاف بلاتير *(Plèthre)*[172] مجهزة بكل ما هو ضروري للاستغلال الفلاحي [173]، يظهر أن الإمكانيات الزراعية التي أورثها ماسينيسا لأبنائه كبيرة خاصة إذا علمنا أن لماسينيسا حوالي أربعة وأربعين ولدا لم يبق منهم إلاّ عشرة عند وفاته ،كما عمل ماسينيسا الذي كان متأثرا بالحضارة اليونانية على تشجيع عبادة الآلهة الفلاحية الإغريقية ديميتر *(Déméter)* وكيريس *(Cereres)* أملا منه في الإنتاج الوفير وحرصا منه على تثبيت اهتمام النوميد بالفلاحة ، وما الكشف عن العديد من النّقائش المتعلقة بآلهتي الفلاحة هذه في الديار النوميدية إلاّ دليل على انتشار عبادتها[174].

لقد فهم ماسينيسا قبل وصول الرومان بكثير أن أسس تخليص النوميد من حياتهم البدائية البائسة هو تغيير عاداتهم وربطهم بالأرض ودفعهم للعيش في مجموعات مستقرة ومتعايشة مع بعضها البعض ما جعلها تميل إلى الاستقرار وخدمة الأرض الأمر الذي تسبّب في

---

[171] كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص254.

[172] البلاتير *(le pèlthre)* من الكلمة الإغريقية *(plethron)* وهي وحدة لقياس المساحة عند الإغريق تعادل 10000 قدم مربعة (9آر)، انظر:

- *Saglio (E.) et Daremberg(Ch.),* ***Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines (D.A.G.R),*** *(5tome et 9 volumes)T.IV ,1ere partie ,éditions hachette ,paris1873-1919 , p510.*

وبالمتر المربع يعادل البلاتير 874 مترا مربعا ، ومنه فان مساحة كل دومان هو874 هكتارا.

[173] *Diodore de Sicile , XXXII, III.*

[174] كامبس (غابريال)، مرجع سابق ، ص ص268-271.؛ فنطر(محمد) ، **يوغرطة (من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها)**، الدار التونسية للنشر، 1970م، ص ص 99-100.

إحداث " انقلاب اقتصادي"[175] بالمنطقة سرعان ما تحولت المملكة بسببه إلى مزار للتجار وممولا رئيسيا لروما بالقمح والشّعير.

يري كامبس أن زراعة الشّعير بماسيليا كانت أوسع من زراعة القمح قبل سيطرة ماسينسا على الامبوريا والسهول الكبرى أواخر فترة حكمه ، وذلك نظرا لكون التربة بها خفيفة تصلح أكثر لزراعة الشّعير [176]، وقد كان تصدير القمح والشّعير في عهد ماسينيسا مصدر الدخل الرئيسي للمملكة حيث قدّر كامبس اعتمادا على تيت-ليف ***(Tite-Live)*** الكميات التي زوّد بها ماسينيسا الرومان كما يلي[177]:

السنة	كمية القمح	كمية الشّعير	الوجهـة
200 ق.م	14000 قنطار	10500 قنطار	الجيش الروماني المعسكر بمقدونيا.
198 ق.م	14000 قنطار		الجيش الروماني المعسكر باليونان.
191 ق.م	56000 قنطار	28900 قنطار	إلى روما واليونان
170 ق.م	70000 قنطار		جيش مقدونيا

لم تكن فترة حكم الملك ماسينيسا الفترة الوحيدة التي ازدهرت فيها أفريقيا بل تواصل ذلك خلال فترة حكم خلفائه ، فقد أشار سالوست إلى ازدهار الزراعة في جزء كبير من نوميديا [178]، ونفس المؤرخ اخبرنا بان القائد الروماني متلوس ***(Metellus)*** عندما زحف

[175] جوليان (شارل أندري) ، مرجع سابق ، ص 135.

[176] كامبس (غابريال) ، مرجع سابق ، ص243.

[177] نفسه ، ص ص 242-243.

(178) Salluste , XVI , XVII , XXIX, XLVI, XLVIII.

انطلاقا من مقاطعة أفريقيا الرومانية وتوغل في أراضي المملكة النوميدية التقى بمزارعين في طريقه استقبلوه ومنحوه هدايا من القمح(179).

واستمرت أفريقيا على هذا الحال من الازدهار زمن يوبا الأول ، فرغم أن نص الحرب الأفريقية قد اهتم بالوقائع العسكرية إلاّ انّه وردت خلاله عدّة إشارات إلى القمح الأفريقي (180)، كما اخبرنا كاتبه أن قيصرا قد أُخْبِرَ بعادات الأفارقة في تخزين حبوبهم داخل مطامير في الحقول والأرياف لوضعها في مأمن من غارات العدو فأرسل فرسانه على بعد مسافة 10 أميال من معسكره للبحث عن القمح فعادوا بعد مدة محمّلين به(181)، ومن جهة اخرى فقد دلّ إلحاح الثائرين خلال الفترة الرومانية على استرجاع أراضيهم على اهتمام البربر بالزراعة وتمسّكهم بالأرض ونذكر منها احتجاجات قبائل الموسولام بقيادة تاكفاريناس (17-24) م التي كان هدفها استرجاع أراضيهم التي توسّع الرومان على حسابها (182).

إلى جانب ما أخبرتنا به النصوص فقد دلّت الصور المنقوشة على نقود الملوك على الثّراء الزراعي وأهمية الزراعة لديهم ، فقد حرص معظمهم على نقش رسم السنبلة على نقودهم مثل عملة ماسينيسا التي تظهر فيها سنبلة قمح أسفلها وعنقود عنب أعلاها(183) وعملة بوكوس ويوبا الثاني وبطليموس (*Ptolémée*) ونقود سيرتا والمدن الساحلية الموريتانية... التي تظهر كلها سنابل القمح(184).

---

(179) *Salluste , XLVI.*

(180) قيصر(يوليوس) ، **حرب افريقية (47-46 ق.م)**، ترجمة محمد الهادي حارش ، دار هومة ،الجزائر، الفقرات:XXXIV، XXXVI، XLIII، LXV، LXVIII، LXXV.

(181) نفسه، LXV .

(182) *Lassére (J-M.), un conflit routier : observations sur les causes de la guerre de Tacfarinas, in : An.Af., N°18,1982,p12.*

(183) الصورة والوصف ، انظر : قداش (محفوظ) ، مرجع سابق ، ص109.

(184) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.V , p190.*

أمّا فيما يخص الزيتون الذي أكدت مختلف الشواهد على قدم زراعته في بلاد البربر وعلى معرفة قدماء الأمازيغ للتطعيم قبل مجيء الفينيقيين بزمن بعيد ؛ فقد ورد في نص الحرب الأفريقية ذكر لغابة مغطاة بالزيتون[185]، كما أشار بلين إلى زراعة الزيتون في ناحية قابس *(Tacape)* التي تقع على حدود الصحراء جنوبا في جهة السيرت و لبتيس الكبرى *(la grande Leptis)*[186].

وقد أظهرت نقود ماسينيسا ونقود مدن ليكسوس *(Lixus)* وسلا *(Salé)* رسومات لعناقيد عنب[187]، واخبرنا سترابون من جهته عن الكروم العملاقة بموريتانيا التي بالكاد لا يقوي على حملها شخصان[188]، كما اعتنى قدماء الأمازيغ بغرس أشجار التين وأحبوا ثمرتها وقد أكد بلين أن التين الإفريقي كان ذا نوعية جيدة وهو مفضل لدي الجميع[189]، وذكر أيضا أن التمور الأفريقية رطبة لكنها تفقد خصائصها حسبه بسرعة[190]، وقد اهتم قدماء الأمازيغ ايضا بزراعة مختلف أنواع البقول والخضراوات .

أما فيما يتعلق بملكية الأرض وطرق الاستغلال السائدة في تلك الفترة ، فانّ النصوص لم تخبرنا عن تفاصيلها وكلّ ما قيل حول هذا الموضوع لم يتعد مجال الافتراضات ، حيث لا نزال نجهل نظام الملكية السائد بالضبط خاصة بالمناطق الشّمالية التي تبدو فيها ملكية الأرض أكثر تعقيدا عكس المناطق الجنوبية أين يمكن قبول واعتماد فكرة مشاعية الأراضي الرعوية بين أفراد القبيلة.

أمّا في المناطق المستقرة التي تمارس فيها الزراعة فقد تصوّر اقزال[191] أن بها أنظمة متعددة للملكية والاستغلال : فالأفراد المشكلون لتجمع قروي ملكيتهم للأرض جماعية

---

(185) قيصر(يوليوس) ، مصدر سابق ، الفقرة L.

(186) Pline l'Ancien , XVIII , LI.22.

(187) فرحاتي (فتيحة) ، مرجع سابق ، ص 242.

(188) Strabo ,XVII , III, 4.

(189) Pline l'Ancien , XV ,XIX.18.

(190) Ibid. , XIII , VI.4.

(191) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.V , pp206-207.*

واستغلالها مشترك بينهم تقتسم فيها العائلات المحاصيل حسب عدد الأفراد الذين يُسْتَلزم إعالتهم ، أما النمط الآخر فيتمثل في الاشتراك في ملكية الأرض بين أفراد القبيلة لكن الأرض توزع بين العائلات لاستغلالها بصفة مؤقتة ولمدة زمنية محددة ، أما الافتراض الأخير فهو ملكية الأفراد أو العائلات لقطع أرضية ملكية خاصّة بعد أن يقوموا باستصلاحها ولهم الحق في توريثها للخلفاء.

أمّا الأملاك الملكية التي تكوّنت خلال عهد الملوك النوميد فانّ ظروف تشكلها لا تزال مجهولة وان كان البعض يريد أن يجعل مما يسمونه توسّعات الملك ماسينيسا على حساب ماسيسيليا غربا والإقليم القرطاجي شرقا عاملا في اتساعها ، وقد اخبرنا ديودور أن الأقليذ قد ترك لكل واحد من أبنائه عشرة آلاف بلاتير من الأراضي الصالحة للزراعة [192]، وافترض الباحثون أن تكون أسماء المدن و المناطق التي تحمل عبارة ريجيا *(Regiae)* التي تعني (ملكية) كصفة لصيقة باسمها مثل: زاما ريجيا، بولة ريجيا، هيبو ريجيوس... جزءا من الدومان الملكي أو جزءا من أملاك الملك الخاصّة التي تكون قد ضُمّت حديثا إلى المملكة النوميدية[193].

إن وفرة إنتاج القمح خلال العهد النوميدي قد جعل من فلاحيها يشيّدون مخازن آمنة لحفظه، فقد اخبرنا سالوست عن تشييد الفلاحين الأمازيغ لمخازن يحفظون بها إنتاجهم من غارات محتملة[194]، يحرص هؤلاء على حفرها على شكل دهاليز في أماكن بعيدة يصعب اكتشافها، أمّا بخصوص طحن الحبوب فقد استعمل قدماء الأمازيغ في البداية مهراسا من حجر أو خشب، لكن بمرور الوقت عرفت تقنيات الطحن تطورا حيث تم اعتماد الطاحونة الحجرية[195]، وهي عبارة عن اسطوانتين حجريتين توضع إحداهما على الأخرى، بحيث تكون الاسطوانة السفلية مزودة بمشحذ ثابت والاسطوانة العلوية بها تجويف تصب فيها الحبوب لتصل

---

(192) *Diodore de Sicile , XXXII, III.*

(193) كامبس (غابريال) ، مرجع سابق ، ص257.

(194) ***Salluste , XC.***

(195) حارش(محمد الهادي)، **التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول(203-46ق.م)**، دار هومة، الجزائر1996،ص ص104-105.

إلى مابين الاسطوانتين، ويتسبب احتكاكهما أثناء تحريك الاسطوانة العلوية في تفتت الحبوب لتنتج طحينا، ولا تزال هذه الطاحونة مستعملة عند الكثيرين إلى غاية اليوم.(انظر أدناه الشكل(5) ص53)

وقد اهتم الملوك النوميد أيضا بتحصيل الضرائب التي تصرف عائداتها في تسيير شؤون المملكة ، فقد اخبرنا سترابون أن ملوك البلاد كانوا يُصْدرون كل عام أمرا يقضي بإحصاء الخيل[196]، أما طريقة الدفع فقد كانت هذه الضرائب تدفع عينا في الأرياف الزراعية(حبوب ومواشي) وهو ما يفسر لنا الكميات الكبيرة التي يصدرها الملوك النوميد التي كان مصدرها دون شك الضرائب ، أما في المدن فقد كانت تدفع نقدا مثلما كانت تفعل مدن السيرت في عهد ماسينيسا[197].

وعن الأسباب التي ساهمت في تنوع واستمرارية الازدهار الزراعي الذي شهدته نوميديا على امتداد هذه المرحلة يرى البعض أن طول فترة حكم معظم الملوك (ماسينيسا حوالى55 سنة، مكوسان حوالى30 سنة ، يمبسال الثاني حوالى30 سنة...) قد خلّف استقرارا سياسيا ما انعكس على الجانب الاقتصادي [198]، بالإضافة إلى فتح الأبواب أمام التجارة الخارجية بعد زوال الاحتكار القرطاجي الأمر الذي شجع الملوك المحليين والفلاحين على إنتاج كميات كبيرة تلبي الحاجيات المحلية وتسمح بالتصدير.

---

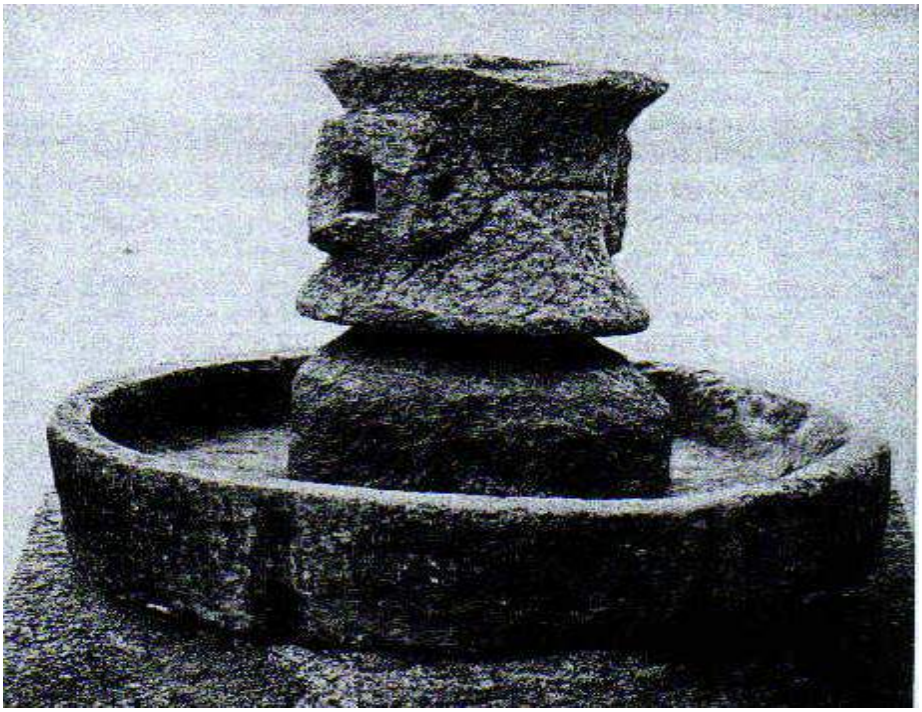
(196) *Strabo , XVII , III, 19.*

(197) حارش (محمد الهادي) ، مرجع سابق ، ص 111.

(198) نفسه ، ص115.



الشكل(5): رحى حجرية لطحن الحبوب.



الشكل (5) مكرر: مطحنة من الفترة الرومانية عثر عليها في رمضان جمال (سكيكدة)

المصدر : عقون(م.ع) ، مرجع سابق، ص93.

V– دور فترة ما قبل الرومان في تهيئة قاعدة الازدهار الزراعي خلال الفترة الرومانية:

درج المؤرخون القدامى والباحثون الأجانب في تاريخ أفريقيا القديم على نسب كل الأعمال الجليلة التي عرفتها أفريقيا خلال تلك الفترة إلى الوافدين الأجانب ، فإذا لم تكن هذه الأعمال حسبهم رومانية فهي فينيقية ، وعملوا منذ فترات طويلة على نفي مساهمة الشعوب المحلية في الحضارة التي عرفتها هذه المنطقة ، وظلّ هؤلاء يرددون صفتي "البدائية" و"الوحشية" كصفتين لصيقتين بهذه الشعوب التي كان نمط حياتها حسبهم لا يتعدى الرعي والترحال واستهلاك النباتات البرية "كالقطعان"[199].

مثّلت الفترة الرومانية الفترة التي شهدت فيها إفريقيا نموا وازدهارا منقطع النظير في مختلف الجوانب ، ويظهر ذلك أكثر في الجانب الزراعي حيث أطلق على أفريقيا في تلك المرحلة لقب "أهراء روما" نظرا لتوسع الزراعة ونمو المستثمرات فيها والتي وصلت إلى حدود الصحراء جنوبا، ولا شك أن هذا الازدهار قد ساهمت فيه عدّة عوامل ينسبها اغلب المؤرخين إلى ما بعد الاحتلال على رأسها "السلم الروماني" الذي فرضته روما بين القبائل ويهملون دور الفترة التي سبقت الاحتلال ومساهمتها في ذلك ، ومن حقنا هنا أن نتساءل عما إذا كان كل ذلك فضلا رومانيا ومعجزة من صنعهم أم أن أفريقيا قبل الاحتلال هي التي هيئت الأوضاع لهذا الازدهار والنمو؟

إن إمكانيات أفريقيا الطبيعية هي التي أسالت لعاب كاتون الذي جعل من ثمرة تين أفريقية رمزا لتحريض مجلس الشيوخ الروماني على تدمير قرطاج[200] فبالإضافة إلى التفوق البحري والمنافسة القرطاجية التي أقلقت الرومان حز في نفسه أن تنتج قرطاج هذه الخيرات النباتية كلها وتستفيد من ثراء الأرض الأفريقية بينما تعجز روما عن ذلك ، لقد اخبرنا القدامى عن التربة الخصبة التي يتميز بها بعض الأقاليم فقد أعجب هيرودوت[201] كثيرا بالتربة السوداء

---

(199) *Salluste, XVIII.*
(200) *Pline l'Ancien , XV ,XX .*
(201) *Hérodote , IV , CXCVIII .*

التي يتميز بها إقليم الكينوبس*(Cinyps)* وأشاد بمردودية البذور فيها ونفس الشيء أشار إليه بلين فيما يخص إقليم المزاق *(Byzacium)* الذي قال بشان تربته أنها ذات خصوبة نادرة [202]، فطبيعة الأرض الأفريقية خصبة وتجود بمختلف المحاصيل وهي التي جعلت من الزراعة القرطاجية تكتسب شهرة كبيرة رغم أن اهتمام القرطاجين الأول هو التجارة والإبحار، فالأرض التي كانت ذات مرة عاملا أساسيا في ازدهار قرطاج بخصوبتها وإنتاجها لمختلف الخيرات هي التي ستكون سببا في تطور الزراعة الرومانية بعد ذلك.

يتمتع الشّمال الأفريقي بنفس الخصائص الطبيعية والمناخية التي تميز باقي بلدان حوض البحر المتوسط مما ساهم في تنوع المحاصيل التي كان ينتجها ؛ فقد أبرز اسطيفان اقزال بالاعتماد على عدة شواهد وأدلة أن مناخ شمال أفريقيا القديم هو مناخ مماثل ومشابه للمناخ السائد في أيامنا هذه [203]، فإذا اعتمدنا على استنتاج اسطيفان اقزال فانّ أفريقيا كانت تنتج محاصيل المنطقة المعتدلة قرب السواحل ومحاصيل البيئة الصحراوية الحارة جنوبا(التمور) وهو ما توافق عليه النصوص التي أخبرتنا بتنوع الإنتاج شمالا من حبوب وأشجار مثمرة وبقول وخضروات وإنتاج للتمور في الصحراء الجنوبية كما اخبرنا به هيرودوت[204].

بدأت البحوث الحديثة تزيل الغطاء عن العديد من القضايا التي كانت إلى عهد قريب من ثوابت تاريخ المنطقة ؛ فقد أزال علم الآثار الغطاء عن العديد من المنشآت التي تعود إلى زمن ابعد بكثير من الفترة الرومانية مثلما اشرنا سابقا إلى التهيئة الزراعية القديمة لدوار تازبنت (جنوب غرب تبسة) التي أظهرت نوعا من أنواع تنظيم المجال رغم بساطته.

ومن جهة أخري أبدى عدّة باحثين تحفظهم من نسب كل الأعمال المتعلقة بالتهيئة والتنظيم الزراعي إلى الفترة الرومانية، فقد أكد شوفاليي*(Chevallier)* بانّ "المنشآت

---

(202) *Pline l'Ancien, V, III.4 et XVII , III.5.*
(203) *Gsell (St.) ,H.A.A.N.,T.I ,pp40-99.;Ibid.,le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité , R.Af , Année1911, pp343-410.*
(204) *Hérodote , IV , CLXXII et CLXXXII .*

الهيدروغرافية التي نظمتها روما هي ذات أصل محلي"[205]. وأكد جان ديبوا (*J.Depois*) من جهته أن زراعة المدرجات بأفريقيا هي زراعة مرتبطة بحضارة ريفية بربرية ، وفي هذا السياق يقول متأثرا بالعبارة الشهيرة لسطيفان اقزال : "إنّ البربر بالتأكيد لم ينتظروا الرومان لكي يقوموا بزراعة المدرجات والاستعمال الأمثل للمياه الضرورية للزراعة[206]" .

أما لوفو (*Leveau*) فقد رفض مسألة إرجاع كل الفضل للرومان في تطوير الزراعة بشمال أفريقيا فقد أكد بان الزراعة الرومانية قد قامت على أعمال تهيئة افريقية سابقة لاحتلالهم بكثير حيث يقول: "يظهر بانّ الزراعة الرومانية قد طورت على أراض كانت مهيأة في الفترة ما بين النيوليثي والفترة الرومانية بينما ظهرت الفترة الرومانية كفترة استقرار وتوسّع[207]"، أما اقزال فقد اعتبر أن عملية إزالة الأعشاب الضارة والأشجار البرية غير المنتجة من الحقول لتهيئتها للزراعة وهي العملية التي قام بها عدة أجيال من الأفارقة قد هيأت بشكل غامض ازدهار أفريقيا الرومانية[208]، ونفس المؤرخ أكد أن الرومان قد وجدوا أفريقيا في حالة جيدة أحسن مما وجدها عليه نظراؤهم الفرنسيون بعد ذلك بقرون ، لكنه في المقابل لا يهمل توفر عوامل الازدهار خلال عهد الإمبراطورية التي ساهمت في تحقيق التطور[209].

تكشف المقارنة بين السياسة التي انتهجها ماسينيسا في المجال الزراعي والسياسة التي انتهجها الرومان بعده في هذا المجال عن وجود تطابق في طريقة تعامل الطرفين مع القبائل البدوية المرتحلة ، حيث اعتبر الجانبان استمرارها في نمط حياتها هذا عاملا معيقا لعملية التوسّع والتطور الزراعي ، ولهذا فقد فكر كلاهما في توطين هذه القبائل وتغيير عاداتها وتشجيعها على

---

(205) *Chevalier (R.) ,La Centuriation Romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique , l'inform.Géogr, 22éme Année ,Septembre- Octobre 1958,pp149-154.*
(206) *Despois (J.), Op. Cit., p 49.*
(207) *Leveau (Philippe), Occupation du sol, Géo systèmes et systèmes sociaux , Rome et ses ennemis des montagnes et du désert dans le Magrib antique , in : E.S.C ,41éme Année , N °6 ,1986 ,p1355.*
(208) *Gsell (St.) , H.A.A.N., T.V, p 189.*
(209) *Gsell (St.),grandeur et décadence de Rome en Afrique,(texte, rédigé par Gsell, d'une conférence qu'il devait faire à Louvain dans l'hiver 1931-32), Le Correspondant,1933, p8.*

الاستقرار وممارسة الزراعة وسعى كلاهما إلى توفير الأمن بين القبائل باعتباره شرطا أساسيا لتحقيق التوسع الزراعي ، ولعل تشابه السياسة التي انتهجها الطرفان في هذا المجال إنّما يوحي إلى أن الرومان قد قاموا باستنساخ تجربة ماسينيسا في هذا المجال أو على الأقل استفادوا منها خاصة وان ماسينيسا كان أول من فكر في ربط النوميد بالأرض وقد يكون الحكام الرومان قد تأثروا بأفكار ماسينيسا خاصة وأنهم كانوا على اطلاع واسع بسياسته في مملكته ، مع الفارق الكبير طبعا بين ملك يسعى إلى تطوير بلده وإدارة استعمارية تستعمل البطش واغتصاب الأرض أسلوبا لها في التعامل مع العنصر الأهلي.

لقد سيطر كبار الملاك الرومان على الأراضي والمستثمرات الزراعية الشاسعة واستغلوها استغلالا واسعا ولكن الفضل الكبير في ازدهار هذه المستثمرات إنّما يعود إلى السكان الأفارقة المحليين الذين استغلهم وسخرهم هؤلاء الملاّك للقيام بخدمة الأرض سواء كعبيد أو كعمال أجراء أو كمستأجرين للأرض ، فقد كانوا مرتبطين بالأرض بصفة مباشرة عكس الملاّك الذين يقومون بتأجير أراضيهم في اغلب الأحيان أو يكلفون مساعدين لهم لتسيير شؤون ملكياتهم الزراعية ، ويرى جوليان أن الاستعمار الروماني ينبغي أن يفهم منه أن روما قد قامت بتهدئة بلاد البربر وتنظيمها لكن الأهالي هم الذين نهضوا بالعمل الحقيقي[210].

لم يستفد الرومان في تطويرهم للزراعة بأفريقيا من خصوبة أراضي المنطقة ومن الخبرات واليد العاملة الأفريقية فقط بل تعدى مجال استفادتهم إلى المجال العلمي ونقصد بذلك موسوعة ماغون الفلاحية التي اعتبرها البعض من أهم غنائم الحرب الرومانية على قرطاج[211]، فحسب رواية بلين[212] فانّ مجلس الشيوخ الروماني قد قام بعد سقوط قرطاج بإهداء مكتباتها للملوك الأفارقة لكنه قرر بصفة استثنائية الاحتفاظ بكتب ماغون الثمانية والعشرون وترجمتها

(210) جوليان (شارل أندري) ، مرجع سابق ، ص 105.

(211) بورونية (الشاذلي) و الطاهر(محمد) ، مرجع سابق ، ص 247.

(212) *Pline l'Ancien, XVIII , V.*

إلى اللاّتينية للاستفادة منها في تطوير الزراعة الرومانية رغم أن كاتون المعاصر له قد سبق وان نشر مؤلفات مماثلة في هذا المجال.

إن الفضل الكبير في تطوير الزراعة الرومانية ابتداء من منتصف القرن الثاني قبل الميلاد إنما يعود إلى هذه الموسوعة التي تضمنت نصائح وتوجيهات وشرح لمختلف الطرق والأساليب الزراعية التي تتلاءم والطبيعة الأفريقية، ولم يكن تأثير هذه الموسوعة مقتصرا على الزراعة الرومانية بأفريقيا فقط بل ساهمت أفكار ماغون أيضا – التي هي في الأصل جمع للخبرات الأفريقية– في تطوير الزراعة الايطالية ، فقد أكد هرغون*(Heurgon)* أن ترجمة موسوعة ماغون إلى اللاّتينية لها علاقة كبيرة بتطوير الزراعة الايطالية خلال النصف الثاني من القرن الثاني ق.م[213]، أما لاكروا *(Lacroix)* فقد قال في هذا الأمر بان : " ليبيا القديمة هي التي بينت للآخرين المنافسين لها كيف يجعلون أراضيهم أكثر مردودية"[214].

إن إمكانيات أفريقيا وانجازات سكانها خلال الفترة التي سبقت تدمير قرطاج والفترة التي سبقت إنشاء الرومان لمقاطعة أفريقيا الجديدة *(Africa Nova)* هي التي شكّلت قاعدة للازدهار الاقتصادي الروماني ومهدت الطريق لهم للتوسّع في الاستغلال الزراعي ، فقد كانت منشآت الري والأراضي المستصلحة المنطلق الذي انطلق منه الرومان في عملية استغلالهم للأرض الزراعية الأفريقية ، لكن من جهة أخرى لا يجب أن ننكر الدور الروماني في تنظيم الأراضي*(Centuriation)* وسن القوانين التي تنظم الاستغلال الزراعي وتجنيد خبراء ومهندسين لإنشاء قنوات المياه وبناء السدود التي لا تزال بعض أثارها شاهدة على ذلك ، ولعل أجّل عمل قام به هؤلاء في هذا المجال – بمساهمة من الأفارقة– هو الدفع بالزراعة جنوبا أين وصلت إلى حدود الصحراء وانتشرت في مناطق هي في أيامنا هذه أراض جافة وقاحلة وهي الظاهرة التي سنعالجها في العناصر اللاّحقة.

---

(213) *Heurgon (Jacques) , l'agronome carthaginois Magon et ses traducteurs en latin et en grec , in : C.R.A.I.,120 éme Année ,N°3 ,1976, p454.*
(214) *Lacroix (F.) , Afrique Ancienne (procédés agricoles) , R.Af , Année 1870, p17.*

الفصل الثاني
الزراعة الأفريقية خلال الفترة الرومانية
التنظيمات ووسائل الإنتاج

V. نظام مسح الأراضي:

I-1 الكنترة.

I-1-1 الكاردو والديكومانوس.

I-1-2 الحدود بين الوحدات الكنتورية.

I-2 تصنيف الأراضي غير المكنترة .

I-3 تطور الكنترة الأفريقية .

I-4 أهداف الكنترة .

VI. التشريعات الزراعية الأفريقية:

II - 1 النصوص الأثرية "القانونية" المتعلقة بتنظيم الزراعة الأفريقية.

II-2 قانون مانكيانا وقانون هادريان على ضوء الاكتشافات الأثرية.

II-3 بعض بنود التشريعات الفلاحية الأفريقية.

II-4 أثر التشريعات الرومانية على التطور الزراعي بأفريقيا.

VII. نظام الري الزراعي:

III-1 منشآت الري:

III-1-1 منشآت التجميع.

III-1-2 قنوات التوزيع.

III-2 نظام الري في لامصبا *(Lamasba)*.

VIII. منظومة الاستغلال الزراعي:

IV-1 وسائل الإنتاج :

IV-1-1 الأرض.

IV-1-2 أشكال الملكية.

IV-1-3 نظام الاستغلال والإنتاج.

IV-1-4 العمال والإدارة المسيرة.

IV-2 المستثمرات الزراعية :

IV-2-1 السالتوس *(Saltus)*.

IV-2-2 اللاتيفونديا *(Latifundia)*.

IV-2-3 الفندس *(Fundus)*.

IV-2-4 البرايديا *(Praedia)*.

IV-2-5 الفيللا روستيكا *(Villa Rustica)*.

IX. الضرائب الزراعية:

V-1 أنواع الضرائب الزراعية:

V-1-1 الضريبة على الأرض.

V-1-2 الضريبة على الإنتاج الزراعي.

V-2 تحصيل الضرائب.

V-3 أثر النظام الضريبي على تدهور الزراعة.

الفصل الثاني:

الزراعة الأفريقية خلال الفترة الرومانية

التنظيمات ووسائل الإنتاج

بعد سقوط قرطاج سنة 146ق.م، أصبحت الأراضي الأفريقية ملكا للدولة الرمانية وللشعب الروماني بموجب حق الفتح ولم يستثن منها إلاّ أراضي المدن السبع [215] وبعض الأراضي التي منحت إلى الفارين من الجيش القرطاجي *(Perfugae)* أما بقية الأراضي فقد كانت مملوكة للشعب الروماني*(Ager Publicus)* يديرها قضاة الإحصاء *(Ager Censorinus)* [216]، ومع استقبال أفريقيا للهجرات الايطالية المتزايدة أحالت الدولة جزءا من هذه الأراضي إلى المعمرين الجدد بعد أن قامت بتهيئتها وتقسيمها إلى وحدات متساوية ، كما تنازلت الدولة أيضا عن بعض الأراضي لصالح قدماء جنود ماريوس، وباعت جزءا آخر للمواطنين الرومان مع إبقائها لحقها في الملكية حيث يكتفي هؤلاء بدفع ضريبة مقابل استغلالهم لها[217]. والملاحظ أن الدولة قد ركزت جهودها منذ البداية على استغلال أراضى إفريقيا خدمة لمصالحها فحتى الأراضي البور التي تترك للرعي الحر حرصت الدولة على فرض ضريبة ثابتة على رؤوس الماشية يدفعها ملاكها[218].

---

[215] هي المدن الأفريقية التي قدّمت خدمات للرومان في حربهم ضد قرطاج فنالت بذلك حريتها جزاءً لخدماتها، حيث استثنيت أراضيها من نزع الملكية بموجب حق الفتح ولذلك لم تكن من ضمن الملكية العامة للشعب الروماني *(Ager publicus)* في البداية، فجاءت عملية كنترتها متأخرة، وهذه المدن سبعة وهي: اوتيكا، هادرومت (سوسة)، تابسوس (رأس ديماس)، أشولا، لبتيس الصغيرة (لمطة)، ثيوداليس، اوزاليس، أنظر :

-Peyras(J.),les cités libres à l'époque romaine , in : D.H.A., Volume 23, N°1 ,1997,pp307-310.

[216] رستوفتزف (م.) ، مرجع سابق، ص383.

[217] جوليان(شارل أندري)، مرجع سابق، ص154.

[218] *Moatti (C.), Etude sur l'occupation des terres publiques à la fin de la république romaines, in :Cahiers du centre Gustave Glotz, N°3 , 1992, p62.*

اختلفت نظرة الرومان لأفريقيا في البداية ، حيث كان هناك فريق يرى أن استيطان أفريقيا من شأنه أن يحلّ مختلف المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها روما ، وكان غايوس غراكوس *(Caius Gracchus)* الذي تزعم هذا الفريق قد عزم على جعل إقليم قرطاج مجالا لتوطين البروليتاريا الإيطالية وتوزيع أراضي أفريقيا عليها، غير أن سياسته هذه لقيت مقاومة شرسة من طرف الفريق الثاني الذي يمثله الرأسماليون الكبار وجلّهم من أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يرون في أراضي أفريقيا فرصتهم الثمينة لزيادة احتكاراتهم وملكياتهم وبذلك أفشلوا مشروع غراكوس[219] ، وفي هذا الشأن يخبرنا بلين عن ذلك الاحتكار لأراضي أفريقيا من طرف قلّة قليلة إلى درجة أن ستّة ملاّك كبار فقط كانوا يملكون نصف أفريقيا[220].

وقد زاد التهافت على الأراضي الأفريقية بصفة كبيرة خلال عهدي أغسطس(*Auguste*)(27ق.م-14م) وتيبريوس(*Tibère*)(14م-37م)، وهو ما جعل هذين الإمبراطورين يأمران بدفع الحدود جنوبا لانتزاع المزيد من الأراضي من الأهالي وهو الاعتداء الذي قاومه هؤلاء بشدّة، وكان التوسّع الروماني يتمدّد نحو الداخل حتى بلغ مشارف الصحراء في نوميديا والمنطقة الطرابلسية ولكن لم يتجاوز المنطقة التلية في الموريتانيتين، والغريب أنّ البعض يرجعون هذا التوسع إلى الضرورة الاقتصادية دون غيرها وفي رأيهم أنّه لم تكن له أسباب سياسية أو حربية[221].

لم تكن النهضة الزراعية التي عرفتها أفريقيا خلال الفترة الرومانية وليدة الصدفة بل كانت نتاج تطبيق العديد من السياسات التنظيمية الفعالة التي خططت لها الإدارة الرومانية منذ البدايات الأولى للتوسّع الروماني في شمال أفريقيا، حيث بادرت منذ البداية إلى تهيئة الظروف الملائمة لقيام هذا التطور حتى يسهم ذلك في اقتصاد الإمبراطورية مستعينة في بعض

---

(219) رستوفتزف (م.) ، مرجع سابق، ص384. ؛ عقون(محمد العربي)، الاقتصاد والمجتمع...مرجع سابق، ص ص75-76.

(220) *Pline l'Ancien, XVIII , VII,6.*

(221) رستوفتزف(م.) ، مرجع سابق، ص389.

الأحيان بخبرة الأفارقة في هذا المجال وفي حالات أخري بنقلها لتجارب من البلد الأم أو استعارتها من شعوب أخرى، وحرصا منها على بناء اقتصاد زراعي قوي بالمنطقة قامت بتطوير الهياكل الموجودة وشيّدت أخرى جديدة كما سنّت تشريعات تنظيمية تقنن العلاقات بين المستثمرين والسلطة وعوامل الإنتاج ...الخ، وسرعان ما بدأت روما تقطف ثمار سياستها الفلاحية هذه ابتداء من القرن الأول للميلاد على وجه الخصوص أين شهدت أفريقيا ازدهارا كبيرا يمكن القول أنّه لم يسبق وان عرفت له مثيلا.

I نظام مسح الأراضي:

حرص الحكام الرومان على تجسيد هذه العملية على الأراضي الأفريقية الخصبة بعد سقوط قرطاج مباشرة؛ حيث شرعوا في تنظيم المجال الزراعي الموروث عن قرطاج خاصة مع تزايد الهجرات الرومانية المنظمة التي يرسلها أباطرة روما للمنطقة ومع تقدم الجنود في احتلال أراضى جديدة تزيد معها المساحة المكنترة ، وقد شهدت الصور الجوية والأسوار والنصب الحجرية على أن هذه العملية قد بلغت المناطق الجنوبية المتاخمة للصحراء.

أثارت دقة هذه العملية وصمودها في وجه العوامل الطبيعية والبشرية لعدة قرون إعجاب العديد من الباحثين من بينهم شوفاليي الذي اعتبرها من أجمل المعالم الأثرية بالمنطقة [222] ، أما بيكار*(Picard)* فقد أشاد بالنظم والقواعد الثابتة التي طبقت في أعمال الكنترة واعتبر انه لم يسبق عبر التاريخ وان فرض شعب ما إرادته على الطبيعة مثلما فعل الرومان[223]، ومنذ اكتشاف آثار هذه العملية سنة 1833م برزت اهتمامات المختصين في علم الآثار والمهندسين

---

[222] *Chevallier(R.), Essai de chronologie des centuriations romaines de Tunisie, in : M.A.H., T.70, 1958, p124*

[223] *Picard (G.Ch-.), **La civilisation de l'Afrique Romaine**, librairie Plon, Paris 1950, p3.*

والمؤرخين، ثم تضاعفت تلك الاهتمامات أكثر مع ظهور الصور الجوية كأداة مفيدة في دراسة هذه الأعمال بعد أن كانت عملية دراستها ميدانيا مهمة صعبة [224].

I- 1 الكنترة :

تعتبر عملية الكنترة *(centuriation)* من الأعمال الخاصة بالتهيئة الزراعية التي اشتهر بها الرومان واختصوا بها [225] دون غيرهم من الشعوب الأخرى، والكنترة هي شكل من أشكال مسح الأراضي لتهيئتها زراعيا، وهي عملية تقسيم منظمة للأرض بطريقة تشكل بواسطتها عددا معينا من الوحدات الكنتورية المتساوية باستعمال شبكة من الخطوط المستقيمة [226]، ويدلّ مصطلح "كنتوريا *Centuria*" [227] على مساحة من مائة هيريديا ***(Heredia)*** وهي مساحة مربعة طول ضلعها 240 قدم روماني، كما تساوي الوحدة الكنتورية أيضا 200 يوغيرا

---

(224) كان فالب أول من لاحظ بان سهل المرسى(تونس) مقسم إلى مربعات بواسطة شبكة من الطرق والطرق الضيقة المتقاطعة انظر: *- Falbe (C.T.), Recherches sur l'emplacement de Carthage, l'imprimerie royale, Paris, 1833, p54.* ؛ ثم توالت بعد ذلك عدة دراسات وأبحاث أهمها أبحاث عدد من المهتمين والمختصين منهم : داناو *(Danau)* وشولتن *(Schulten)* وتوتان *(Toutain)* وبارتل *(Barthel)* وسوماني *(Saumagne)* ودافان *(Davin)* الذين تركزت أبحاثهم حول منطقة قرطاج والجنوب التونسي ، وأول من استعمل الصور الجوية في دراسة الكنترة هو سوماني سنة 1932م ليفتح بذلك مجالا أمام الباحثين لاستعمال هذه التقنية وأول عمل في هذا المجال هو العمل الذي قام به شوفاليي *(Chevallier)* بالاشتراك مع المهندس كايمر *(Caillemer)* اللذين أنجزا عملا بعنوان أطلس أشغال الكنترة الرومانية في تونس *(Atlas des centuriations Romaines de Tunisie)* ثم جاءت بعد ذلك عدة أبحاث متأخرة أهمها أبحاث سوايي *(Soyer J.)* و تروسي، انظر:

-Trousset (P.), Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'est d'El-Jem, Ant.Af, N° 11, 1977, p184.

(225) *France (J.), l'Afrique Romaine des Flaviens aux Vandales Cours de Jérôme France– Université Michel de Montaigne-Bordeaux 3, http:// www. youscribe. com ,p 8.*

(226) *Gsell (St.), H.A.A.N., T.VII, p. 11.*

(227) إذا كانت المساحات المشكلة من عملية المسح مربعة الشكل فإنّها تسمّى *centuriae* أمّا إذا كانت مستطيلة الشكل فإنّها تسمّى *scamna-strigae* ، انظر:

-Schulten (A.), l'arpentage romain en Tunisie, Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, Année 1902, Paris, pp136-137.

(Jugera). ويتم وضع حدود ***(Limitatio)*** تلك الوحدة عن طريق إنشاء تقاطعات ترسم على الأرض انطلاقا من نقطة مرجعية هي أصل المحورين الرئيسيين الكاردو والديكومانوس(228) تتفرع عنهما مجموعة من الخطوط المتوازية لتشكل مربعات مساحة كل واحدة منها حوالي 50 هكتارا وطول الضلع فيها يبلغ 710م(229) وعملية التقسيم هذه معقدة وتتطلب دقة في الحسابات وتتضمّن عددا من التخطيطات أهمها:

I–1–1 الكاردو ماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس: وهما المحوران الرئيسيان اللذان يتم انطلاقا منهما إنشاء خطوط متوازية لتشكل مربعات كنتورية بضلع مقداره 710م، وكما هو معروف فإنّ اتجاه الكاردو ***(Cardo maximus)*** شمال– جنوب أما الديكومانوس ***(Decumanus maximus)*** فاتجاهه شرق– غرب، وقد كشفت الحفريات التي أجريت بين سنتي 1974-1975م على خط مرور الكاردو في أعلى هضبة بيرصا *(Byrsa)* انّه يحتوي على عدة مرافق منها القنوات ورواق على الجهتين اليمنى واليسرى للطريق، وسلالم ...الخ(230) .

I-1–2 الحدود بين الوحدات الكنتورية (231) : بعد انتهاء المساحين من الحسابات يتمّ إنشاء الحدود بين هذه الوحدات وهي في الغالب أسوار محدودة الارتفاع تختلف في عرضها حسب المناطق وحسب طبيعتها ؛ فالحدود الرئيسية اعرض من الحدود

---

(228) *Decramer(L.R.)et autres, approche géométrique des centuriations romaines, les nouvelles bornes du bled Segui, Histoire et mesure(en ligne) ,XVII-1/2 ,2002,mis en ligne de15 Novembre 2005, URL : http:// histoire mesure. revues.org/903,p3.*

(229) ما يؤكد دقة هذه العملية التي قام بها المهندسون الرومان هو عثور الباحثين على أطوال تكاد تقارب 710م أو تزيد عنها بقليل فعلى سبيل المثال عثر سوماني في أبحاثه التي أقامها غرب منطقة الجم على طول 2400 قدم ما يعادل 709.5م انظر:

- Saumagne(Ch.) ,Les vestiges d'une centuriation romaine a l'est d'El-Djem, in : C.R.A.I. , 73ème Annee,N°4,1929,p309.

(230) *Deneuve (J.) Villedieu (F.), Le cardo maximus et les édifices situés à l'est de la voie (secteur C), in : Ant.Af., N°11 ,1977 , p 99.*

(231) الكنتوريا *(Cenutria)* أو الوحدة الكنتورية قطعة من الأرض مساحتها 100 أربنت .

العادية التي بداخل الوحدة الكنتورية[232] وفي بعض الحالات خاصة بالسهول الواسعة تعوض تلك الأسوار بارتفاعات ترابية، كما استعملت أنصاب حجرية (*bornes*) مثل التي اكتشفت على الحدود الجنوبية للبروقنصلية(انظر أدناه الشكل(6)ص65) وقد استعملت لتحديد المساحات المكنترة وتعود لعهد تيبريوس (*Tibère*) [233]، وتحمل هذه الأنصاب الحجرية نقوشا تتمثل في رموز وأعداد واتجاهات (انظر أدناه الشكل(6) ص65)، بالإضافة إلى صليب ينقش على الوجه العلوي يحدد نقطة التقاطع (*Decussis*)، وأول من عرف أنّها أنصاب هندسية تتعلق بالمسح هو النقيب دانو(*Danau*) الذي عثر على بعض منها حول شط الفجاج أواخر القرن التاسع عشر، وقد عثر إلى حد الآن على 34 نصبا حجريا خاصا بهذه العملية[234] .



الشكل (6) :علامة كنترة تشير إلى رقمي الكاردو والديكومانوس.

المصدر : عقون(محمد العربي)،الاقتصاد والمجتمع ...مرجع سابق، ص 79.

---

[232] *Trousset (P.), Nouvelles observations ...Op.Cit., p184.*

[233] *Trousset (P.), les bornes du bled Segui. Nouveaux aperçus sur la centuriation romaine du Sud Tunisien, in Ant.Af., N°12, 1978, p125.*

[234] *Ibid., nouvelles observations..Op.Cit.,p186.*

I–2 تصنيف الأراضي غير المكنترة :

خلال عملية المسح يتمّ التخلي عن كنترة بعض الأراضي نظرا لكونها غير قابلة للزراعة ***(Subseciva)*** في الفترة التي أقيمت فيها عملية مسح الأراضي كالغابات والمستنقعات والأراضي الصخرية والسلاسل الجبلية... الخ، وقد خصص المهندسون لها سجلا خاصا تدوّن فيه قائمة هذه الأراضي[235]، والمعروف من خلال التشريعات الأفريقية أن الكولون مسموح لهم باستغلال هذه الأراضي وتسييرها ، وتصنف هذه الأراضي إلى نوعين:

- **أراضي مساحتها محدودة** ***(Loca Relicta)*** لم تتم كنترتها نظرا لطبيعة أراضيها غير الجيّدة أو بسبب وجود أراضي أخرى مفضلة عليها ولهذا يتخلون عنها، وتطلق أيضا هذه التسمية على الأراضي الصالحة للزراعة التي تقل مساحتها عن مساحة وحدة كنتورية.
- **أراضي أخرى** ويكون ذلك إمّا لأنها غير صالحة للزراعة وتقع خارج حدود المساحة المكنترة وتمتد خارج حدود الإقليم ***(Loca extra clusa)*** أو أنّها أراضٍ جبلية أو أنّ عملية الكنترة لم تصل إليها[236].

تعتبر القراما ***(Grama)*** أداة ضرورية في عملية المسح والقياس ، وهي تسمح لمهندس المساحة بالملاحظة والقياس وإنشاء خطوط مستقيمة حسب الاتجاه المراد (انظر الشكل(7) ص73) ، وعند مباشرة العمل يختار لها مكان ملائم لتثبيتها فيه ويكون ذلك المكان نقطة البداية في تخطيط المحاور ويسمّى مكان القراما ***(Locus gramae)*** [237]**.**

وفي ختام هذه الأعمال يتم إنجاز خريطة ***(Forma)*** للمجال تُحفظ في إدارة المساحة وتستغل عند الحاجة لأغراض التنظيم الاقتصادي و الإداري والاجتماعي...الخ.

---

(235) *Moatti (C.), Op.Cit.,p67.*
(236) *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R. ,T.III,volume2,p1281.*
(237) *Decramer(L.R.)et autres ,Op.Cit.,pp24-25.*

3-I تطور الكنترة الأفريقية :

اجمع المؤرخون على أن أعمال الكنترة التي أقيمت بأفريقيا هي إبداع روماني ولا وجود لدليل يقرّ بانّ القرطاجيين قد قاموا بعملية مسح رسمية لإقليمهم[238] رغم وجود دليل على أنّ الأفارقة قد عرفوا قبل وصول الرومان شكلا من أشكال التهيئة الزراعية والتقسيم الذي يشبه أعمال الكنترة الرومانية [239] وهو ما يفتح المجال للتساؤل عمّا إذا كان الرومان قد استوحوا بعض عملهم هذا من أصول محلية ومن تقاليد زراعية قديمة بالمنطقة؟ لم تهتم الدراسات كثيرا بمسألة أصل هذه الأعمال وكلّ المتخصصين في هذا المجال يدرسونه على أنه عمل روماني بحت شرع فيه بعد سقوط قرطاج مباشرة متجاهلين الفترة التي قبلها، ومن الصعوبة إثبات إن كان الرومان قد تأثروا ببعض الأفكار والمبادرات المحلية ولكن يمكن القول بأنه من الممكن أنّهم قد استفادوا من بعض التجارب المحلية في هذا المجال وهو الرأي الذي سار عليه شوفاليي حين أكد" أن روما في أفريقيا أو غيرها قد أخذت بعين الاعتبار التقاليد المحلية في التقسيم واستطاعت أن تستفيد من الممارسات الزراعية القديمة بهذه المناطق" [240].

إن قلّة النصوص والنّقوش المرتبطة بالكنترة قد جعل من عملية تحديد تاريخ الشروع والانتهاء منها أمرا صعبا خصوصا وان الأبحاث الأثرية والصور الجوية الملتقطة تبرز وجود عدة مجموعات تختلف في توجيهها مما يدل على أن المسح بالشّمال الأفريقي قد تمّ عبر عدة مراحل؛ ففي إقليم أفريقيا القديمة ***(Africa Vetus)*** استنتج الباحثون وجود ثلاث مجموعات رئيسية (انظر أدناه الخريطة (7) ص74):

- **الكنترة شمالا *(Centuriation Nord)***: تمتد آثار هذه المجموعة من بنزرت شمالا إلى النفيضة جنوبا على مسافة 150كلم ومن رأس بونة ***(Cap Bon)*** شرقا إلى تبرسق غربا على مسافة 180 كلم مشكلة بذلك مساحة من 15000كلم مربع وتتجه

[238] *Gsell(S.),H.A.A.N.,T.VII,p11.*

[239] انظر أعلاه ص18.

[240] *Chevallier(R.), Essai de chronologie...Op.Cit.,p64.*

باتجاه مطلع الشّمس خلال الانقلاب الصيفي*(Solstice d'été)* [241] واجمع المؤرخون أنّ عملية كنترة المنطقة ترجع إلى ما بعد سقوط قرطاج مباشرة سنة 146ق.م ورجّح فالب *(Falbe)* أن تكون هذه التقسيمات قد أقيمت بين فترتي حكم يوليوس قيصر *(Jules César)*(49ق.م-44ق.م) وأغسطس*(Auguste)* [242] ، بينما أكد شولتن *(Schulten)* أنّها من منجزات غايوس غراكوس *(C. Gracchus)* [243].

- **الكنترة في الوسط الشرقي** *(Centuriation Centre-Est)*: تمتد على طول الساحل الشرقي على مسافة 120كلم من شمال سوسة إلى جنوب الشابة ومن سبخة الجم غربا إلى الساحل شرقا على مسافة 30كلم انحرف توجيهها عن المجموعة الأولى ويرى الباحثون أن تاريخ البدء في إنشاء مسحها متأخر مقارنة بسابقتها[244].
- **الكنترة في الجنوب الشرقي** *(Centuriation Sud-est)*: تتواجد هذه المجموعة على الحدود الجنوبية للبروقنصلية وهي ناتجة عن توسع الاستعمار الروماني نحو الجنوب وتختلف كليا في اتجاهها عن المجموعتين السابقتين فهي تتجه باتجاه مطلع الشمس خلال الانقلاب الشتوي*(Solistice d'hiver)* ، ويعتقد شوفاليي بانّ الرومان قد طبقوا بهذه المنطقة طرقا مستعارة من الشرق التي تتلاءم أحسن مع مناخ المنطقة [245] ويرجع تاريخها إلى عهد أغسطس[246].

مع مرور الوقت زاد التوسّع الروماني نحو الغرب والجنوب فامتدت عملية الكنترة لتشمل هذه المناطق؛ فقد كشفت النصب الحجرية التي عثر عليها على الحدود الجنوبية للبروقنصلية أن هذه العملية تعود إلى عهد تيبريوس وقد قام بها الفيلق الثالث الأغسطي *(Legio III Augusta)* بإشراف من البروقنصل ويبوس مارسوس *(C. Vibus Marsus)* في الفترة الممتدة

---

(241) *Chevallier(R.), Essai de chronologie...Op.Cit., p61.*
(242) *Falbe (C.T.), Op.Cit., p55.*
(243) *Schulten(A.), Op.Cit.,p158.*
(244) *Caillemer(A.), Chevallier(R.), Les centuriations de l'Africa Vetus, in : E.S.C.,9éme Année, N°4, 1954, p 438.*
(245) *Ibid., pp 442-445.*
(246) *Troussset (P.), Nouvelles observations. Op.Cit., p176.*

بين جويلية 29 وجويلية 30م، أي أن عملية المسح هذه قد أقيمت بعد مرور 6 سنوات فقط على إخماد ثورة تاكفاريناس [247] .

امتدت هذه العملية بعد ذلك لتشمل حيدرة *(Ammaedara)* ومنطقة تبسة وقد عثر على آثار عملية الكنترة الرومانية جنوب الأوراس بين منطقة نقرين وبادس وبسهل قارت *(Guert)* والمحمل (خنشلة) وقد رجّح بيربان *(Birebent)* أن ترجع هذه الأعمال إلى القرن الأول وبداية القرن الثاني بعد الميلاد[248]، كما كشفت الصور الجوية عن وجود آثار لعملية كنترة رومانية بمنطقة تاجنانت خاصة بإقليم قبيلة اولاد عبد النور الحالية وحول جبل اغرور *(Rherour)*[249] كما عُثر أيضا على أعمال كنترة تعود لفترة متأخرة جنوبي شط الحضنة يعتقد أنها أنجزت في عهد سبتيميوس سيويروس(*Septimius Severus*)(193م-211م) [250].

لقد ارتبط المسح في المناطق الجنوبية المتاخمة للصحراء بالأعمال التي يكون قد قام بها الفيلق الثالث الأغسطي، حيث يكون هذا العمل قد أوكل إليه في تلك الأراضي منذ بداية السيطرة عليها وإنشاء الطرق مثل الطريق الرابط بين حيدرة وقابس (تاكابس *Tacapes*) تحت حكم تيبريوس ،كما يكون الفيلق قد اشرف كذلك على عملية تهيئة الأراضي وكنترتها؛ هذه العملية التي قام بها مهندسو مساحة عسكريون ينتمون إلى هذا الفيلق يتمتعون بخبرة كبيرة في هذا المجال دلّت عليها دقة الحسابات والتخطيطات التي عثر عليها بهذه المناطق[251] .

وتجدر الإشارة إلى أن أراضي المدن الحرة لم تقم بها عملية الكنترة من البداية باعتبار أنّها كانت معفاة من الضرائب التي كانت احد الأهداف الرئيسية لعملية الكنترة وما اختلاف

---

(247) *Toutain (J.), Le cadastre romain dans l'Afrique du Nord au début de l'Empire, inscriptions du Sud tunisien relatives à l'arpentage sous Tibère, in : C.R.A.I.,50éme Année , N°4, 1906, p 267.*

(248) *Birebent (J.), **Aqvae Romanae, recherches d'hydraulique romaine dans l'est Algérien**, Service des antiquités de l'Algérie, Alger 1962, pp 42-43.*

(249) *Soyer (J.), Les cadastres de la région de Saint-Donat (Algérie), in : Ant.Af., N°7, 1973, p275.*

(250) *Chevallier(R.), Essai de chronologie…Op.Cit., p 107.*

(251) *Trousset (P.), Les bornes du bled Segui… Op.Cit., pp 143-144.*

مسحها عن باقي المناطق إلاّ دليل على أن الفترة الزمنية التي أقيمت فيها مختلفة، فمدينة أوتيكا على سبيل المثال قد بقيت مدينة حرة إلى سنة 54 ق.م ولهذا فإنّ عملية كنترة أراضيها تكون قد تمّت دون شك بعد هذا التاريخ (252).

ومن جهة أخري فانّ أول إشارة إلى المسح الأفريقي تعود إلى القانون الزراعي لعام111 ق.م ، ومن خلال ما ورد فيه استنتج الباحثون أن تاريخ الكنترة الأفريقية قد سبق إصدار هذا القانون وان هناك قسما من الأراضي الأفريقية لا ينتمي إلى الأراضي التي تملكتها الإدارة الرومانية ومع ذلك فإنّه خضع لأعمال للمسح(253)، كما أشارت نصوص القوانين الزراعية التي اكتشفت بعين واصل وهنشير مطيّش إلى وجود كنترة بهذه المناطق التي أقيمت فيها مستثمرات إمبراطورية واسعة، بالإضافة إلى القانون الصادر في سنة 422 م (254) الذي بيّن أنّ الأراضي الصالحة للزراعة بمقاطعة البروقنصلية كلها خضعت لتجزئة كنتورية حيث كان عددها بإقليم المزاق*(Byzacène)* 15175 وحدة كنتورية منها 7460 وحدة مزروعة و7715 وحدة مهملة، أما بإقليم زوجيتان *(Zeugitane)* فكان عددها 14702 وحدة؛ منها 5700 وحدة مزروعة و9002 وحدة مهملة (255).

I-4 أهداف الكنترة :

إن اهتمام الرومان بتنظيم الأراضي الأفريقية وتخصيصهم لمساحين مختصين وتجنيدهم للجيش للقيام بعملية الكنترة إنّما يدلّ على أنّ لهم أهدافا يسعون لتحقيقها تضاهي في قيمتها حجم الإمكانيات المخصصة لها وما إصرارهم على التوسّع خاصة باتجاه الجنوب وتكبّدهم عناء مواجهة القبائل البربرية في العديد من المناسبات إلاّ دليل على أن للرومان أهدافا هامة هم في حاجة لتحقيقها.

(252) *Peyras(J.),paysages agraires et centuriations dans le bassin de l'oued Tine (Tunisie du Nord), in :Ant.Af. ,N°19,1983, p249.*
(253) *Gsell(St.) ,H.A.A.N., T. VII, pp13-14. ; Chevallier(R.), Essai de chronologie…Op.Cit., p66-67.*
(254) ***Code Théodosien**, éditions T.Mommsen et P.Meyer, Berlin1905,XI,28,13.*
(255) *Schulten (A.) ,Op.Cit., pp132-133.*

تأتي الأهداف السياسية في مقدمة الأهداف حيث يري كولوندو ***(Kolendo)*** [256] أنّ عملية المسح كان لها هدف سياسي ومالي(ضريبي) فالأهداف الاقتصادية حسبه لم تتسبب في القيام بهذا المسح على الأقل في بدايته، لأن أعمال المسح التي أقيمت جنوبا بين عامي29-30م لم تكن بهدف زراعة تلك الأراضي بقدر ما كانت تهدف إلى مراقبة القبائل الثائرة (الموسولام) . ويري تروسي ***(Trousset)*** بانّ المسح الجنوبي كانت له ثلاثة أهداف رئيسية : توسيع الاستعمار إلى آفاق جديدة وتثبيت القبائل بتحديد مجالها وملكياتها ثمّ ربطها بعدما أصبحت مستقرة بالمراكز الحضرية تحت سياسة تحضير المناطق المتاخمة للصحراء[257] وفي نفس الوقت هو محاولة من الرومان القضاء على نمط الحياة الاقتصادية والاجتماعية السائد بهذه المناطق القائم على الرعي والترحال الذي لا يتوافق مع رغبة الرومان في توفير الأمن والاستقرار لزيادة الإنتاج الزراعي بهذه المناطق لتغطية نقائصها الغذائية بروما.

وقد فسر البعض غياب المسح في بعض المناطق على غرار السلاسل الجبلية بتعمد المساحين الرومان تجاهلها بهدف عزل سكانها الذين احتموا بها هربا من بطش الاستعمار الروماني وإبعادهم عن الطرق الرئيسية والسيطرة عليهم ومراقبتهم[258]. وفي حالات أخري تستعمل المعلومات الرقمية الحسابية المنقوشة على النصب الخاصة بالكنترة في تحديد أبعاد المناطق التي تتحصن بها القبائل الثائرة بهدف الحصول على المعلومات وتقدير الأخطار.

إن تزايد الهجرات الرومانية للمنطقة هو السبب الذي دفع بالحكام الرومان إلى إيجاد طريقة ينظمون بواسطتها الأراضي الزراعية بطريقة تجنبهم مشاكل في المستقبل ولهذا لجأوا إلى

---

(256) *Kolendo(J.), Le colonat en Afrique sous le Haut-Empire, centre des recherches d'histoire ancienne, vollume17, Paris 1976, p16.*

(257) *Trousset (P.), Les bornes du bled Segui… Op.Cit., p 161.*

(258) *Caillemer(A.), Chevallier(R.), les centuriations de l'Africa Vetus…Op.Cit. , p447.*

قواعد علمية تنظيمية في تقسيمهم للأرض بهدف توزيعها بطريقة عادلة بين الوافدين الجدد للمنطقة[259].

ارتبطت عملية المسح أيضا بالعامل الضريبي فقد سهّلت عملية الكنترة تحصيل الضرائب؛ حيث كانت كل وحدة كنتورية تدفع ضريبتها المستحقة وفق ما تحدده المصالح الضريبية بالبروقنصلية، و في هذا الإطار يري البعض أن آثار الكنترة الأفريقية ما كانت لتصمد طوال هذه القرون لولا خاصيتها المالية (الضرائب) [260]، ومن جهة أخري فانّ عملية الكنترة كانت ترافقها عملية إنشاء خريطة للإقليم***(Forma)*** التي تستغل فيما بعد في عدة مجالات خاصة المجال العسكري والضريبي، بالإضافة إلى أن عملية الكنترة تسمح بالإحصاء الديموغرافي والاقتصادي [261].

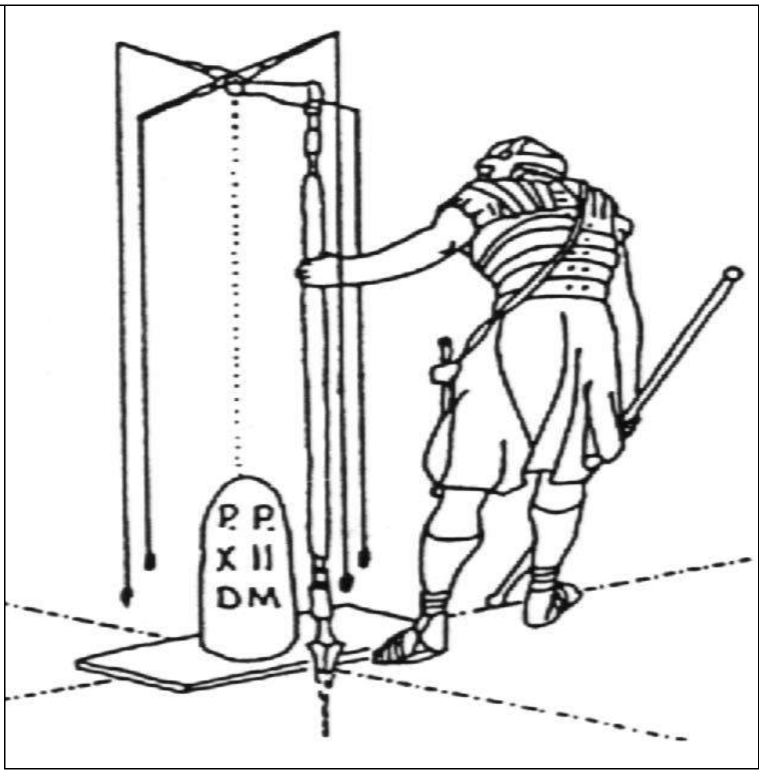
كانت أعمال الكنترة هذه ضرورة اقتصادية واجتماعية وسياسية في نظر الإدارة الرومانية ، ولتحقيق هذه الضرورة تمّ تجسيد هذا العمل على الأرض الأفريقية بطريقة منظمة أبهرت العديد من الباحثين، ثمّ أن أعمال الكنترة هذه تبرز من جهة طريقة من الطرق التي تمكن بواسطتها الاحتلال الروماني من غرس جذوره بالشّمال الأفريقي، ومن جهة أخري تقدم لنا مثالا حيّا على الأسس الصحيحة العلمية والقانونية التي ينبغي إتباعها في سبيل تحقيق نهضة اقتصادية حقيقية و دائمة.

---

(259) شنيتي(محمد البشير) ، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن الرابع الميلادي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 ، ص57.

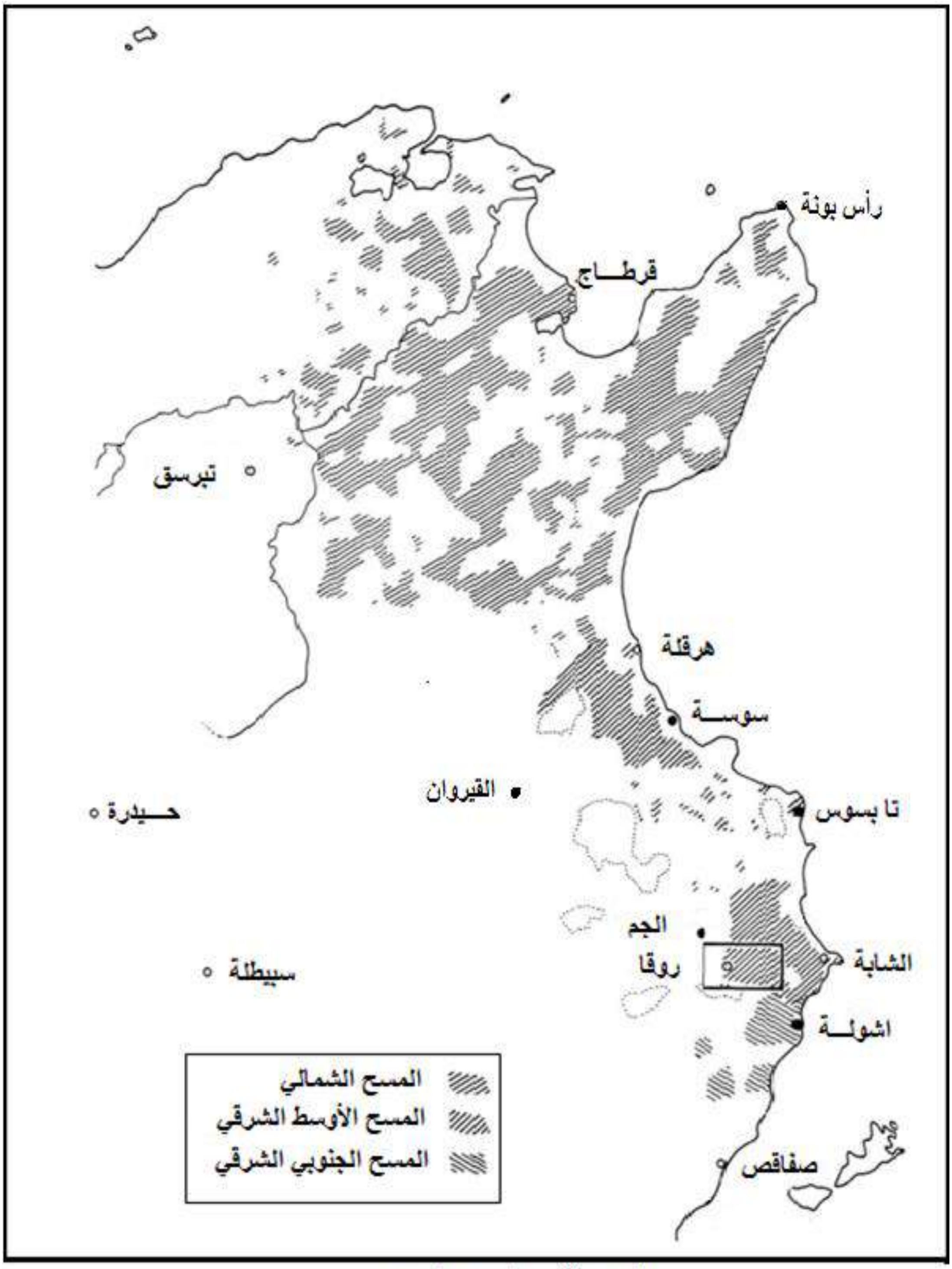
(260) *Saumagne(Ch.), La photographie aérienne au service de l'archéologie en Tunisie, in: C.R.A.I., N°2, 1952 , p 301.*

(261) *Chevallier(R.), Essai de chronologie… Op.Cit., p124.*



الشكل(7): استخدام القراما والأنصاب الحجرية لتحديد أبعاد الوحدة الكنتورية

المصدر: *http://magister-optimus.blogspot.com*



خريطة (7):آثار المسح في تونس

المصدر: (Caillemer(A.)et Chevallier(R.),les centuriations de l'Africa Vitus, A.E.S.C ,N4,1954 , p435.)

II-التشريعات الزراعية الأفريقية:

أدت الحالة التي كانت عليها الأراضي الأفريقية وظروف استغلالها إلى إصدار موظفي الدولة الرومانية لمجموعة من النصوص والقوانين من اجل تنظيمها وجعلها أكثر استغلالا وأيضا من اجل تنظيم العلاقات بين الملاّك والعمال وتحديد حقوق وواجبات كل طرف، كما حدّدت أيضا الأنصبة الضريبية التي تدفع نظير الاستغلال الزراعي، والملاحظ أن جلّ هذه النصوص تتعلق بالأراضي المهملة أو التي لم تستغل بعد من طرف الملاّك كأراضي البور وأراضي المستنقعات والأراضي التي لم تشملها حدود الكنترة، ولم تتعرض هذه النصوص إلى الأراضي الخصبة والمستثمرات المنتجة التي حافظت على وضعيتها القانونية المعروفة[262] .

II–1 النصوص الأثرية "القانونية" المتعلقة بتنظيم الزراعة الأفريقية:

هذه النصوص التي استخرجها الأثريون خلال أبحاثهم من مواقع عديدة في أفريقيا الشّمالية هي عبارة عن مراسيم أصدرها بعض سامي موظفي الدولة الرومانية الذين يخوّل لهم القانون ذلك، وقد عُثر عليها منقوشة على نصب حجرية، وكلّ مرسوم خاصّ بتنظيم مستثمرة فلاحية معيّنة في شكل دومان إمبراطوري أو دومان خاص أو فندس **(**Fundus**)** ولا ترقي لان تكون قانونا عاما شاملا لمناطق متعددة، وهي مستوحاة من قانون مانكيانا (*Lex Manciana*) وقانون هادريان**(***Lex Hadriana***)**؛ وقد تمكّن أولئك الموظفون انطلاقا من هذين القانونين من إصدار تلك المراسيم وإعطاء الشرعية القانونية لقراراتهم. وفيما يلي أهم النصوص الأثرية المكتشفة المتعلقة بالجانب الزراعي:

- **نص سوق الخميس(***l'inscription de Souk El-Khmis***):** هذا النص يرجع إلى عهد البروقنصلين: ماريوس بربيتوس اوريليانوس **(***L.Marius Perpetus Aurelianus***)** وفلاكوس كورنيليانوس (***Flaccus Cornelianus***)** اللّذان حكما على التوالي خلال

(262) شنيتي (محمد البشير) ، التغيرات الاقتصادية... مرجع سابق، ص83.

الفترة الممتدة بين (174-223)، ومن المحتمل جدا انّه يعود إلى سنة182 أو 183م، وهو متعلق بوضعية الكولون[263] بالمناطق الريفية للإمبراطورية الرومانية[264].

- **نص هنشير مطيّش** (*l'inscription d'Hènchir-Mettich*): اكتشف سنة 1896 من طرف الملازم بولان (*Lieutenant Poulain*)[265]، ويتعلق هذا النص بفندس مزدوج التسمية: فيلا ماغنا فاريانا(*Fundus Villae Magnae Varianae*) ومباليا سيغا (*Mappalia Siga*)[266] ويحتوي على بنود من قانون مانكيانا، وقد رجّح بيرنو (*Pernot*) انطلاقا من بعض العبارات الواردة فيه أن يكون مؤرخا بنهاية القرن الثاني وتحديدا بفترة حكم سبتيميوس سيويروس[267]، في حين أرجعه آخرون إلى الفترة ما بين أواخر عام 115 والأشهر الأولى لعام 117م[268].

---

(263) إن مصطلح الكولون*(Colon)* له عدة تأويلات، ففي بعض الأحيان يقصد به في النصوص الأفريقية سكان الريف الأحرار الذين يزرعون أراضيهم ، وفي أحيان أخري يطلق المصطلح على المزارعين الذين يستغلون أراضي الغير، وهناك نوع آخر من الكولون الذين ولدوا على أراضي الدومان ويكتسبون الحق في استغلال الأرض التي ولدوا عليها، بالإضافة إلى الكولون الذين يتمتعون بحق خاص في ملكية الأراضي التي استصلحوها ولهم الحق في تركها للورثة منذ عهد تراجان، والكولون على العموم هم مزارعون أحرار لهم الحق في الزواج وتكوين عائلات والحق في الإرث، انظر:

- *Lacroix (F.), L'Afrique Ancienne, R.Af , volume14, 1870 , pp26-27.; Pernot (M.), L'inscription d'Henchir-Mettich, in : M.A.H., T. 21,1901,p72.*

(264) من رسالة إلى السيد ديجاردان شرح فيها عددا من النصوص الأثرية أنظر :

(265) *Cagnat(R.), Inscription d'Henchir-Mettich, in : C.R.A.I., 41éme Année, N°2, 1897, p146.*

(266) استنتج توتان **Toutain** وهو مصيب في ذلك أن التسمية : مزرعة فاريانوس الكبيرة *(Villae Magnae)* هي الاسم الجديد (الروماني) لهذا الدومان ، و فاريانوس *(Varianus)* هو الاسم الأول لمالكه ، أما الاسم الثاني *(Mappalia Siga)* فهو الاسم المحلي (الأمازيغي) القديم لها، انظر:

- *Toutain(J.), L'inscription d'Henchir Mettich, un nouveau document sur la propriété agricole dans l'Afrique romaine, in : C.R.A.I.,1902, p45.*

(267) *Pernot (M.), Op.Cit.,p69.*

(268) *Toutain (J.), L'inscription d'Hènchir Mettich… Op. Cit. , p 44.*

- **نص عين الجمالة**(*l'inscription d'Ain-El-Djemala*): نص اكتشفه كاركوبينو في جوان 1906م على بعد6 كلم جنوب غرب عين تونقة (*Ain Tounga*) على سرير وادي خلاد (*Kralled*) عرف بنص عين الجمالة نسبة إلى دوار عين الجمالة القريب من موقع اكتشافه ويتعلق بفندس نيرونيانوس(*Neronnianus*) [(269)]، ويحتوي هذا النص على عريضة (*petition*) طالب من خلالها المزارعون السماح لهم باستغلال الأراضي غير الصالحة للزراعة للمستنقعات ويهدفون من خلالها إلى استعطاف الإمبراطور ، وتضمن النص أيضا إجابة البروكيراتور الذي استجاب لطلبهم مستندا في ذلك إلى قانون هادريان[(270)].
- **نص عين واصل** (*l'inscription d'Ain Ouassel*) : ويسمى أيضا مرسوم البروكيراتور (*Sermo Procuratorum*) عُثر على هذا النص منقوشا على ثلاثة أنصاب حجرية قرب نبع ماء يدعى عين واصل وذلك قرب تبرسق، وهذا النص خاص بسالتوس بورونيتانوس(*Burunitanus*) ورد فيه فصل من فصول قانون هادريان المعروف قبل ذلك في نص سوق الخميس[(271)]، وتحدث النص عن أمور ثلاث : حق الملكية(*jus possidendi*) ، الأقساط الضريبية(*partes fructuum*) والإعفاءات الضريبية لمدة خمس سنوات يتوجب بعدها استخلاص العائدات من طرف الكوندكتور(*Conductor*)ويعود النص إلى عهد سبتيميوس سيويروس[(272)].

---

(269) *Carcopino (J.), Inscription découverte vers Ain Tounga intéressant l'histoire de la colonisation en Afrique et du colonat partiaire dans tout le monde romain, in : C.R.A.I. , 50éme Année ,N°8, 1906, p540.*

(270) *Ibid., Mission en Tunisie (1906), Extrait de souvenirs romains, Hachette, 1967, ch.VII , pp127-128 .; Ibid., L'inscription d'Ain-el-Djemala, contribution à l'histoire des saltus africains et du colonat partiaire, in : M.A.H., T.26,1906, pp390-392.*

(271) *Mispoulet(J-B.),l'inscription d'Ain-Ouassel, Nouvelle Revue Historique de Droit Français et étranger ,16 éme Année , Paris , 1892, p117.*

(272) *Carton (Dr.) ,la lex Hadriana et son commentaire par le procurateur Patroclus , R.Ar., Paris 1893, pp8-11.*

- **نص جنان الزيتونة(*l'inscription de Jenan ez Zaytouna*):** عبارة عن التماس تقدم به مزارعون من الأهالي إلى السلطات العمومية للسماح لهم بزراعة الأراضي البور (في التلال وفي الأراضي التي بها مستنقعات) زيتونا وكروما حسب ما نص عليه قانون مانكيانا، ويظهر أن المزارعين الأفارقة قد اجتمعوا فيما يشبه نقابة تعاونية تحت رئاسة قضاتهم (*magistri*) لرفع التماسهم هذا للسلطات المعنية(273).
- **العقود الوندالية(*les Actes Vandales*):**عبارة عن ألواح من خشب، نقشت عليها عقود ملكية قطع أرضية كتبت بواسطة حبر وباللّغة اللاّتينية عُثر عليها داخل جرار سنة 1928م على بعد بضع كلوميترات من تبسة ، تكرر خلالها ذكر قانون مانكيانا ما يدلّ على استمرارية العمل بهذا القانون خصوصا وان بعض هذه العقود(8 على الأقل) مؤرخة بعهد الملك الوندالي غنثاموند (*Gunthamund*) الذي حكم بين(484-496م)(274).

II-2. قانون مانكيانا وقانون هادريان على ضوء الاكتشافات الأثرية:

من خلال عملية فحص ودراسة النصوص المتعلقة بالجانب الزراعي التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية اتّضح للباحثين أن كل التشريعات قد انبثقت من قانونين أساسين هما قانون مانكيانا وقانون هادريان وان التشريعات التي جاءت بعدهما إنما جاءت لتكملتها وكذا لمعالجة ما جدّ من قضايا ، خاصّة العرائض التي تطالب بتطبيق التراخيص التي منحتها هذه القوانين على أراضٍ جديدة لم تطبق عليها بعد.

فيما يتعلق بقانون مانكيانا الذي يعتبر الأقدم إلا أنّه ضاع من سوء الحظ أو بالأحرى لم يتم اكتشافه بعد وقد عرف وجوده انطلاقا من النصوص المذكورة أعلاه التي ورد ذكره فيها، وانطلاقا منها استخلص الباحثون بعضا من بنوده ، ويطرح هذا القانون الذي لا نعرف منه

(273) *Saumagne (ch.), Inscriptions de Jenan ez Zaytouna, in: C.R.A.I., 81 éme Année , N°4,1937, pp294-295.*
(274) *Albertini (E.), documents d'époque vandale découverts en Algérie, in : C.R.A.I.,72 éme Année , N°3, 1928, pp 301-303.*

بصفة أكيدة إلاّ الاسم عدّة تساؤلات لم نحصل بعد على إجابات عليها ما عدا الترجيحات والافتراضات التي اقترحها الباحثون بشأنه، والملاحظ استمرارية تطبيق هذا القانون بأفريقيا إلى عهد متأخر من الإمبراطورية مثلما دلت عليه ألواح البيرتني وهو ما يدل على أن هذا القانون كان "دستورا" زراعيا مبنيا على قوانين صارمة وفعّالة وإلا لما وصل تأثيره إلى غاية القرن الخامس الميلادي.

أثار هذا القانون فضول الباحثين نظرا للغموض الذي يكتنفه، وفي ظل غياب أي مؤشر نستطيع بواسطته تحديد تاريخ هذا القانون، جاءت افتراضات الباحثين متباينة وغير أكيدة؛ فشولتن يري انّه قانون زراعي يعود للقرن السابع بالتقويم الروماني أما كوك (*Cuq E.*) فيرى انه قانون يعود لفترة الإمبراطورية(275)، أما سوماني فقد ارجع أصوله إلى تقاليد أهلية محلية (*consuetudo*) خاصّة بأفريقيا ما قبل الفترة الرومانية جسدت عمليا خلال فترة الإمبراطورية(276).

سمي هذا القانون نسبة إلى شخص لم يتوصل الباحثون إلى تحديد الصفة القانونية والمهنية التي كان يشغلها ، وقد رجّح المؤرخ رستوقتزف أن يكون مبعوثا خاصا لأحد الفلافيين(277)، وقد يكون حاكما أو موظفا للإمبراطور أو قاضيا قنصليا كلف بمهمة وضع قوانين لتنظيم عملية الاستغلال الزراعي خلال عهد الأسرة الفلافية ومن المحتمل خلال فترة حكم الإمبراطور فسباسيانوس (*Vaspasianus*)(69م-79م)(278).

يعتبر قانون مانكيانا قانونا عاما ينظّم العلاقات بين الملاّك والكولون عندما تعتقد السلطة بوجوب نقل ملكية كل أو جزء من الأرض التي احتفظت بها في أفريقيا(279)، وهو

(275) *Cuq (E.), le colonat partiaire dans l'Afrique romaine d'apres l'Inscription d'Henchir Mettiche, in: <u>C.R.A.I.</u>, N°11, 1ere serie ,1901,pp143-144.*
(276) *Saumagne (ch.), Inscriptions de Jenan ez Zaytouna…Op.Cit. , p295.*
(277) رستوقتزف(م.) ، مرجع سابق ، ص434.
(278) شنيتي (محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية...مرجع سابق ، ص75.
(279) *Cuq (E.), Op.Cit., p143.*

قانون يمنح حق الملكية والانتفاع(*l'isus proprius*) للذين يستصلحون البراري والأراضي القاحلة أو المهملة. يري بعض المختصين أن هذا القانون ليس بالمعني المفهوم للقانون الروماني العام وإنما هي تنظيمات عملية أكثر مما هي قوانين ، ففي مجملها عبارة عن رخص عمل منحها المشرع الروماني بهدف استغلال الأرض غير المستغلة أو المهملة[280]، ومن جهة أخري فانّ هذه القوانين قد طبّقت على كل الأراضي العمومية(*Ager Publicus*) حسب اعتقاد اغلب المختصين لكن هناك من يري أنها طبقت فقط على الأقاليم التي تضم ضياع الإمبراطور بمنطقة وادي مجردة[281]. ويرى بيكار أن قانون مانكيانا ليس متعلقا فقط بالدومان الإمبراطوري بل متعلق أيضا بالدومان الخاص[282].

أما قانون هادريان فقد جاء في ظروف مختلفة عن الظروف التي جاء فيها القانون السابق وهو عبارة عن إصلاحات أمر بها الإمبراطور هادريان(117م-138م) بعد أن زار بعض المناطق بأفريقيا فلم يطمئن للحالة التي وجد عليها الأراضي والمستثمرات الأفريقية فقرر إصدار قانون يعيد لهذه المستثمرات حيويتها محافظا على روح أحكام قانون مانكيانا.

قام هادريان بإصدار قانون لتنظيم الأرض التي لم تزرع والأراضي القاحلة التابعة لمستثمرات الإمبراطورية بأفريقيا وكان يريد من وراء ذلك ربط المزارعين بالأرض متطلعا إلى تحقيق الاستقرار والاستغلال الدائم للإمكانيات الزراعية، وقد عمل على منح المقيمين على هذه الأراضي حق واضعي الأيدي (*possessores*) وهو حق شبيه بحق الملكية الفردية فهؤلاء يتمتعون بحق الزراعة(*l'isus colendi*) وحق الانتفاع الشخصي (*l'isus proprius*) على الأراضي الخصبة بالإضافة إلى حق توريثها لفروعهم شرط أن يواصلوا عمل أجدادهم[283].

---

(280) *Peyras (J.) , la potestas occupandi dans l'Afrique romaine, in: D.H.A., volume25, N°1 , 1999 ,p134.*

(281) محجوبي (ع.) ، العصر الروماني وما بعده في شمال أفريقيا(القسم الأول) ، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني (حضارات أفريقيا القديمة)، إشراف جمال مختار ، طبع جين افريك/ اليونيسكو ،1985م،ص 496.

(282) *Picard (G.Ch-.), La civilisation de l'Afrique Romaine…Op.Cit.,p63.*

(283) رستوفتزف(م.) ، مرجع سابق ، ص ص434-435.

يظهر قانون هادريان بأنه عمل واسع يشتمل على عدة أبواب متعلقة على الأقل بتسيير وإدارة الدومان الإمبراطوري[284]، فهذا القانون الذي دلّت عليه نقيشة سوق الخميس وعين واصل هو تنظيم عملي من طرف الإمبراطور هادريان ومتعلق بإدارة واستغلال الدومان الإمبراطوري بتراكتوس قرطاج(*Tractus Carthaginiensis*) وربما كل أفريقيا كما يعتقد ميسبولي (*Mispoulet*)[285]، أما كاركوبينو فيري أن هذا القانون هو قانون متعلق بالإمبراطورية كلها[286] .

إن ما يميز هذا القانون هو قابليته للتطبيق في مختلف الأماكن وعلى مختلف أنواع الملكية رغم اختلاف العادات وطبيعة الأرض والمناخ...وهذا ما جعل الدكتور كارتون(*Dr. Carton*) يشيد به حيث يقول :" إن المشرّع الرّوماني عرف كيف يمنح لتشريعاته هذه المرونة الضرورية ليجعلها قابلة للتطبيق في كل مكان والتحديد الكافي لتتأقلم في ظروف مختلفة جدا"[287].

II-3 بعض بنود التشريعات الفلاحية الأفريقية:

شكلت التشريعات الأفريقية على اختلاف نصوصها مادة متجانسة ومشابهة لبعضها الآخر، وأهم هذه النصوص نص هنشير مطيّش الذي يعد أقدم النصوص التي عثر عليها (يعود إلى الفترة بين115-117م) ويحتوي على مادة تشريعية مهمة نشير فيما يلي إلى أهم ما ورد فيه[288]:

---

(284) *Carton (Dr.), la lex Hadriana…Op.Cit., p14.*

(285) *Mispoulet (J-B.),l'Inscription d'Ain-Ouassel…Op.Cit.,p122.*

(286) *Saumagne (ch.),Inscriptions de Jenan ez Zaytouna...Op.Cit.,p300.*

(287) *Carton (Dr.), la lex Hadriana…Op.Cit., p19.*

(288) عرفت التشريعات الأفريقية اهتماما كبيرا من طرف الباحثين الذين خصوها بعدة دراسات –اشرنا إلي بعضها- وكان لنص هنشير مطيش الحظ الكبير من هذه الدراسات باعتباره أهم هذه النصوص، واكتفينا في هذا العنصر بالإشارة إليه معتمدين على ترجمة *(Cagnat R.)* ، انظر:

-*Cagnat(R.), inscription d'Henchir-Mettich…Op.Cit., pp151-153.*

II-3-1 فيما يتعلق بالملكية وحق الانتفاع:

بالنسبة للملكية فانّ الأجانب عن فندوس فيلا ماغنا فاريانا الحقّ في امتلاك الأرض البور بعد أن يحيوها وفق ما نص عليه قانون مانكيانا ، ويسقط عن المالك حق الانتفاع في حالة هجران وإهمال هذه الأرض لمدة تتجاوز السنتين.

II- 3-2 فيما يتعلق بالأقساط الضريبية:

يلزم الكولون على دفع أقساط إلى الملاّك أو الوكلاء أو مستأجري الأرض وفق ما حدده قانون مانكيانا على أن يتم تقدير الكمية المستحقة التي يجب تسليمها من طرف الوكيل أو المستأجر الذي يجب أن يصرح كتابيا باستلامه لهذه المحاصيل من عند الكولون، والمنتوجات التي أشار إليها النص والتي يدفع عنها الأقساط المستحقة هي القمح والشعير والفول والزيتون والكروم بالإضافة إلى العسل[289].

II-3-3. فيما يتعلق بالإعفاءات الضريبية:

تعفي أشجار التين والكروم المغروسة حديثا من دفع الأقساط عنها إلاّ بعد انتفاع صاحبها بخمسة محاصيل (5سنوات) وبعد انقضاء هذه المدّة عليه أن يدفع ما عليه وفق ما نص عليه قانون مانكيانا.

بالنسبة للزيتون فانّه يُسمح بغراسة أشجار الزيتون في الأراضي غير المزروعة ولا يدفع الكولون عنها شيئا إلاّ بعد مرور عشر سنوات من غرسها، أما الذي يطعم زيتونا بريّا فعليه أن يدفع الثلث عن المحصول بعد مرور خمس سنوات فقط .

II-3-4. فيما يتعلق بأعمال السخرة:

يجب على المزارعين الموجودين داخل فندس فيلا ماغنا أن يقدموا سنويا خدمة يومين عمل بالنسبة لكل واحد منهم في الحرث ، ويومين في الحصاد ويومين في العزق وذلك حسب

---

[289] فيما يخص الأقساط الضريبية ، فضلنا الإشارة إليها في عنصر الضرائب الزراعية تجنبا لتكرارها، انظر أدناه ص110.

كل نوع زراعة ، وعلى الكولون تسجيل أسمائهم لدي المستأجرين بغرض القيام بأعمال الحراسة في بداية كل عام مجانا ، وعلى الأجراء الذين يقيمون داخل أو قرب فندس فيلا ماغنا أن يقدموا خدمة حراسة مجانية للمسيرين.

II–4 أثر التشريعات الرومانية على التطور الزراعي بأفريقيا:

لاشك أن لهذه التشريعات التي سنها الأباطرة ووكلاؤهم بأفريقيا أثره في تطوير الزراعة في عموم أفريقيا؛ فاهتمام كل النصوص التي سُنّت في هذا الإطار والتي عُثر عليها لحد الآن بالأراضي البور والمهملة والأراضي التي بها مستنقعات والأراضي غير المكنترة ، إنّما يدلّ على استغلال جدي للأرض الأفريقية إلى درجة جعلت من المزارعين يفكرون أو يطلبون الرخصة من اجل استصلاح الأراضي غير المستغلة فهذا دون شك ساهم في زيادة المساحة المزروعة بمرور السنوات.

ومن جهة أخري ، فانّ كل المؤرخين قد أشادوا وثمّنوا تلك الرخصة التي منحها قانون مانكيانا وبعده قانون هادريان للمزارعين باستصلاح أراضي البور بغرض زراعتها كروما وزيتونا وهو ما ولد ازدهارا لهذه الزراعات ابتداء من القرن الثاني بعد الميلاد على الخصوص[290]، فالبعض منهم قد أشار في هذا الإطار إلى عبقرية المشرّع الروماني الذي عرف كيف يجعل من الأراضي الأفريقية أكثر استغلالا ومنه أكثر ازدهارا ، وقد نوّه بيكار أيضا ببراعة المشرع الروماني الذي تصوّر أربعة حقوق كاملة كلها تمارس على نفس الأرض: حق الشعب الروماني ، حق الإمبراطور والرأسماليون الكبار(*dominus*) ، حق المزارع العام وحق الكولون الذين يحتفظون بثلثي محصول عملهم[291].

وعن حالة الكولون المرتبطين أكثر بالأرض، فانّ بنود هذه التشريعات قد جاءت في صالحهم حيث ساهمت في تحسين حالتهم المعيشية والاجتماعية، فقد اكتسبوا ملكيات بعدما

---

(290) رستوفتزف (م.) ، مرجع سابق ، ص436.

(291) *Picard (G.Ch-.), La civilisation de l'Afrique Romaine…Op.Cit., p62.*

كانوا محرومين منها قبل ذلك حتى وان كانت في الأراضي الهامشية ، كما اكتسبوا حق توريثها لأبنائهم في حالة المداومة في استغلالها.

لاشك أن استصلاح أراضي جديدة قد أدي إلى زيادة موارد الدولة الرومانية من الضرائب التي يدفعها هؤلاء كما دلّ على ذلك نص هنشير مطيّش الذي حدد الأقساط المستحقة على الزراعات المستحدثة على هذه الأراضي[292]، فهذه الضرائب المدفوعة هي التي تشكل نواة الأنونة الأفريقية التي ترسل إلى روما.

لعل ما زاد من أهمية هذه التشريعات والإصلاحات هو كون انعكاساتها قد مسّت عدّة أطراف بداية بالمزارعين البسطاء ثم الملاّك الكبار وهو ما انعكس على أفريقيا والإمبراطورية كلها، فالمشرّع الرّوماني ببساطة عرف كيف يوفر الأطر القانونية التي تضمن الازدهار والتطور للقطاع الزراعي، وهو ما جعل تلك القواعد والتشريعات تندمج في أعراف وتقاليد الأفارقة ويستمر العمل بها إلى ما بعد الفترة الرومانية[293].

III نظام الرّي الزراعي:

يأتي الرّي في مقدمة العوامل التي ساهمت في قيام زراعة مزدهرة بأفريقيا خلال الفترة الرومانية، وباعتبار أن مناخ شمال إفريقيا خلال تلك المرحلة كان يميل إلى الجفاف فقد فهم الرومان مبكرا هذه الحقيقة فعمدوا بمساهمة من أهالي المنطقة إلى توسيع خريطة الرّي باعتباره الكفيل بتعويض ندرة التساقط ، حيث شرع المهندسون الرومان في إعادة تهيئة المنشآت التي أقامها الأفارقة قبلهم ثم بدأوا في إمداد خطوط قنوات المياه من مصادرها إلى المدن للاستهلاك الحضري أو إلى الأراضي الزراعية لاستغلالها في ري المزروعات، وفي هذا المجال كشف باراداز وبيربان في أعمالهما عن وجود شبكة هامة من منشآت الري في المناطق الجافة خاصة التي تقع على حدود الصحراء جنوبا نظرا لكون أراضيها أكثر حاجة للري من المناطق الشّمالية .

---

[292] *Cagnat(R.), Inscription d'Henchir-Mettich…Op.Cit., pp151-153.*

[293] عقون (العربي)، الاقتصاد والمجتمع ...مرجع سابق، ص83.

إن ازدهار أفريقيا خلال الفترة الرومانية على حد تعبير دو كودراي(*De Coudray*) لم يكن قضية مناخية بقدر ما كان ثمنا للمجهودات التي بذلت في مجال الرّي[294] ، ولم يكن التوسّع الزراعي المحقق خلال تلك المرحلة إلاّ نتيجة لهذه المجهودات ، فقد كانت المياه قضية رئيسية في الاستثمار الزراعي ما جعل الأرياف الأفريقية تعرف تنافسا كبيرا بين المزارعين على المياه ، فملكية ارض معينة لا يعنى شيئا إذا كانت مصادر المياه بها منعدمة خاصة بالمناطق الداخلية والجنوبية، وعادة ما تقوم نزاعات بين المزارعين بسبب المياه ما جعل احدهم يعلق بأنه " في ايطاليا وفي بعض المقاطعات الأخرى ، سيكون من الإزعاج تحويل المياه إلى بستان جارك، أما في أفريقيا فالازعاج يحدث إذا منعتم مروره"[295].

III–1 منشآت الرّي:

تصنف المنشآت المستغلة في سقي الأراضي الزراعية إلى نوعين رئيسين ؛ منشآت للتجميع وأخرى للتوزيع، شهدت الاكتشافات الأثرية على انتشارها الواسع في أفريقيا والعديد منها كان قد أنجز في الفترة السابقة للرومان ، والملاحظ هو تكيّف هذه المنشآت مع طبيعة السطح وطبيعة الانحدار وكذا مع أصل المياه بشكل يجعل استغلالها في الرّي عملا سهلا وفعّالا، ومن جهة أخري فقد حرص المزارعون على استغلال أغلب مصادر المياه المتاحة سواء كانت آبارا أو عيونا أو أودية...الخ.

III–1–1 منشآت التجميع:

عُثر على أسرة أودية شمال أفريقيا على العديد من السدود التي استعملها المزارعون لحفظ وتخزين مياه هذه الأودية لاستغلالها في الرّي خلال فترات الجفاف، وعادة ما تقام هذه السدود في خوانق الأودية واغلبها اصطناعي شُيّد له جدار معترض يصدّ مياه الأودية لجمعها، وقد دلّت الأبحاث الأثرية على وجود عدّة نماذج من هذه المنشآت في أفريقيا كالسد المقام

---

(294) *Du Coudray (La Blanchère), **l'aménagement de l'eau et l'installation rurale dans l'Afrique Ancienne**, Imprimerie Nationale , Paris 1895, p34.*

(295) *Gsell(St.), l'Algérie dans l'antiquité...Op.Cit., p65.*

بدومان ***(Enfida)*** بالقرب من زغوان الذي تخصص مياهه لري سهل دار الباي[296] ، وقد عرف عن الرومان إتقانهم الكبير لبناء السدود كما دلّ على ذلك سد واد درب بالقرب من قصرين ***(Cillium)*** الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار و طوله أكثر من مائة متر ، شيّدت على طول جداره المعترض طريق عرضها حوالي خمسة أمتار[297]، وقد دلّ الأطلس الأثري للجزائر على وجود عدّة منشآت مماثلة من بينها سد الخرزة على وادي الحم***(El Ham)*** بجهة بوغار خصصت مياهه لري السهل الواقع على الضفة اليسرى من الوادي[298]، وسد آخر مقام على وادي القصب بالمسيلة له نفس الدور[299].

كما اهتم المزارعون بجمع مياه الأمطار خاصّة بالمناطق الجافة في بالوعات أو خزانات طبيعية، واهتموا أيضا بجمع مياه الجداول الصغيرة ومياه الأمطار الرعدية المؤقتة بهدف استغلالها في الرّي بالأرياف ، حيث تقام هذه الخزانات أو الصهاريج أسفل المنحدرات الجبلية ثم توجه بعد ذلك إلى خزانات أوسع منها[300]، وهذه التقنية ابتكار مثالي لاستغلال مياه الأمطار التي يصعب التحكم فيها.

ومن جهة أخرى فقد شهدت الاكتشافات الأثرية على وجود العديد من الآبار التي تعود للفترة الرومانية خاصة شمال الأوراس والواحات الصحراوية التي اشتهرت بآبارها الارتوازية[301]، وتتميّز هذه الآبار بالدّقة العالية للتقنيات المعتمدة في إنشائها، كما أن عمقها الذي يتراوح بين(15 و40م) بمنطقة جنوب طرابلس على سبيل المثال يكرّس النظرية القائلة باستقرار المناخ خلال تلك الفترة [302]، وقد عثر بأفريقيا على العديد منها مثل بئر أم غموم

---

(296) *Du Coudray (La Blanchère),Op.Cit., p53.*

(297) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص211.

(298) *Gsell (S.) , **Atlas Archéologique de l'Algérie(A.A.A.)**,2éme édition, Agence Nationale d'Archéologie et de protection des sites et monuments historiques, Alger1997, , F°24, N°145.*

(299) *Ibid., F°25, N°75.*

(300) شنيتي (محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية...مرجع سابق، ص ص 109-110.

(301) *Birebent (J.),Op.Cit.,p121.*

(302) *Laronde(A.) ,Op.Cit., p129.*

(Oum Remoum) بناحية سطيف[303]، وبسداجة *(Sadadja)* وقصر بلقاسم[304] بمنطقة عين البيضاء (انظر أدناه الشكل(8) ص87).



الشكل (**8**): بئر من الفترة الرومانية

المصدر : *Birebent (J.), op. cit., p 206.*

(303) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°16, N°199.*
(304) *Ibid., F°28, N°72,267.*

III-1-2 قنوات التوزيع:

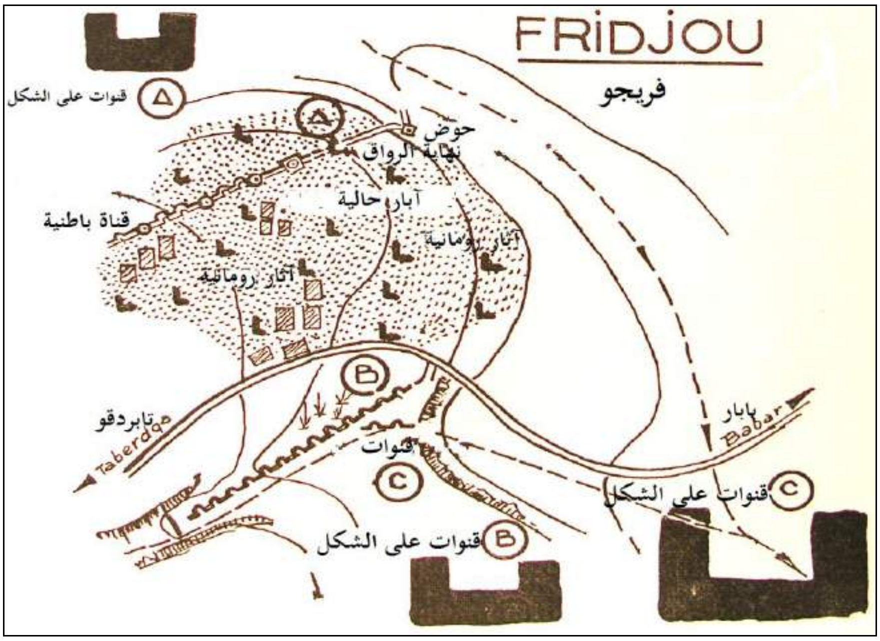
بالإضافة إلى المنشآت المخصصة لتخزين المياه، شيّدت منشآت أخرى توزع المياه على الأراضي الزراعية ، ويتعلق الأمر بالقنوات التي تنقل المياه من مصادر المياه مباشرة أو من خزانات الحفظ المشيّدة في الأماكن التي تشرف على الحقول والمزارع والتي يختار لها المزارعون أماكن مرتفعة تسمح بتوزيع مياهها، وترتبط هذه القنوات بصفة مباشرة بالرّي وهي ذات أحجام وأشكال متعدّدة ترتبط أساسا بطبيعة السطح وقوة تدفق المياه ، وقد درس بيربان عدة نماذج منها بالشرق الجزائري كقرية فريجو***(Fridjou)*** الواقعة جنوب سهل المحمل (خنشلة) التي اكتشف بها الباحث عدّة قنوات ري يختلف عرضها حسب الحاجة إلى المياه تستعمل لنقل مياه عين فريجو الى المزارع(انظر أدناه الشكل(9) ص89) .

والحقيقة أن مثل هذه القنوات النّاقلة منتشرة بكثرة في أفريقا الشّمالية وبعضها قنوات سطحية وأخري باطنية، والملاحظ أيضا أن ضفاف الأودية الداخلية تعتبر من أكثر المناطق التي عُثر بها على هذه المنشآت ، ولعل ذلك يعود إلى استغلال مياه الأودية بكثافة في هذه المناطق المعروفة بندرة التساقط وقلة مصادر المياه، وقد ودلّ الأطلس الأثري للجزائر على تواجد آثارها على ضفاف العديد من الأودية من بينها منطقة مستغانم التي عثر بها على قناة على مستوى الضفة اليمنى لوادي مينة تنقل المياه من سد مقام بهذا الوادي على مسافة 4 كلم لري الحقول[305]، وفي بوسعادة عثر على قناة مماثلة منطلقة من عين مزارزو***(Ain Mezarzou)*** بأولاد خالد على امتداد كيلومترين مخصصة للري[306] ...الخ ، و على مستوى وادي أغريب(*Ogrib*) الذي يقع على التخوم الصحراوية الجنوبية على بعد 15كم من خنقة سيدي ناجي(النمامشة) تظهر آثار هذه القنوات جلية (انظر أدناه الشكل(10) ص89) حيث تتفرع عدّة قنوات رئيسية وثانوية انطلاقا من هذا الوادي باتجاه الأراضي الزراعية لريها، كما تظهر آثار واضحة لسد أعلى الوادي تجمع به المياه لاستعمالها عند نقص منسوب

---

(305) *Gsell (St.) , A.A.A., F°21, N°37.*
(306) *Ibid., F°36, N°3.*

الوادي[307]، كما عرف عن مزارعي تلك المرحلة نقلهم لمياه هذه الأودية عبر قنوات باطنية إلى مناطق بعيدة وفي هذا الشأن وصف لنا بركوب المنشآت المنطلقة من وادي أبيغاس *(Abigas)* الذي ينبع من الأوراس فيحوّل المزارعون مياهه عبر قنوات باطنية إلى حقولهم ، وكانوا يسدّون القنوات بسدادات للتحكم في مياهه واستغلالها حسب حاجتهم إليها[308].



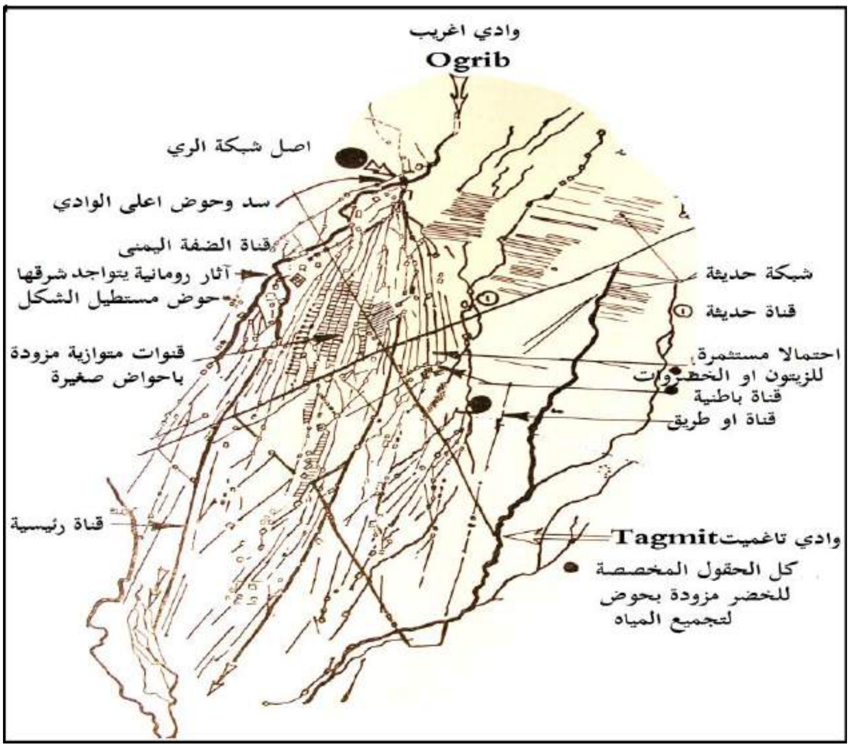
الشكل(9): نقل المياه عبر قنوات بقرية فريجو(خنشلة)

المصدر: *Birebent (J.), Op. Cit., p 81.*

---

(307) *Birebent (J.),Op.Cit.,pp92-94.*

(308) *Procope de Césarée ,II,19,12.*



الشكل(10): شبكة الري على وادي أغريب(*Ogrib*)

المصدر: *Birebent (J.), Op. Cit., p93.*

III-2 نظام الري في لامصبا (*Lamasba*)[309]:

يعتبر النّص الذي عُثر عليه في لامصبا النّص الوحيد الذي يعرفنا بنظام توزيع المياه بين المزارعين وبطريقة علمية وعادلة تسر الجميع، فما عدا نص بلين الذي اقرّ أن نظام توزيع المياه بين البساتين في واحة قابس (*Tacape*) تتم حسب عدد من الساعات[310] ، فانّه لا وجود لنص آخر غير هذا النّص ينبؤنا بهذا النوع من التقسيم وبهذا النوع من العلاقات بين المزارعين.

(309) لامصبا (*Lamasba*)هي مدينة مروانة حاليا أو مدينة (*Corneille*) خلال العهد الاستعماري الفرنسي.

(310) *Pline l'Ancien, XVIII, LI. 22.*

عثر على هذا النص عام 1877م من طرف ماسكوراي *(Masqueray)*[311] في خرائب لامصبا (انظر أدناه الشكل(11) ص93)، وتكمن أهمية هذا النّص في احتوائه على معلومات قيّمة ومتنوعة عن العمل الزراعي ، فقد ورد فيه أسماء الملاّك ومقدار مساحة الأرض وقيمتها، بالإضافة إلى المدّة الزمنية المخصصة للري لكل مالك ، وقد حدد هذا الوقت تحديدا دقيقا بداية بالتاريخ اليومي الذي يشرع فيه في عملية الرّي (بداية من 25سبتمبر) والفترة (ليلا أو نهارا) بالإضافة إلى عدد الساعات المخصصة للرّي لكل مزارع والتي حدّدت فترة بدايتها ونهايتها بصفة دقيقة (مثلا من الساعة الواحدة صباحا إلى الساعة الثالثة صباحا) [312].

ويظهر من خلال الأسطر الأولى لهذا النّص الذي نقش على لوح حجري أن الكولون ملاك هذه الأراضي التي تستفيد من الرّي لم يكونوا راضين من طريقة تقسيم المياه التي كانت سائدة من قبل تحت حكم إلاقابالوس(*Elagabalus* 218-222م) وبذلك يكونون قد كلفوا نائبين أو أكثر بصياغة نظام جديد يسود فيه العدل ويراعى فيه مقدار المساحة والموقع...الخ ، وقد أشار النص إلى أن من قام بصياغة هذا النظام هو فالنتينوس *(Valentinus)* ومساعده[313].

ونظرا للتساقط غير المنتظم في هذه المنطقة ، فانّ مزارعي لامصبا كانوا يمارسون "ريّا شتويا" قصد تجنب آثار ندرة الأمطار في مواسم الجفاف ، وقد أشارت النّقيشة بوضوح إلى أن موسم الرّي يُشرع فيه ابتداء من 25 سبتمبر إلى غاية أواخر شهر مارس على الأرجح لانّ الجزء السفلي من النّقيشة غير مكتمل [314]، وفترة الرّي هذه توحي إلى أن الزراعات الممارسة

---

[311] *Masqueray(E.) , 2éme rapport à M. le Général Chanzy gouverneur général de l'Algérie sur la mission dans le sud de la province de Constantine , R.Af. ,N°21, 1877, pp33-45.*

[312] *De Pachtre (F.G.), le règlement d'irrigation de Lamasba , in : M.A.H. ,T.28, 1908, p374.*

[313] *D.Shaw (Brent) , Lamasba; an ancient irrigation community, An.Af., T.18, 1982, p70.*

[314] *Pavis d'Escurac (H.), Op.Cit. , p182.*

هي زراعات شتوية مثل زراعة القمح والشعير بالإضافة إلى زراعة الزيتون الذي دلّ النص على زراعته وشهدت علية آثار المعاصر المكتشفة بالمنطقة.

أشار النّص إلى أن مصدر المياه هو مياه كلوديانا *(Aqua Claudiana)*، وهي على حد افتراض البعض قناة ناقلة[315] في حين اعتبرها آخرون سدا مزودا بشبكة من القنوات[316]، بينما رجّح شاو *(D.Shaw)* أن تكون عينا قريبة من المنطقة[317]، وفي هذا الإطار دائما تم العثور على قناة باطنية ناقلة للمياه خلال فترة الاحتلال الفرنسي بالمنطقة أثناء تشييد مدينة مروانة *(Corneille)*[318].

إن الأراضي المعنية بالرّي في لامصبا عبارة عن مدرجات*(Scalae)*، لذا كان ريّها يكتسي ميزة خاصة ؛ فالمياه تنقل من مدرج لآخر وفق مدّة زمنية محدّدة ، وكل المدرجات مزودة بقنوات وقد أشار النص إلى تخصيص ساعة كاملة حتى تمتلئ قبل الشروع في عملية الري[319]، وفي المنطقة العلوية لهذه المدرجات هناك سد موزع للمياه وفق نظامين: مياه صاعدة ومياه نازلة وفق مبدأ التناوب، فالمياه النازلة هي المياه التي تنزل مباشرة من السد عبر قنوات إلى الحقول لريها ، أما المياه الصاعدة حسب تفسير البعض فترفع إلى علو أعلى بواسطة آلة خاصة (ناعورة) ليعاد توزيعها على الحقول بعد ذلك[320]، غير أن هذه النظرية لم تلق ترحيبا عند الكثيرين، ويبدو أن تفسير دو باشتير *(De Pachtre)* [321] أكثر إقناعا ، حيث اعتبر أن فترة شهر كامل قد كانت مقسمة إلى أربع فترات؛ فترتان من عشرة أيام للمياه النازلة تتخللهما فترتان من خمسة أيام للمياه الصاعدة وهو ما أشار إليه النّص ، فالنّظام يبقي نفسه بينما منسوب المياه هو الذي يتغير بتغير الانحدار ، حيث أن منسوب المياه النازلة أعلى من منسوب المياه الصاعدة ولهذا جاءت الاختلافات واضحة في النص فيما يتعلق بمقدار الساعات

---

(315) *Birebent (J.),Op.Cit.,p400.*
(316) *De Pachtre (F.G.),Op.Cit., p383.*
(317) *D.Shaw (Brent) , Op.Cit., pp72-73.*
(318) *Birebent (J.),Op.Cit.,p390.*
(319) *De Pachtre (F.G.),Op.Cit., p379.*
(320) ***Corpus Inscriptionum Latinarum** (CIL.),Berlin,1881 , VIII, 4440,p956.*
(321) *De Pachtre (F.G.),Op.Cit., pp386-387.*

المخصصة للري رغم تقارب المساحة المزروعة، فماتيوس فورتيس ***(Mattius Fortis)*** مثلا خصّصت له أربع ساعات لري مساحة 308 *K* من المياه النازلة بينما دونتيليوس سينيكس ***(Dentilius Senex)*** خصصت له سبع ساعات لري مساحة مماثلة (300 *K*) من المياه الصاعدة[322].

تنبغي الإشارة إلى أن الأسماء الواردة في النّص كلّها أسماء رومانية وبعضها أسماء نساء وأربعة أسماء أخري لقدماء الجند، والملاحظ أيضا هو تقارب هذه الأسماء من بعضها البعض ما يوحي إلى أنه ربما تكون هذه الأراضي ملكيات متوارثة [323]، كما أن النّص عرّفنا بوحدة مساحية جديدة وهي المعبر عنها بحرف***(K)*** التي لم يتوصل الباحثون إلى تحديدها وقد تكون وحدة خاصة تعارف عليها مزارعو منطقة لامصبا.



---

[322] *Birebent (J.),Op.Cit., pp403-404.*
[323] *Pavis d'Escurac (H.), Op.Cit. , p184.*



الشكل(11): نظام الري في لامصبا *(Lamasba)*

المصدر: *Birebent (J.),Op.Cit.,p402.*

IV منظومة الاستغلال الزراعي:

عملت الإدارة الرومانية منذ البدايات الأولى على تهيئة ظروف ملائمة لاستغلال زراعي منتج بأفريقيا، فبالإضافة إلى حرصها على تقسيم الأراضي الأفريقية وتحديد صفتها القانونية؛ عملت على تنظيم هذه الملكيات داخليا وسعت لتحديد العلاقات بين الفئات المختلفة المستغلة لهذه المستثمرات الأفريقية كما دلّت على ذلك نصوص التشريعات الزراعية، وبمرور السنوات رسخت في الأراضي الأفريقية أنظمة استغلال متعددة كرست سياسة الحكام المرتكزة على تشجيع أنواع زراعية معينة وعلى تشجيع الملكيات الكبيرة المنتجة التي يسيطر عليها كبار الشخصيات الرومانية على حساب الملكيات الصغيرة التي تلاشى الكثير منها خصوصا خلال القرن الأول للميلاد، وقد كان لنصوص التشريعات الأفريقية الفضل في إمدادنا بالعديد من المعلومات حول منظومة الاستغلال الزراعي حيث عرفتنا بالموظفين المسيرين للملكيات الكبيرة ووضعية الكولون ونظام الملكية والاستغلال...الخ.

1-IV وسائل الإنتاج:

إن بلاد البربر كانت في كثير من أجزائها مهيأة للزراعة، فالرومان عند استقرارهم بشمال أفريقيا وجدوا قاعدة زراعية متينة وواضحة المعالم، وبإدخالهم لسياسات جديدة في هذا المجال ساهموا في إثرائها وتطويرها، ودون شك فانّ التوسّع الزراعي الذي حصل على عهدهم كان وراءه سياسة حكيمة في استغلال وسائل الإنتاج المتاحة بشكل يجعلها تستجيب للسياسة العامة المسطرة في هذا المجال، فلم يترك الرومان مقوما من مقومات الزراعة إلاّ واستغلوه أحسن استغلال خاصة الأرض الأفريقية الخصبة وطاقاتها البشرية التي تشكل المحرك الرئيسي للعمل الزراعي.

1-1-IV الأرض:

اجمع المؤرخون القدامى والمختصون في التاريخ القديم لأفريقيا الشّمالية على أن كل الشروط الضرورية لإقامة زراعة مثمرة وناجحة كانت متوفرة في أفريقيا خلال الفترة الرومانية؛

فالمناخ مماثل لما هو عليه اليوم[324] والتربة خصبة مشبعة بفوسفات الكلس تسمح للمحراث بشقها بكل سهولة ونعومة[325] رغم أن جوليان قد زعم جزافا بانّ البلدان التي استعمرها الرومان لم تكن خصبة في مجملها بسبب وجود طبقة من الكلس المستعصية على المحراث بالإضافة إلى الجفاف وهي عوامل حسبه تحول دون وفرة الإنتاج[326]، غير أن هذا الادّعاء لا يتماشى مع المصادر الأدبية ولا استنتاجات اغلب الباحثين ، فقد اعتبر رستوقتزف انّه من غير الممكن الحديث عن ضعف التربة في المقاطعات الرومانية ومنها أفريقيا ولا وجود لدليل يشير إلى إنهاك عام أصاب التربة كما يدعى البعض[327]، ولعل ما يمكن تسجيله في هذا الإطار هو أن مصادر القرن الرابع والخامس[328] قد تحدثت عن تدهور عرفته الزراعة وإهمال للأراضي نتيجة ثقل الضرائب وهذا الأمر دون شك يكون قد اثّر على خصوبة الأرض كنتيجة لإهمالها ، أما عدا ذلك فكل الدلائل تشير إلى الخصوبة الرائعة التي تتميز بها أفريقيا خلال تلك المرحلة حتى في مناطق هي اليوم مناطق قاحلة وجافة.

IV-1-2 أشكال الملكية :

زوّدنا قانون عام 111ق.م بمعلومات قيمة حول ما يتعلق بنظرة الإدارة الرومانية إلى الأرض الأفريقية وصفتها القانونية ، وقد حدّد هذا القانون أنواعا متعددة لملكية الأرض خلال القرن الأول قبل الميلاد؛ حيث أشار إلى الأراضي التي بيعت إلى الخواص ***(Ager privates jure quiritium)*** والأراضي المكنترة التي تسمح السلطة للأفراد باستغلالها مقابل دفع ضريبة عينية وعرفت بالأراضي العمومية ***(Ager publicus)***، بالإضافة إلى أراضي الستيينندياري ***(Stipendiarii)*** وهي الأراضي التي يدفع أصحابها ضريبة الرأس أو الجزية وهي نفس الأراضي التي توسع على حسابها الرومان فيما بعد، وقد أشار هذا القانون أيضا إلى نوعين آخرين ؛

---

(324) *Gsell(St.), H.A.A.N., T. I, pp51-52.*
(325) *Gsell(St.), l'Algérie dans l'antiquité…Op.Cit., pp67-68.*
(326) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق ، ص205.
(327) رستوقتزف(م.) ، مرجع سابق، ص445.
(328) *Code Théodosien ,XI,28 ,13.*

أراضي ورثة ماسينيسا وأراضي المدن السبع الحرة ***(Ager privatus jure peregrino)*** التي بقيت في أيدي مستغليها ولم تتدخل السلطات الرومانية لانتزاعها[329].

غير أن نظم الملكية في أفريقيا خلال القرن الثاني بالخصوص قد تغير مع تطور عملية التوسّع الإقليمي والزراعي وتبلورت الملكية في شكل خمسة أنواع[330]:

- أراضي الإمبراطور الخاصة: وتعرف عادة بالمراعي الملكية، وهي أراض مستقلة استقلالا تاما عن المدن وجهازها الإداري والضريبي.
- أراضي العائلات الارستقراطية: على رأسها عائلات الطبقة السيناتورية وتعرف هذه الأراضي بالمراعى الخاصة ***(Saltus privati)***، فحتى بعد مصادرة نيرون للكثير منها إلا انه قد بقي في أيدي هؤلاء العديد منها.
- أراضي المستعمرات ***(colonia)*** والبلديات ***(municipium)*** والمدن ***(civitas)***: وهي أقاليم المدن التي جسدت عليها مشاريع الاستيطان الروماني.
- أراضي العشائر ***(gens)***: بعضها تمت كنترته واستغلاله والبعض الآخر ترك كمراع لماشية الشعوب الأفريقية.
- أراضي مناطق التعدين والغابات: بعضها وُضع تحت سيطرة الأباطرة والبعض الآخر أُجّر إلى شركات خاصة.

إنّ الملاحظ عن الملكية خلال الفترة الرومانية هو السيطرة الكاملة على الأراضي الخصبة من قبل الإمبراطور والشخصيات المهمة كأعضاء مجلس الشيوخ الروماني وطبقة الفرسان الذين كانت ملكياتهم تضم مساحات شاسعة ، غير أن هذا لا ينفي وجود طبقة من الملاّك الرّيفيين الصغار الذين امتلكوا أراضي صغيرة المساحة ، وقد عرّفنا نص لامصبا في هذا الشأن

---

[329] *CIL,I,200.*

[330] رستوفتزف(م.)، مرجع سابق ، ص ص396-398.

بجزء من هذه الملكيات وطرق تقسيم المياه كما اخبرنا بتكتل هؤلاء في نقابات أو جمعيات*(pagus)* قصد الدفاع عن حقوقهم وتنظيم استغلالهم للأرض[331].

IV-1-3 نظام الاستغلال والإنتاج:

إن مظهر الملكيات الواسعة الذي ميّز أفريقيا خصوصا خلال القرن الأول قد صاحبه صعوبة في تسييرها ما جعل ملاّكها يلجؤون إلى زراعتها بالوكالة، حيث عادة ما يقومون بتأجيرها إلى الكولون أو يوكلون مهمة الإشراف عليها إلى مسيّرين مأجورين، والحقيقة أن هؤلاء الملاّك كانوا غير مرتبطين بالأرض واغلبهم يمتلك أراض غيرها بجهات أخري ، وقد كانوا يستأثرون بالحياة في المدن بينما يكلفون الملتزمين*(Conductor)* بتأجير الأرض للكولون لاستغلالها مقابل دفع حصة من الإنتاج إلى مالك الأرض، كما كان الكولون بدورهم يلتزمون بالعمل مجانا في الأراضي التي يستغلها الملتزمون أو الملاّك؛ يومان في الحرث ويومان في الحصاد ويومان في تنقية الزرع بالإضافة إلى الحراسة المجانية للدومان[332].

كان هذا النظام المذكور منتشرا خلال القرن الثاني، والفضل يعود لنص هنشير مطيّش ونص عين الجمالة اللذين زودانا بمعلومات حول العلاقات القائمة بين الملاّك والمستغلين الحقيقيين لهذه الأراضي، أما قبل هذه الفترة فلا تزال طريقة الاستغلال خلالها مبهمة رغم أن البعض قد افترض أن يكون هؤلاء الملاّك قد سخّروا العبيد للقيام بشؤون مستثمراتهم[333]، أما في أواخر عهد الإمبراطورية وتحديدا في نهاية القرن الرابع فقد ظهرت بوادر الاتجاه نحو نمط شبيه بالنظام الإقطاعي[334]، حيث تعاظمت سلطة السيد الإقطاعي *(Dominus)* الذي أصبح أكثر استقلالا في أرضه يمارس سلطته كما يريد ويغتصب حقوق الكولون وحقوق الدولة (الضرائب) في ظلّ غياب المراقبة المباشرة لها.

---

(331) *D'Escurac-Doisy Doublon (Henriette),Notes sur le phénomène associatif dans le monde paysan à l'époque du Haut-Empire, in : An.Af. , N°1, 1967, pp60-61.*
(332) *Cagnat(R.), Inscription d'Henchir-Mettich…Op.Cit., pp151-153.*
(333) رستوفتزف(م.)، مرجع سابق ، ص 397.
(334) محجوبي (ع.) ، مرجع سابق ، ص506.

IV–1–4 العمال والإدارة المسيرة:

حرص الإمبراطور وإدارته على تنظيم المستثمرات وتحديد المهام بين الموظفين، وقد كان هذا الجهاز معقدا يضمّ عدّة موظفين يتدرجون في المسؤولية والمهام وكلهم تابعون للديوان الإمبراطوري، يأتي في مقدمة هؤلاء الموظفين الوكيل المالي لإدارة أملاك الإمبراطور الشخصية(*Procurator*) والذي كان يقيم مع هيأته الإدارية في روما ، وهو موظف عالي الرتبة من طبقة الفرسان ويتولى بالأساس مهمة وضع القواعد التنظيمية وإصدار المذكرات التنفيذية(335)، كما كان لكلّ مقاطعة وكيلها المالي ينتمي هو الآخر إلى طبقة الفرسان يقيم بالمقاطعة التي عُيّن بها و يتولى مهمة مراقبة مقاطعته وتقديم توجيهات لوكلاء آخرين مرتبطين به، وكان هؤلاء مسؤولين مباشرة أمام الإمبراطور ويتمتعون باستقلالية كاملة عن حكّام المقاطعات(336)، وهناك وكلاء آخرين اقل درجة من سابقيهم ومرتبطين بهم يستقرون على أراضي الدومان يتولون مهمة المتابعة والمراقبة المباشرة للدومان ، ولهم صلاحية انتزاع الأراضي التي لم تزرع من طرف الكولون ويمكن لهم أن يستأثروا بجزء من الدومان لاستغلاله والاحتفاظ بنسبة من العائدات الضريبية(337)، كما أن لهم دور إبرام العقود مع الملتزمين أو المستأجرين (*Conductores*) وتولى دور المحكمين في المنازعات التي عادة ما تقوم بين الملتزمين والكولون إضافة إلى دورهم الأساسي في التأكيد على تحصيل العائدات المستحقة كاملة(338).

أمّا الملتزمون أو المستأجرون(*Conductores*) فهم مستثمرون من الطبقة الارستقراطية الذين يتمتعون بالنفوذ، وقد تكون لهم ملكيات بالإضافة إلى استئجارهم للمستثمرات الإمبراطورية، فقد كانوا يسعون بشتى الطرق لزيادة ثرواتهم وبسط سلطتهم، والأرجح أن هؤلاء

---

(335) محجوبي (ع.) ، مرجع سابق ، ص496.

(336) تشارلز ورث (أ.ب)، **الإمبراطورية الرومانية**، ترجمة رمزي عبده جرجس، مراجعة محمد صقر خفاجة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1999م، ص92.

(337) *Peyras (J.), Le Fundus Aufidianus : étude d'un grand domaine de la region de Mateur (Tunisie du Nord), in : An.Af., N°9, 1975, pp210-211.*

(338) محجوبي (ع.) ، مرجع سابق ، ص496.

قد استخدموا العبيد في زراعة هذه الأراضي إضافة إلى استعانتهم بالأجراء واستغلالهم للرخصة التي منحها لهم قانون مانكيانا أي توظيف الكولون في العمل القسري(*operae*)[339].

إضافة إلى هؤلاء هناك فئة أخرى من العمال الذين لهم علاقة بتسيير هذه المستثمرات وهم عمال بسطاء مقارنة بسابقيهم ، فقد دلّت النصوص على وجود عمال مكتبيين(*Tabularii*) وأعوانهم بالإضافة إلى محررين(*Libra notarii*) يسجلون المكاييل والأوزان ومنادون عموميون (*Praecones*) يتولون مهمة الإعلام داخل المستثمرات وعمال مساحة يحدّدون الحصص الواجب زراعتها، بالإضافة إلى مرافقين (*pedisqui*) لكبار المسيّرين و أطباء(*Medici*) يجمعون بين الطب البشري والبيطري[340].

وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء يشكلون الجهاز المسير لهذه المستثمرات ، لكن الذين يقومون بالعمل الفعلي داخل هذه المستثمرات هم مجموعة من العمال الذين تتعدد صفتهم ووظائفهم ، وقد ابرز لاكروا في دراسته[341] مجموعة العمال القائمين على العمل الزراعي بأفريقيا ؛ من بينهم الجنود وقدماء الجنود الذين مُنحت لهم أراضي لاستغلالها ويعفون من الضرائب، وقد وصلتنا العديد من الأخبار التي تدلّ على تجنيدهم في عملية استصلاح الأراضي وتنظيمها وتجفيف المستنقعات، بالإضافة إلى السكان الأهالي الذين كان لهم دور كبير في التقدم الزراعي في المناطق الجنوبية والمناطق الجبلية ، وهناك أيضا العبيد الذين استغلهم الملاّك للقيام بالأعمال الزراعية الشّاقة ويعملون دون توقف تحت الرقابة الشديدة للمالك ، وفي الأخير هناك الكولون الذين هم مواطنون أحرار يستأجرون الأرض لزراعتها ويدفعون الضرائب[342]، وكان لبعض الكولون ملكياتهم الخاصة في بعض المناطق مثلما رأيناه في لامصبا.

(339) رستوقتزف(م.)، مرجع سابق ، ص 397.

(340) عقون (العربي)، الاقتصاد والمجتمع ...مرجع سابق، ص90.

(341) *Lacroix (F.), Afrique Ancienne ,R.Af , volume14, 1870 , pp22-30.*

(342) *Carton (Dr.), la lex Hadriana…Op.Cit., pp16-17.*

IV–2 المستثمرات الزراعية:

لقد تعددت التّسميات التي تطلق على المستثمرات الزراعية الواسعة خلال الفترة الرومانية، مع أن "الدومان" قد مثل المصطلح العام الذي يطلق على هذه الأراضي سواء كان دومانا عموميا أو خاصا والذي كان يقصد به في عموم الإمبراطورية في اغلب الأحيان اللاتيفونديا ، أما في أفريقيا فيقصد به أكثر السالتوس ، وقد كان الأباطرة خصوصا اليوليين والكلوديين والفلافيين والأنطونيين أكثر الأشخاص سيطرة على هذه المستثمرات التي صورتها لنا الفسيفساء الأفريقية أحسن تصوير، حيث تظهر بوضوح مشاهد متعددة تدور حول عملية الاستغلال الزراعي المقام على مستوي هذه الملكيات من حرث وجني للزيتون ورعي وصيد...الخ ، كما صوّرت لنا في بعض الأحيان إقامة السيد المالك (انظر أدناه الشكل (12) ص106والشكل (13) ص107).

IV–2–1 السالتوس (*Saltus*) :

يطلق مصطلح سالتوس على الأراضي الغابية والرعوية والبراري، كما يطلق في بعض الأحيان على الأراضي المزروعة ، والسالتوس نوعان : مرعى صيفي(*Aestivi Saltus*) ومرعى شتوي(*Liberni Saltus*)[343]، وتتواجد هذه السالتي خارج المدن وتعود ملكية بعضها إلى الطبقة السيناتورية أما الباقي فهو عبارة عن دومان إمبراطوري عمومي[344]. تقع أراضي السالتوس خارج الأراضي الزراعية المكنترة وقد تكون عملية الكنترة امتدت إليها فيما بعد خصوصا بعد استصلاح أجزاء كبيرة منها على فترات متعددة وتحويلها إلى أراضي زراعية مختصة في إنتاج الكروم والزيتون كما دلّ على ذلك نص هنشير مطيّش.

ويقطن على مستوى السالتي البعيدة عن التجمعات السكانية الحضرية والقروية السكان الرعاة خاصة، ولعل هؤلاء السكان قد نزحوا إلى هذه الأراضي بعد انتزاع ملكياتهم

---

(343) *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R. ,T.I, p126.*

(344) *Beaudouin (Edouard), **les grands domaines dans l'Empire Romain D'après des travaux récents** , Librairie de la société du recueil général des lois et des arrèts , Paris 1899, pp 9-10.*

أين قاموا باستصلاح أجزاء منها وتخصيص المساحات الباقية للرعي والصيد[345]، ومن جهة أخرى إذا قمنا بمقارنة هذا المصطلح مع التّسميات الأخرى التي أطلقت على المستثمرات الزراعية نستنتج انّه عكس الفندس الذي يعنى الأراضي الزراعية المكنترة.

إنّ الملاحظ هو أن هذا الاسم أكثر الأسماء انتشارا في أفريقيا ما جعل البعض يعلق بأن "أفريقيا هي بامتياز الأرض الكلاسيكية للسالتي" [346]، ولا ينبغي أن نفهم من ذلك أنّ أفريقيا كلها أراضي رعوية وبراري كما تدل على ذلك التسمية ، وكل ما في الأمر أنّ هذه الأراضي قد حافظت على تسميتها الأولى(سالتوس) بعد تهيئتها بموجب سياسة التوسّع الزراعي التي انتهجها الأباطرة والمزارعون ، فتحولت بذلك إلى أراضي زراعية اكتسحتها زراعة الكروم والزياتين ، ومن جهة أخرى فقد سجّل اغزال أنّ النّصوص الأفريقية المنقوشة بعد وفاة تراجان(*Trajan*)(98م-117م) تظهر بانّ مصطلح سالتوس لم يعد يدلّ على الملكيات الكبيرة العمومية وإنّما تغير مفهومها فأصبحت تعني فرع إداري ريفي أو زراعي(*Circonscription domaniale*)[347].

احتفظت النّصوص بالعديد من أسماء السالتي الأفريقية ؛ فقد كشف كاركوبينو الغطاء عن بعضها ونقصد تلك السالتي الواقعة بين وادي مجردة ووادي خلاد بمقاطعة البروقنصلية وكلها تنتمي إلى تراكتوس قرطاج (*Tractus Carthaginiensis*) (التسميات والموقع ،انظر أدناه الخريطة(8) ص 105)، وهناك عدد آخر من السالتي التي تعود ملكيتها إلى خواص مثل سالتوس ل.أفريكانوس(*Saltus L.Africanus*) وسالتوس فاليريا أتيكيلا (*Saltus Valeria Atticilla*)[348] ، وسالتوس باغاتونسيس(*Saltus Bagatensis*)[349] بمنطقة الهرية بقسنطينة

---

[345] عقون (محمد العربي) ، الاقتصاد والمجتمع ...مرجع سابق ، ص89.

[346] *Beaudouin (Edouard),Op.Cit., p9.*

[347] *Gsell (St.), **Inscriptions Latines de l'Algérie** ,T.I, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris 1922, p393.*

[348] *Picard (G.Ch-.), La civilisation de l'Afrique Romaine…Op.Cit., p61.*

[349] *Gsell (St.) , A.A.A. , F°18, N°158.*

وسالتوس باراتيانونسيس(*Saltus Paratianensis*)[(350)] بمنطقة عنابة وسالتوس هورويوروم(*Saltus Horreorum*)[(351)] بعين زادة بسطيف وسالتوس سوروثينسيس(*Saltus Sorothensis*)[(352)] بسوق اهراس...الخ.

IV-2-2 اللاّتيفونديا ***(Latifundia)***:

اللاّتيفونديا هي ملكية زراعية كبيرة، وهي عبارة عن فندس أو عدد من الفوندي العمومية أو الخاصّة التي تفوق مساحتها الوحدة الزراعية بقليل، واللاّتيفونديا اسم يعني "الأرض المحدودة" في البداية ، غير انّه لم يعد كذلك خاصة خلال العهد الإمبراطوري أين عرفت المستثمرات الايطالية والأفريقية على حد سواء نموا كبيرا ، تغيّر مفهومها إلى الملكيات الواسعة بعد التهامها لأراضي صغار الملاّك[(353)]، وفي هذا الشأن اخبرنا فارون أن الملاّك الكبار يمتلكون مستثمرات واسعة جدا لدرجة أنّهم لا يستطيعون التجول فيها وتتبع حدودها حتى ولو ركبوا على حصان[(354)]، وقد عرفت أفريقيا بهذه المستثمرات الواسعة فقد كانت "بلاد اللاّتيفونديا" على حد تعبير البعض[(355)] التي سيطر على اغلبها أعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة.

ظهرت اللاّتيفونديا خلال عهد الجمهورية ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد، و خلال عهد الإمبراطورية تطورت وزاد عددها بعد اعتداء كبار الملاّك على ملكيات صغار الملاّك فانتزعوها بموجب حق الفتح وضموها إلى ملكياتهم الخاصة، يمتلك اللاّتيفونديا عائلة ريفية ***(familia rustica)*** ويقوم بالأشغال فيها عدد من العبيد***(servi rustici)*** تحت إدارة

---

(350) *Gsell (St.), F°9, N°4.*
(351) *Ibid., A.A.A. , F°16, N°319.*
(352) *Ibid., F°18, N°454.*

(353) عقون (العربي) ، الاقتصاد والمجتمع ...مرجع سابق ، ص ص 86-87.

(354) *Varron , **l'économie rurale** , traduit par M.X. Rousselot, C.L.F.Panckoucke , Paris 1843, I,17.*

(355) *Leveau (Ph.), la situation colonial de l'Afrique Romaine, in: E.S.C.,33^éme^ Année, N°1, 1978, p90.*

الفيليكوس *(vilicus)* الذي هو في الأصل من العبيد ويكون تحت إمرته جميع عبيد اللاّتيفونديا[356].

بالإضافة إلى جشع الطبقة الارستقراطية التي ساهمت في نمو هذه المستثمرات وزيادة عددها، يرى كولوندو أن اتّساعها مرتبط بسهولة إيجاد اليد العاملة الزراعية التي تعّج بها الأرياف الأفريقية [357]، ومن جهة أخرى يري بلين أن هذه الملكيات الواسعة هي التي تسببت في دمار ايطاليا وباقي المقاطعات الرومانية، والسبب في ذلك هو وقوعها في أيدي ملاّك غير متخصصين أو غير مهتمين بالعمل الزراعي، وكان ماغون قبله قد نصح الذين اشتروا أراضي بالأرياف أن يبيعوا منازلهم بالمدن حتى يتفرغوا للاهتمام بمستثمراتهم[358].

IV-2-3 الفندس *(Fundus)*:

حسب القانون الروماني فانّ الفندس هو كل ملكية عقارية تحتوي على أراضي أو مساكن، وفي بعض الأحيان يقصد به الدومان أو مجموعة مشكلة من أراضي ومنشآت ، من جهة أخري يمكن أن تطلق هذه التّسمية على الحقول الصغيرة ذات الحدود المعلومة ، ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية قد ظهرت أثناء القيام بعملية المسح[359]، والفندس نوعان : فوندي إمبراطورية *(Fundi patrimoniales)* وأخري خاصة، ولا يعتبر الفندس إقليما إداريا وإنّما هو مستثمرة فلاحية كبري تمتلكها العائلات البرجوازية[360].

وفيما يتعلق بتركيبة الفوندي فقد ابرز بايراس*(Payras J.)* في دراسته لفندس أوفيديانوس *(Aufidianus)* بجهة ماطر أنّه يحتوى على منطقة بها سكن المالك والمزارع*(colonicae)* الخاصة بالكولون وهي وحدات مكنترة ، بالإضافة إلى الأراضي المهملة

---

(356) *L'agriculture romaine: les Latifundia, voir le site : http://www. civilisation -romaine.com/la-vie-economique/l-agriculture-romaine-les-latifundia.*

(357) *Kolendo(J.),Op.Cit.,p75.*

(358) *Pline l'Ancien, XVIII , VII,6.*

(359) *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R. ,T.II,volume2,pp1366-1367.*

(360) عقون(محمد العربي)، **من التاريخ البلدي للجزائر خلال العهد الإمبراطوري الأول: الاتحاد السيرتي، دراسة في تاريخ وأثار ونظم سيرتا العتيقة**، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة2004-2005م، ص334.

المحيطة بحدود الفندس التي استغل بعضها الكولون[361]، وقد أوضحت ألواح ألبيرتيني أنّ الدومان الكبير الذي يقع على الحدود الجزائرية التونسية شرق مدينة تبسة والذي يعود إلى شخص يدعى فلافيوس جومنيوس كاتولينوس ***(Flavius Geminius Catullinus)*** يحتوي على الأقل أربعة فوندي مقسمة هي الأخرى إلى عدد من الحصص من بينها فندس توليتييانوس***(Fundus Tuletianos)*** الذي قُسّم على الأقل إلى خمسين قطعة[362]، و بمنطقة مليانة عثر على فندس قايوناتيس(*Fundus Gaionatis*)[363].

IV–2–4 البرايديا ***(Praedia)***:

البرايديا هو مصطلح عام يقصد به في القانون الروماني كل ما يتعلق بالأرض أو العقار ونستطيع تمييز الأنواع التالية[364]:

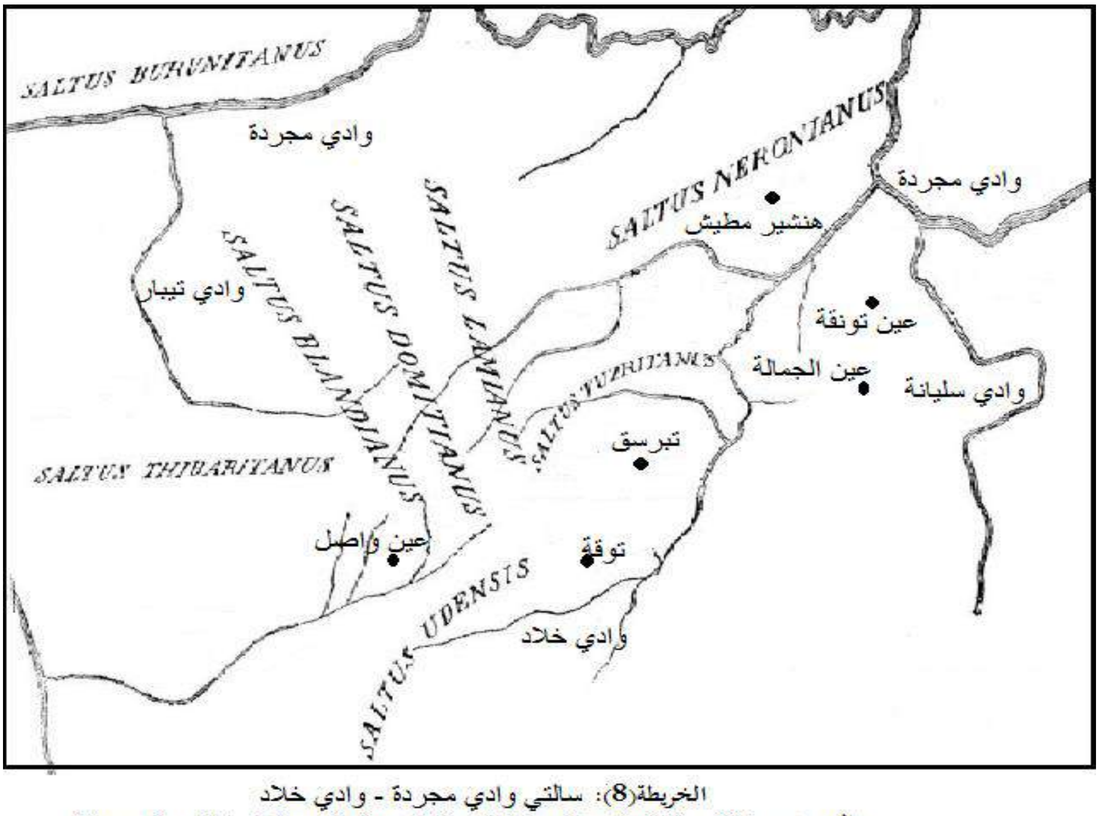
- برايديا المقاطعة ***(Praedia provincialia)***: وهي أجزاء من إقليم المقاطعة لم تضم إلى الدومان العمومي وهي ملك للشعب الروماني.
- البرايديا المرهونة ***(Praedia subdita)*: هي الأرض المخصصة لضمان الدولة أو البلدية من المدانين أو رجال الأعمال.**
- البرايديا الممهورة ***(Praedia dotale)*: تطلق التّسمية على الأرض التي لا يمكن أن يتصرف فيها الزوج دون موافقة زوجته.**
- برايديا حضرية ***(Praedia urbana)*: عينها القانون المدني نظرا لموقعها ، فأصحابها هم الأوائل الذين شيّدوا منازل بالمدن والذين يحوزون على الاعتماد، وعكسها برايديا ريفية(*Praedia rustica*).**
- برايديا اليتامى ***(Praedium pupillare)*: حقوق القصّر اليتامى التي يمنع التّصرف فيها دون موافقة حاكم المقاطعة.**

---

(361) *Payras (J.), Le Fundus Aufidianus…Op.Cit.,pp206-207.*
(362) *Picard (G.Ch-.), La civilisation de l'Afrique Romaine…Op.Cit., p63.*
(363) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°13, N°34.*
(364) *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R. ,T.IV,volume1,p611.*

- برايديا عمومية **(*Praedia publica*):** تطلق التسمية في بعض الحالات على الملكيات الإمبراطورية العمومية.

ويبدو أن مصطلح برايديا في أفريقيا قليل الاستعمال ، وهذا ما يفسر لنا شح النّصوص التي تشير إلى هذا النوع من الأراضي ، وقد أشار اغزال إلى إحداها بجهة تبسة وهي برايديا يوليانا **(*Praedia Iuliana*)**[365] ، وبرايديا بمنطقة هنشير كملال **(*kamellal*)** بعين البيضاء لم يعرف صاحبها[366]، كما أشار الدكتور كارتون **(*Dr.Carton*)** إلى برايديا بولاينوروم **(*Praedia pullaenorum*)** بمنطقة هنشير الشّط (تونس) التي بها آثار معاصر وبقايا قناة تجلب المياه من عين قريبة من هذه المستثمرة إلى خزانات متواجدة بها ما يدلّ على أنّها كانت مخصصة لزراعة الزيتون[367].



الخريطة(8): سالتي وادي مجردة - وادي خلاد
المصدر: *Carcopino (J.), L'inscription d'Ain-el-Djemala...Op.Cit.,p427.*

(365) *Gsell (St.) , Inscriptions Latines de l'Algérie ,T.I , p367.*
(366) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°28, N°163.*
(367) *Carton (Dr.), la lex Hadriana…Op.Cit., p13.*

IV–2–5 الفيللا روستيكا (*Villa Rustica*) :

إن مصطلح فيللا (*Villa*) مشتق من نفس جذر مصطلح (*Vicus*) وفيللا يعني إقامة أو منزل لكن استعماله عادة ما يقصد به المنازل التي بالحقول البعيدة عن المدن ، أما مصطلح فيللا ريفية (*Villa Rustica*) فيقصد به المزارع الرّيفية التي بها إقامات وبها منشآت ذات علاقة بالعمل الزراعي وعكسها فيللا حضرية (*Villa urbana*)(368)، فهي على العموم الجزء من الدومان الذي به منزل مالك المزرعة (369).

إن هذا النوع من المستثمرات الزراعية ظهر بايطاليا خلال القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية ثم انتشر بعد ذلك في كامل أرجاء الإمبراطورية، ففي المقاطعات كانت ملكية الفيللا المحيطة بالمستعمرات ملكا لوجهاء المدينة أو قدماء الجند أو العناصر المترو منة وكان نواب مجلس الشيوخ يسيطرون على الكثير منها، تشيد الإقامة في الغالب على ربوة تحيط بها أراضي متنوعة الاستغلال : بعضها مخصص لزراعة الزيتون والكروم وبعضها لزراعة الحبوب والخضروات والبعض الآخر حديقة بالقرب من الإقامة ، بالإضافة إلى أجزاء غابية ومراعي، كما يحرص أصحاب هذه المستثمرات على اختيار موقعها حيث يحرصون على إقامتها بالقرب من الأودية ومصادر المياه الأخرى(370).

---

(368) *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R. ,T. V, p870.*

(369) *Robert (Estienne) ,**Dictionarum Latinogallicum**, 1522, version électronique, www.ebooksfrance.com., p3749.*

(370) *El Bouzidi (Said), La conception de la villa rustica chez Caton, entreprise agricole où simple ferme rurale ?, Gérion, N°21, Année 2003, pp183-184.*



الشكل(12): فسيفساء *Bacchus* (**الجم القرن الثالث**) **تبرز استغلال المستثمرات.**



الشكل(13): بيت السيد المالك(القرن الرابع *Tabraca*)

V الضرائب الزراعية:

لم يكن إخضاع قرطاج من طرف الرومان رغبة منهم في درأ الخطر الذي تشكله هذه الأخيرة على حوض المتوسط فقط ، بل ما شغل بال الطبقة الحاكمة والارستقراطية والسيناتورية الرومانية هي الخيرات التي تتمتّع بها أفريقيا على اختلاف أنواعها ، فقد صبّت تصريحات الشخصيات الرومانية في تلك المرحلة في هذا الاتجاه؛ فبالإضافة إلى تصريح كاتون المشهور أمام مجلس الشيوخ الروماني[371]، صرح يوليوس قيصر(*Jules César*) هو الآخر أثناء احتفاله باحتلاله لنوميديا بأنّه قد أتي ببلد يستطيع أن يزوّد روما بمقدار 840000 قنطارا من القمح كمقدار ضريبي سنوي من هذه المادة[372]، وقد بدأت السياسة الضريبية الرومانية تتبلور مباشرة مع سقوط قرطاج ، حيث سارع الحكام الرومان إلى إخضاع الأفارقة إلى ضريبة الغزو (*tributum per capita*) وهي ضريبة الرأس أو الجزية عند المسلمين ، كما أخضعوهم أيضا إلى ضريبة أخري هي ضريبة الستيبونديوم (*Stipendium*) التي تدفع إمّا عينا أو نقدا[373] ، من جهة أخرى أعفيت المدن الحرة من دفع الضرائب تكريما لها على موقفها من الغزو الروماني كما أشار إلى ذلك القانون الزراعي لعام111ق.م[374].

لقد تعددت أشكال الضرائب الرومانية وشملت مختلف الجوانب الاقتصادية، وقد كانت ذات تأثير كبير على الأفراد خصوصا المزارعين منهم الذين عانوا كثيرا من ثقل الضرائب المفروضة على الإنتاج الزراعي، والملاحظ أن الضرائب الرومانية مقارنة بالشعوب الأخرى قد كانت ذات تأثير مباشر وتُحصّل الدولة منها دخلا كبيرا نظرا للامتداد الواسع للإمبراطورية الرومانية وتعدد السكان والأجناس الخاضعة لها[375]، وقد كانت ضريبة التموين السنوي (*Annonae*) [376]من أهم هذه الضرائب ثم تأتي بقية الضرائب الأخرى كضريبة الرأس وضريبة

---

(371) *Pline l'Ancien , XV ,XX .*

(372) *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit.,pp 69-70.*

(373) *Fournier De Flaix(E.), **l'impôt dans les diverses civilisations** ,T.I, Librairie de la société du recueil général des lois et des arrèts , Paris 1897, p182.*

(374) *CIL,I,200.*

(375) *Fournier De Flaix(E.),Op.Cit.,p143.*

(376) الأنونة (*Annonae*) أو (*Annona Civica*) : يقصد بهذا المصطلح في معناه الواسع مجموعة الوسائل المخصصة خلال العهد الإمبراطوري المتأخر(*Bas-Empire*) لتموين عاصمتي الإمبراطورية الرومانية (روما

النقل وصيانة الطرق...الخ، ومادام موضوعنا يختص في الزراعة فسنكتفي بالضرائب المتعلقة بالزراعة المفروضة على الأرض والإنتاج .

v-1 أنواع الضرائب الزراعية:

نستطيع تقسيم هذه الضرائب إلى نوعين رئيسيين؛ ضرائب متعلقة بالأرض باعتبارها المجال الذي تمارس فيه الأنشطة الزراعية، بالإضافة إلى الضرائب المتعلقة بالإنتاج الزراعي التي تستخلص من المزارعين بعد نهاية عملية الحصاد أو جمع المحصول.

v-1-1 الضريبة على الأرض:

سبق وان اشرنا إلى أن الضرائب كانت من أهم الأهداف التي رمت إليها الإدارة الرومانية أثناء قيامها بعملية الكنترة ، فقد كان هدفها إحصاء الأراضي والممتلكات وحتى الأفراد لفرض ضرائب عليها، وقد حرص الرومان بعد كل عملية مسح وتوزيع للأراضي على فرض ضريبة على مستغليها تعرف ب(*triburum ex censu*) [377]، لقد اشتهرت بأفريقيا الإصلاحات التي أجراها سمبرونيوس قراكوس (*Ti.Sempronius Gracchus*) ابتداء من سنة 133 ق.م ، وقد مسّت هذه الإصلاحات نظام توزيع الأراضي واستطاع قراكوس إقناع مجلس الشيوخ بالمصادقة على قانون سمبرونيوس الذي يقضي بتحديد الحد الأعلى الذي يمكن أن تحوزه عائلة معينة ب250 هكتارا ويقضي أيضا بتوزيع الأراضي ذات السبعة هكتارات ونصف على المواطنين الفقراء ، ومن جهة أخرى نص القانون على تشكيل لجان ثلاثية مكلفة بتوزيع الأراضي وحسم الخلافات بين المتنازعين[378]، لكن هذه الإصلاحات لم تدم طويلا ، حيث سرعان ما صفاها مجلس الشيوخ ، وكان من نتائج ذلك كله صدور قانون زراعي في

والقسطنطينية) بالمواد الغذائية مجانا أو بأسعار منخفضة توزع على عامة السكان الفقراء أو إلى أفراد معينين ذوي امتيازات، وهذه المواد الغذائية عبارة عن ضرائب عينية (القمح والزيت على الخصوص) تدفعها بعض المقاطعات على رأسها أفريقيا، وقد حرص الأباطرة على تنظيمها بدقة نظرا لأهميتها السياسية، انظر: *Saglio(E.)et Daremberg(Ch.) ,D.A.G.R.,T.I,pp278-279.*

[377] *Fournier De Flaix(E.),Op.Cit.,p182.*

[378] جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق ، ص ص150-151.

سنة111 ق.م الذي بين الصفة القانونية للأرض و النظم الجديدة لامتلاك الأرض في عموم الإمبراطورية ومنها أفريقيا ، وقد تحدث هذا القانون عن نوع من الأراضي أطلق عليها اسم الأراضي الخاصة الخراجية ***(Ager privatus vectigalisque)*** وهي أراضي بيعت إلى كبار الشخصيات الرومانية شرط أن يدفعوا بانتظام إلى الدولة ضريبة ***(Vectigal)*** [379]، وقد تكون هذه هي الطريقة التي وقعت فيها الأراضي الأفريقية في قبضة الطبقة الارستقراطية.

ومن أهم القوانين التي دلّتنا على الوضعية الضريبية للأرض ، قانونان يعودان إلى فترة حكم الإمبراطور هونوريوس***(Honorius)***(395م-423م) ؛ فالقانون الأول الذي يعود لعام 412 م يمنع إرغام الملاّك الأفارقة على دفع غرامة على الأراضي المهملة التي تقع بالقرب من أملاكهم[380]، وبعدها بعشر سنوات صدر عن نفس الإمبراطور قانون يتعلق بمقاطعتي البروقنصلية والمزاق موجه إلى فونانتييوس ***(Venantius)*** المشرف على إدارة الدومان الإمبراطوري، وأهمية هذا النّص تكمن في انّه يعرفنا بوضعية الأرض خلال المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية ويقدم لنا إحصائيات عن الأراضي التي تدفع الضرائب (المستغلة) والأراضي المعفاة(المهملة) كما هو موضح في الجدول أدناه [381]:

المقاطعة	عدد الوحدات الكنتورية	مساحتها باليوقيرا	مساحتها بالكلم^2	وضعيتها الضريبية
البروقنصلية	9002	141	4551	معفاة
	5700	141.5	2881	تدفع
المزاق	7460	180	3771	معفاة
	7615	183.5	3849	تدفع

(379) رستوفتزف(م.)، مرجع سابق ، ص ص284-285.

(380) Code Théodosien , XI, 31.

(381) Code Théodosien , XI, 28 ,13.

V-1-1 الضريبة على الإنتاج الزراعي:

دل نص هنشير مطيّش[382] دلالة صريحة عن الأقساط الضريبية التي يلزم على الملاّك أو الكراة أو الملتزمين دفعها إلى الوكيل ، وشملت هذه الأقساط العديد من المنتوجات الزراعية و هي مستوحاة من قانون مانكيانا وهي كالآتي:

- **القمح والشّعير**: يُدفع عنها الثلث من الإنتاج، وقد عُثر في هذا الشّأن على نص شمال المدينة الرومانية باناسا(*Banasa*) يعود احتمالا إلى سنة216 م على عهد الإمبراطور كراكالا(*Caracalla*)(198م-217م) ينص على إخضاع هذه المنطقة المشهورة بإنتاجها للقمح إلى ضريبة نقدية أو عينية تدفع عن هذا المنتوج[383]، والمعروف انّه يدفع عن القمح العشر خلال الفترة الرومانية ، وفي بعض الجهات حسب كاركوبينو قد تم تضعيف العشر (أي 10/2) منها موريتانيا القيصرية والطنجية اللّتان تكونان قد أُخضعتا لهذه الضريبة[384].
- **الزيتون**: يدفع عنه الثلث بعد عملية العصر، ويعفى الذي يغرس زيتونا جديدا من الدفع لمدة عشر سنوات.
- **الكروم**: يؤخذ الثلث عن الخمر بعد عصر الكروم ، بينما يعفى صاحبها من الدفع إذا كانت مدة غرسها لم تتجاوز الخمس سنوات.
- **التين**: يدفع عنه الثلث، حيث يحتفظ الكولون بجزء منه ويتركون الباقي للمسيرين أو المستأجرين ، ويعفى أصحابها من الدفع إذا كانت مدة غرسها لم تتجاوز الخمس سنوات.
- **الفول**: يدفع عنه الربع وربما الخمس من المحصول.

---

(382) *Cagnat (R.), inscription d'Henchir-Mettich…Op.Cit., pp151-153.*

(383) *Thouvenot (R.), une remise d'impôts en 216 ap.J-C., in: C.R.A.I., 90 éme Année, N°4, 1946, pp549-550.*

(384) *Picard (G.Ch-.), Néron et le blé d'Afrique, in :C.R.A.I.,100éme Année, N°1, 1956,p72.*

وقد أشار نص هنشير مطيّش أيضا إلى العسل الذي يؤخذ عنه ربع لتر ، وعلى الذي يملك أكثر من خمس قفيرات(*ruches*) أن يُسلم للمكلف ما يطلبه منه وقد سمح القانون أيضا بمصادرة القفيرات التي يخفيها صاحبها، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأقساط التي تدفع عن هذه المنتوجات الزراعية هي أقساط ثابتة لا يعفى منها إلا من قام بغرس أشجار جديدة على الأراضي المهملة أو الأراضي البور بعد استصلاحها ولمدة محددة فقط تتراوح بين (5 و 10سنوات) ، وبعد انقضاء هذه المدة فانّ الكولون ملزمون بدفع الأقساط المستحقة وفق قانون مانكيانا، كما أنّ الكولون ملزمون أيضا بالقيام بأعمال السخرة في أراضي الدومان لصالح الملاك.

2-V تحصيل الضرائب:

عند الاحتلال قامت السلطات الرومانية بتكليف حاكم المقاطعة الأفريقية بمهمة جباية الضرائب، ومع زيادة التوسّع الروماني في المنطقة أضحى من المستحيل على حاكم المقاطعة وأعوانه القيام بهذه المهمة الشّاقة لوحدهم فعمدت السلطة إلى منح حق جباية الضرائب المباشرة (ضريبة الرأس وضريبة الأرض) إلى شركات من الجباة الملتزمين (***Publicani***) التي يدير شؤونها أفراد رومان في القرى والمدن على حد سواء ، ومع مرور الوقت ظهرت عيوب هذا النظام حيث سيطر هؤلاء الجباة على العائدات وكانوا يحولون جزءا هاما منها إلى حسابهم الشخصي في ظلّ غياب آليات الرقابة، وبذلك سارع الأباطرة ابتداء من عهد يوليوس قيصر والإمبراطورين أغسطس وتيبيريوس اللذين سارا على نهجه إلى إلغاء هذا النظام الذي تسبّب في نضوب موارد الدولة وتحميل البسطاء ضرائب لا تطاق [385]، وهكذا اختفت هذه الشركات تدريجيا من أفريقيا وتم تعويضها بنظام جديد يقوم على تكليف مجالس البلديات وممثلي الخزينة العمومية بهذه المهمة، ولم يسلم الأفارقة أيضا من جور الموظفين المكلفين بجمع الضرائب فقد أشار قانون عام 386م إلى التجاوزات التي يرتكبها هؤلاء في حق السكان، ولهذا أمر القانون ألاّ يبقي الموظف المكلف بجمع الضرائب في هذا المنصب أكثر من سنة ليعين مكانه موظف

---

[385] رستوفتزف(م.)، مرجع سابق ، ص ص457-458.

آخر[386]، وربما هذا الإجراء يدخل في إطار رغبة الإدارة الرومانية في تقليص هيمنة وجشع هؤلاء والمحافظة على المال العام.

كان النظام الضريبي بأفريقيا يقوم أساسا على المعلومات المستقاة من الإحصاء المنبثق من عملية الكنترة، فقد صُنّفت الممتلكات الفلاحية تصنيفا دقيقا وتمّ وضع وحدتين أساسيتين لجباية الضرائب هما اليوغوم ***(Iugum)*** والكابوت***(Caput)***، فانطلاقا من هاتين الوحدتين يتم تقدير الممتلكات بمراعاة الاختلافات الجغرافية(موقع الأرض) والاختلافات النوعية للإنتاج، ويعود الفضل في هذا النظام إلى دقليديانوس(***Dioclétien***)(284م-305م) الذي وضع اليوغوم كوحدة مرجعية لقياس المساحة والكابوت كوحدة لضريبة الرأس الواجب على كل فرد دفعها سنويا، وبعد عهد هذا الإمبراطور أضحت الوحدة الضريبية خليطا بين الوحدتين لا فرق بينهما[387].

يتولى مسؤولية جمع الضرائب عدّة موظفين، يأتي في مقدمتهم البرايطور ***(Praetor)*** وهو موظف سام يتولى مهمة الإشراف على جمع الضرائب على مستوى المقاطعة ، ويساعده أعضاء محاسبون***(Numerati)*** وأعوان قضائيون ***(Tabulari)***، بالإضافة إلى الملتزمين ***(Conductores)*** الذين أوكلت إليهم مهمة جمع الأقساط الضريبية على مستوى الأملاك الإمبراطورية [388]، وقد اخبرنا نص هنشير مطيّش أنّ تقدير الأقساط التي يدفعها الكولون يكون من طرف الوكيل أو المستأجر اللذين يلزمان بالإعلان كتابيا عن استلامهما للمحاصيل الزراعية من عند الكولون[389].

يظهر مما سبق أن حساسية النظام الضريبي وأهميته قد جعله عرضة لعدة محاولات إصلاح بداية بإصلاحات قراكوس ثم تبعته عدة إصلاحات مع تعاقب الأباطرة ، وهذا كله

---

(386) *Code Théodosien , XII, 6 ,22.*

(387) رستوفتزف(م.)، مرجع سابق ، ص ص620-621.

(388) شنيتي (محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية...مرجع سابق، ص ص128-129.

(389) *Cagnat (R.), inscription d'Henchir-Mettich…Op.Cit., p151.*

رغبة منهم في تشديد الرقابة على مستخلصي الضرائب من جهة وتشجيع المزارعين على العودة إلى الأراضي التي أهملوها بسبب ثقل الضرائب المفروضة عليهم من جهة أخرى، كما كانت إصلاحات دقليديانوس وقسطنطين خلال القرن الرابع الميلادي تهدف إلى تنظيم نهائي للعلاقات بين روما مع مختلف أقاليمها وتحميل الطبقة الارستقراطية الرومانية ضرائب إضافية نظرا لكون مصادر الثّروة قد كانت بأيديهم[390].

v-3 أثر النظام الضريبي على تدهور الزراعة:

كان النظام الضريبي المفروض على المزارعين وممتلكاتهم ذا وقع كبير على وضعيتهم ، فهو بالأساس نظام جائر يتميز بتعدد الضرائب وثقلها ، وهذه الوضعية لم تكن في صالح الزراعة الأفريقية ، حيث اضطر المزارعون بمرور الوقت إلى تقليص عدد الوحدات التي يدفعون عنها الضرائب، فقد أهملوا الأراضي الأقل خصوبة خصوصا خلال القرن الرابع والخامس ميلادي ، وهو الأمر الذي أثر بصفة مباشرة على الزراعة بأفريقيا وأدى إلى تراجعها وتراجع نسبة المساحة المزروعة [391] .

وفي هذا الإطار قدم لنا قانون هونوريوس الذي يعود لعام 422 م إشارات واضحة عن تراجع مقدار المساحة المزروعة بأفريقيا ، فالإحصائيات الواردة فيه المتعلقة بالأراضي المهملة المعفاة من دفع الضرائب مقارنة بالمساحة المزروعة التي تدفع المستحقات هي مساحة كبيرة ، ودون شك فانّ المساحة المزروعة قبل هذه الفترة كانت اكبر ممّا ورد في النّص ، وما كان لهذا التناقص في المساحة الزراعية أن يحدث لولا ثقل الضرائب التي دفعت الملاّك للتخلي عن أراضيهم ، وقد حاول هذا القانون تدارك هذه الوضعية بعرضه امتيازات على الذين يُقْبِلون على كراء أراضي دومان عمومي مهمل بإعفائهم من دفع الضرائب والاحتفاظ بالأرض إلى

---

(390) *Fournier De Flaix(E.),Op.Cit.,pp203-204.*

(391) *Lepelley (C.), déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ? À propos d'une loi de l'empereur Honorius, in : Ant.Af., N°1,1967, p135.*

اجل غير مسمى[392]، ولعلّ هذا الإجراء يدخل في إطار تشجيع المزارعين على استغلال واستصلاح الأراضي المهملة وهو محاولة من السلطة الحد من هذه الظاهرة المتنامية بأفريقيا.

وقد نتج عن هذا الإهمال "المتعمد" للأراضي الزراعية ارتفاع قياسي في أسعار المنتوجات الزراعية ، فعزوف الفلاحين عن ممارسة الأنشطة الزراعية قد ولّد قلّة في الإنتاج الزراعي في الأسواق قابله زيادة في الطلب ، فالقمح من خلال نصوص القرن الثالث كان سعره حوالي عشرة دنانير *(Deniers)* للمد الواحد (حوالي 8 لترات) وهو سعر غير عادي لهذا المنتوج خلال تلك المرحلة [393]، ولا نستبعد عوامل أخرى تكون قد أثّرت على ارتفاع سعره كالمجاعات مثلا لكن الظاهر أن عزوف الفلاحين عن الإنتاج لثقل الرسوم الضريبية التي ألزموا على دفعها كان في مقدمة هذه الأسباب.

من جهة أخرى فقد انتشرت في أفريقيا خلال القرون الأخيرة للسيطرة الرومانية ظاهرة الهجرة نحو المدن وبيع الأملاك في الأرياف ، وقد ساهم ذلك أيضا في ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية[394]، وكل هذه العوامل قد دفعت السلطات الرومانية إلى البحث عن عدّة آليات لضمان دخلها من الضرائب ، حيث لجأت إلى إصدار قانون 371م الذي ينص على إجبار المزارعين وورثتهم على تحمل الأعباء الضريبية ومنعهم من إهمال الأراضي ، فمن تخلى عن أرضه يفقد حقّه في الملكية والوراثة[395]، ومن جهة أخري فقد كان تحميل مالك الأرض أو مستأجرها مسؤولية دفع الضرائب دفعه إلى ربط الفلاح بالأرض لضمان الإنتاج، وبقدر ما كان هذا الإجراء مفيدا للزراعة كان انعكاسه على الفلاحين سلبيا فقد فقدوا حريتهم وأصبح مركزهم شبيها بوضعية العبيد[396].

---

[392] *Code Théodosien , XI, 28 ,13.*

[393] *Bourgarel-Musso (André), recherche économiques sur l'Afrique Romaine, <u>R.Af.</u>, volume 75,1934, p366.*

[394] شنيتي (محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية...مرجع سابق، ص 131.

[395] *Code Théodosien , XI, 1,17.*

[396] محجوبي (ع.) ، مرجع سابق ، ص497.

يبدو من خلال ما سبق أن السياسة الزراعية الرومانية قد اعتمدت على عنصر أساسي وهو التمهيد بتنظيم المجال والاستغلال الذي يعدّ ركيزة أساسية في نجاح الاستثمار في المجال الزراعي، ونستطيع القول أن الإدارة الرومانية قد اعتمدت على أسس علمية مدروسة تغذيها النزعة "الرأسمالية" التي تهدف إلى الربح والثّراء وضمان إطعام العامة في روما، وما كان لهذا أنّ يتحقق لولا تلك القاعدة التشريعية والتنظيمية المسطرة وحسن استغلال الإمكانيات المتاحة، ومن جهة أخرى لا ينبغي التغاضي عن أهمية أفريقيا في اقتصاد الإمبراطورية حيث كانت مصدرا أساسيا في تموين الخزينة العمومية الرومانية وهو ما يتجلى أكثر في النظام الضريبي الجائر الذي اثر تأثيرا بالغا على أوضاع الشعب الأهلي الاجتماعية والاقتصادية على الخصوص بل على الزراعة الأفريقية عموما، وهو ما مهّد لأحداث القرن الرابع التي ساهمت في تقويض أركان الإمبراطورية وما إن حلّ الزّحف الوندالي حتى تهاوى الاستعمار الروماني في عموم أفريقيا .

الفصل الثالث

التوسّع الزراعي وآثاره

I. التوسّع في زراعة القمح خلال القرن الأول الميلادي:

I-1 شمال أفريقيا الممون الرئيسي لروما بالقمح.

I-2 خصائص القمح الأفريقي.

I-3 دوافع التوسّع في إنتاج القمح.

II. التوسّع في الزراعة الشجرية ابتداء من القرن الثاني للميلاد:

II-1 زراعة الكروم.

II-2 سياسة الزيتنة:

II-2-1 تطور التوسّع في زراعة الزيتون.

II-2-2 دوافع التوسّع في زراعة الزيتون.

II-2-3 خصائص الزيت الأفريقي.

II-2-4 صناعة الزيت وتسويقه.

III. زراعة المدرجـــــات:

III-1 دوافع استغلال الجبال.

III-2 التقنيات المعتمدة والانتشار الجغرافي للمدرجات.

IV. التوسّع الزراعي نحو الجنوب:

IV-1 تطور التوسّع.

IV-2 دوافع التوسّع الزراعي وأهدافه.

IV-3 النهضة الزراعية بالجنوب

IV-3-1 منظومة الرّي.

IV-3-2 الزراعة واستصلاح الأراضي.

V أثر التوسّع الزراعي:

الفصل الثالث

التوسّع الزراعي وآثاره

إنّ مقارنة بسيطة بين الفترة السابقة للعهد الروماني والفترة الرومانية في المجال الزراعي تجعلنا نستنتج ملاحظتين أساسيتين تبرزان أوجه الاختلاف بين الفترتين ، فالرومان قد طوّروا هذا المجال مقارنة بما كان عليه قبلهم والأكيد هو أن الإضافة الرومانية واضحة فيما يتعلق بمسح الأراضي وتطوير تقنيات الرّي وطرق الاستغلال وإصدارهم للتشريعات المنظمة للاستغلال الزراعي، غير أن وجه الاختلاف البارز هو التوسّع الزراعي الذي يدلّ على حرص روما على تنمية الثّروة واتخاذ التوسّع الزراعي جنوبا عاملا محفزا على جذب البدو نحو احتراف الزراعة للحد من "الاضطرابات" التي يثيرونها ، وقد اتخذ هذا التوسّع في نظرنا شكلين أساسيين هما:

1. **التوسّع الجغرافي** ونقصد به زيادة المساحة المزروعة وذلك بضمّ الأراضي البكر وأراضي البور وكذا الأراضي الجنوبية المحاذية لليمس بالإضافة إلى ضمّ واستغلال الأراضي الواقعة في هوامش المنحدرات الجبلية.
2. **التوسّع النوعي** ونقصد به إضافة زراعات أخرى فبعد النجاح الكبير في زراعة القمح – خلال القرن الأول للميلاد وهو ما جعل من أفريقيا أهراء حقيقية لروما – انتقلت السياسة الإمبراطورية إلى الزراعة الشجرية وخاصة شجرة الزيتون التي تعدّ بحقّ الشجرة المثمرة الأولى في أفريقيا خلال القرنين الثاني والثالث للميلاد، وسنحاول في ما يلي دراسة ظاهرة التوسّع هذه التي غيّرت وجه أفريقيا وكان لها نتائج ايجابية على الاقتصاد الأفريقي و الروماني على حد سواء خلال تلك المرحلة.

I. التوسّع في زراعة القمح خلال القرن الأول الميلادي:

عُرفت أفريقيا منذ القديم بالإنتاج الوفير للقمح، فقد اخبرنا المؤرخون القدامى باشتهار إقليم أفريقيا بإنتاج أنواع متعدّدة من المحاصيل الزراعية من بينها القمح الذي كان محل مبادلات بين المملكة النوميدية في عهد ماسينيسا على الخصوص والرومان، فقد سبق وان أشرنا إلى الكميات الكبيرة التي زوّدت بها المملكة الرومان خلال فترة حكم الملك ماسينيسا الطويلة[397]، ولهذا كان الرومان يدركون أهمية أفريقيا في الميدان الفلاحي بل كان ذلك احد أهم عوامل التخطيط لاحتلال البلاد الأفريقية على مراحل وما إن تحقق لهم احتلال قرطاج وإقليمها حتى اتخذوا منها مقاطعة وسعوا لإقامة دعائم استغلال زراعي على نطاق واسع انطلاقا من مسح الأراضي وإقامة مزارع كبرى وسن قوانين تنظّم عملية الاستغلال، ويبدو انّه منذ القرن الأول للميلاد تكون عوامل الإنتاج قد اكتملت بالمنطقة.

I–1. شمال أفريقيا الممون الرئيسي لروما بالقمح:

كانت أفريقيا الوجهة المفضلة لروما للتزود بالقمح من اجل تغطية احتياجات سكانها وجيوشها، فبلاد البربر على حد تعبير بيكار التي لا تتمكن من تغطية احتياجاتها اليوم كانت في الماضي إحدى مخازن العالم القديم [398]، والأرض الأفريقية بالنسبة للحكام الرومان لم تكن أرضا للتوسّع وزيادة الأموال والثّراء فحسب ولكن كانت "الأم المغذية ومرساة السلام الايطالي"[399]، فقد ساهمت أفريقيا في حل مشكل نقص الغذاء في ايطاليا حيث كان الأباطرة لا يطمحون لأكثر من تحقيق الاكتفاء الذاتي خلال تلك المرحلة خصوصا ونحن نعلم الخطر الذي قد يشكله نقص الغذاء على الدولة فهو قد يؤدي إلى عدم الاستقرار وقيام اضطرابات هنا وهناك وخاصة في العاصمة روما التي يقال أنّه يحكمها من يضمن لها وفرة الغذاء ، فقد كان هذا السبب في مقدمة الأسباب التي أدت بروما إلى التوسّع على حساب نوميديا سنة

---

(397) انظر أعلاه ص48.

(398) *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l’Afrique romaine…Op.Cit.,p59.*

(399) *Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux) , R.Af., Volume13, 1869, p9.*

46 ق.م ، وما تصريح يوليوس قيصر*(Jules César)* أثناء احتفاله باحتلاله لنوميديا إلاّ خير دليل على ذلك حيث قال بأنّه قد أتي ببلد يستطيع أن يزود روما بمقدار 840000 قنطارا من القمح[400].

ومن العبارات الأكثر تداولا بين الباحثين ذلك الوصف الذي يصف أفريقيا بأنها كانت "أهراء روما" ، وان كان البعض يرى أن في هذا الوصف بعض المغالاة وانّه لا يعبر حقيقة عن الحالة التي كانت سائدة حينذاك وإنّما يُطلق للدلالة على أن أفريقيا قد كانت غنية بالقمح على عكس فقرها في العصر الحديث [401]، إلاّ أن ذلك لا ينفي ثراء أفريقيا وإسهامها الكبير في تزويد روما بما تحتاجه من مواد غذائية طيلة قرون.

رغم تعدد مقاطعات روما التي تشتهر بإنتاجها للقمح على غرار مصر وسردينيا إلاّ أن أفريقيا احتفظت بأهميتها في تموين روما بهذه المادة الإستراتيجية على الدوام خاصة بعد إنشاء القسطنطينية*(Constantinople)* أين انفردت أفريقيا بتموين العاصمة القديمة روما بعدما كانت تشترك مع مصر في تموينها، فبعد إنشاء القسطنطينية أصبح الإنتاج المصري من القمح يوجّه إلى العاصمة الجديدة خلال وبعد حكم قسطنطين [402]، وقد كانت أفريقيا قبل ذلك – على عهد اغسطس – تزوّد روما بحوالي 40 مليون مد*(Modii)* أي حوالي 3200000 هكتولتر من الحبوب ونصف هذه الكمية كان يجلب من مصر[403] ، أي أنّ أفريقيا كانت تموّن روما بثلثي احتياجاتها وتتكفل مصر بالثلث الباقي، وقد قدر بيكار أن تكون كمية القمح التي تنتج في أفريقيا بأكملها بحوالي 9 إلى 10 ملايين قنطار خلال فترة حكم نيرون ***(Néron)*** (54م–68م)ونشير إلى أن كمية القمح الموجهة إلى روما قد تضاعفت بتزايد التوسّع الروماني في المنطقة فقد كانت مقاطعة أفريقيا الجديدة زمن قيصر تمون روما ب840000 قنطارا وبعد

---

[400] *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit.,pp 69-70.*

[401] محجوبي.(ع.)، المرجع السابق، ص ص492–494.

[402] *Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux), R.Af., Volume13, 1869, p85. ; Kotula (T.)et Michalak (M.), Les Africains et la domination de Rome, In: D.H.A., Volume 2, 1976, p 347.*

[403] *Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux), R.Af., Volume13, 1869, p83.*

قرن من ذلك وتحت حكم نيرون أصبحت مقاطعة أفريقيا القديمة والجديدة بالإضافة إلى مقاطعة طرابلس تزود روما ب 10 أضعاف هذا الرقم[404].

كان القمح الأفريقي يغطي العجز الذي تعاني منه روما، وحسب القدماء فانّ روما مجبرة لاستيراده فهذا فارون يقول بأنّهم أي الرومان كانوا يدفعون الأموال من اجل أن يُجلب لهم القمح الذي يغذيهم من أفريقيا وسردينيا[405]، وهذا كلوميل يورد عبارة فيها الكثير من الاستياء والتساؤل لما آلت إليه الأوضاع في ايطاليا حيث اعتبر انّه في ارض ايطاليا مع أن الآلهة علّمت لأبنائها الزراعة ، إلاّ أنّ أهلها مجبرون لتلافي الموت جوعا إلى جلب القمح من مقاطعات واقعة وراء البحر[406].

وعن سعر القمح الأفريقي افترض البعض أن يكون سعره منخفضا بالمقاطعات الأفريقية مقارنة بسعره في روما الذي يصل إلى الضعف، وقد قدّر ميشال كريسطول *(Christol M.)* أن يكون سعر البوشل(*modius*) في نوميديا في تلك المرحلة حوالي 2,5 سسترس *(Sesterces)*[407]، ومن جهة أخرى نشير إلى أن كميات القمح التي توجه إلى روما هي في الأساس عبارة عن ضرائب استخلصت من مختلف مناطق أفريقيا، وقد كان عمال الإمبراطورية على اختلاف مناصبهم هم الذين يشرفون على هذه العملية ابتداء من محصلي الضرائب إلى مسؤولي المقاطعات ووكلاء الإمبراطور وقد حمّل الأباطرة مسؤولية الإشراف على عملية التموين هذه ومراقبة سعر القمح في السوق إلى محافظ الانونة(*Præfectus annonæ*)، فبعد تحصيل هذه الكميات من أرياف أفريقيا توجّه إلى المخازن المقامة خاصة بالقرب من الموانئ المهمة تمهيدا لإرسالها إلى روما بعد أن يتأكد الموظفون بانّ هذه الحبوب صافية وسليمة ويمنع على الموظفين تحويل جزء من القمح المخصص لروما مهما كانت كميته إلى وجهة أخرى[408].

---

[404] Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit., pp69-71.
[405] Varron, II .
[406] Columelle, , préface, p25.
[407] Christol (M.), Le blé africain et Rome, Remarques sur quelques documents, In: Le Ravitaillement en blé de Rome et des centres urbains des débuts de la République jusqu'au Haut-Empire, Actes du colloque international de Naples, 14-16 Février 1991, Rome : École Française de Rome, N°196,1994, p297.
[408] Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux), R.Af., Volume13, 1869, p88.

I-2. خصائص القمح الأفريقي:

كان للقمح الأفريقي خلال تلك المرحلة شهرة كبيرة ، فقد اخبرنا بلين أن القمح الأفريقي كان ذائع الصيت وكان ثالث أنواع القمح المعروفة في عصره وانّه قمح صلب وثقيل وانّه أفضل أنواع القمح لإنتاج السميد[409]، ونفس المؤرخ اخبرنا عن المردودية المدهشة لهذا القمح فقد ذكر بأنها تتراوح بين100 إلى 150 للحبة الواحدة [410]. وممّا وصلنا أيضا من الأخبار أن مسيِّر دومان اغسطس قد بعث إليه بسيقان *(tiges)* سنابل تحمل 400 حبة كلها خرجت من حبة مستنبتة واحدة[411].

كان القمح ينتج بالسهول خاصة القريبة من السواحل، وكان القمح الصلب *(Triticum durum)* هو المزروع بهذه الجهات حتى قبل السيطرة الرومانية ويضمّ سلالات متنوعة جعلت دوكندول[412] يرجّح بان يكون هذا القمح أصليا بأفريقيا الشّمالية، بينما عرفت المناطق الجبلية ذات التربة الخفيفة انتشارا واسعا في زراعة الشعير. فالقمح الأفريقي دون شك قد اكتسب خصائصه التي حدثنا عنها القدماء من طبيعة المناخ المميّز لأفريقيا وانتشار الرّي على نطاق واسع بالإضافة إلى التربة الخصبة التي تتميّز بها أفريقيا خصوصا السهول الساحلية في جهات الأمبوريا والمزاق وحتى الواحات الصحراوية[413].

---

(409) *Pline l'Ancien ,XVIII ,63.*
(410) *Ibid.,XVII ,III.5 .*
(411) *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit., p69.*
إن مردودية القمح الأفريقي العالية ليست غريبة أو حالة استثنائية أو "من معتقدات علم النبات" كما عبر اقزال ، حيث يشهد الباحث لاكروا انه قد شاهد بنفسه بمدينة الجزائر سنة 1949م حزمة من 189سنبلة خرجت كلها من حبة قمح واحدة ، وقد أرسلت إلى باريس أين عرضت بالمعرض الوطني خلال هذه الفترة .انظر:
- *Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux) , R.Af., Volume12, 1868,p417.*
كما عثر احد الكولون صدفة سنة 1851م على ثلاث سنابل محفوظة بشكل جيد تعود إلى الفترة الرومانية بـ*(Novi)* بجهة شرشال تمت زراعتها فأنتجت 105 سنبلة زرعت حباتها من جديد فأنتجت حوالي 300 كيلوغرام، انظر: *Blé antique de Novi, R.Af., N°3 , 1857,p181.*
(412) *De Condole (Alph.),Op.Cit.,p289.*
(413) *Pline l'Ancien , XVIII, LI. 22.*

I-3. دوافع التوسّع في إنتاج القمح:

إن من أهم الأسباب التي دفعت روما إلى تشجيع زراعة القمح في المقاطعات هو احتكارها لإنتاج وتسويق النبيذ والزيت، فمن المعروف أن الإمبراطور دوميتيان(*Domitien*) (81م-96م) قد اصدر مرسوما (92 م) لتشجيع زراعة الحبوب في المقاطعات حتى يساعد بذلك المنتجين للنبيذ في ايطاليا[414] ، فقد حرصت روما ألاّ يكون هناك منافس لإيطاليا في زراعة الكروم وتجارة النبيذ والزيت المربحة، في حين كانت زراعة القمح نشاطا مسموحا لم يتوان الأباطرة في الدعوة إلى الزيادة من إنتاجه لإطعام الجيوش والعامة في روما خصوصا وانّه كان يمنح مجانا لهم ابتداء من عهد الإمبراطور أكتافيوس وبذلك زادت الحاجة إلى القمح مع تزايد أفراد الطبقة العامة بروما، وقد فرضت الحكومة الرومانية إنتاج القمح خلال القرن الأول لأغراض سياسية بالخصوص إذ قُدِّر حجم استهلاك مائتي ألف من المواطنين الرومان على عهد أغسطس حوالي مليون مُد مجانا كل شهر(حوالي 80000 هكتولتر شهريا) يقابله عجز ايطاليا عن إنتاج هذه الكمية نظرا لانتشار المستنقعات والأراضي غير الصالحة للزراعة ما جعل المجاعات والاضطرابات تتفاقم في كامل أنحاء الإمبراطورية[415] .

وقد حدث ارتفاع حاد في معدل إنتاج القمح بعد أن دفعت روما بالحدود إلى الغرب والجنوب وشرعت في سياسة احتواء القبائل واتبعت سياسة فعّالة لاستصلاح الأراضي والتوسّع في بناء الهياكل المائية ، ولما اعتلى نيرون العرش أصبحت أفريقيا هي التي تمد عاصمة الإمبراطورية بالقمح لمدّة ثمانية أشهر في السنة [416]، ونشير إلى انّه بداية من القرن الثاني للميلاد أصبح من المسموح زراعة الكروم والزيتون بأفريقيا خاصة على الأراضي البور وغير المستغلة.

---

(414) رستوفتزف(.م) ، مرجع سابق، ص 273.

(415) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص206.

(416) محجوبي (ع.)، مرجع سابق،ص 494.

إن اعتماد روما الشبه الكلي على الإنتاج الأفريقي من القمح إنّما يُفَسَّر بالسياسة الإنتاجية بأفريقيا القائمة على الاستغلال الشامل لإمكانيات الأرض وتجنيد الطاقات البشرية والثروة المائية لمواجهة الاستهلاك المتزايد [417]، وفي المقابل كان الإنتاج الايطالي من هذه المادة إنتاجا ضعيفا لكنه ليس منعدما فعلى الأقل كان يكمل الواردات ويلبي حاجيات الملاّك المزارعين وعائلاتهم [418].

إن تشجيع روما لاستثمار الأموال في الأراضي الأفريقية يعني كثرة الإنتاج الذي من شانه أن يدفع بثمن الحبوب إلى الانخفاض ويضمن كميات وافرة من الغلال لروما ويزيد من دخل الدولة ، وهذا ما يفسر لنا سر إصرار روما على ضم نوميديا وموريتانيا رغم تكبدها لمشقة المواجهات العسكرية مع سكان هذه المناطق ، وكلّ هذا أيضا ساهم في زيادة أملاك بعض الشخصيات الرومانية التي امتلكت خلال القرن الأول قبل الميلاد مستثمرات وضيعات واسعة اخبرنا عنها بلين بأنّها المظهر المميّز لأفريقيا خلال هذه المرحلة [419].

لقد كانت روما مرتبطة ارتباطا وثيقا خلال هذه المرحلة بأفريقيا وبحاجة ماسة إلى إنتاجها من القمح إلى درجة انّه عندما تتعثر حمولات القمح بأفريقيا تعرف روما مجاعة [420] ، وهذا كاف لإبراز الأهمية الكبيرة التي تحضي بها أفريقيا لدى الرومان.

---

[417] شنيتي (محمد البشير)، أضواء على تاريخ الجزائر القديم...مرجع سابق، ص102.

[418] *Picard (G.Ch-.), Néron et le blé d'Afrique…Op.Cit.,p70.*

[419] *Pline l'Ancien , , XVIII , VII,6.*

[420] عن المجاعات لتي عانت منها روما بسبب عرقلة سفن الشحن بأفريقيا انظر:

-Lepelley (C.), déclin ou stabilité…Op.Cit.,p139.

II. التوسّع في الزراعة الشجرية ابتداء من القرن الثاني للميلاد:

بعد أن قامت الحكومة الرومانية خلال القرن الأول بتشجيع زراعة القمح لعدة أسباب كما ذكرنا ، فتحت ابتداء من القرن الثاني المجال أمام زراعة الأشجار المثمرة، والمعلوم أن روما قد شجعت زراعة الزيتون خاصة إلاّ أنّ هذا القرن كان قد عرف أيضا توسّعا في زراعة الكروم أمّا باقي الأنواع الأخرى فهي لم تحض باهتمام كبير مقارنة بزراعة الزيتون والكروم، وهذا بطبيعة الحال لا يعني أن الدولة الرومانية قد أهملت زراعة الحبوب بل استمر الاهتمام بإنتاجها إلى غاية الفترات الأخيرة من السيطرة الرومانية وظلّت أفريقيا الممون الرئيسي لروما بالقمح.

II-1. زراعة الكروم:

لقد كانت زراعة الكروم ذات أهمية كبيرة بالنسبة للرومان ولهذا فقد عمل أباطرتها على منع زراعتها بالولايات في البداية نظرا لتجارتها المربحة ، لكن بمرور الوقت منحت حكومة الإمبراطورية المزيد من الحرية للمقاطعات لكي تعمل على تنمية اقتصادها حتى تستفيد ايطاليا من خيراتها، ففي البداية سمحت الحكومة الرومانية بزراعة الكروم والزيتون فقط على القطع الأرضية الصغيرة غير الصالحة للزراعة أو الأحراش أو الأراضي التي لم تشملها عملية الكنترة أو في الأراضي غير المستغلة داخل المستثمرات الكبرى ، ونظرا للتجارة المربحة للنبيذ والزيت شجعت الحكومة السير في هذا الاتجاه وبهذا انتشرت بساتين الزيتون والعنب بمعدلات مذهلة خاصة ابتداء من القرن الثاني الذي عرف بأنّه قرن الزيتون والكروم.

لقد وردت في النصوص التّشريعية الأفريقية إشارات لزراعة الكروم التي تطورت بتطور الاستعمار والاستغلال ، فقد تحدث نص هنشير مطيّش الذي يحمل بنودا من قانون مانكيانا(*Lex Manciana*) الذي يعود إلى زمن تراجان عن زراعة الكروم حيث نصّ القانون على منع زراعة كروم جديدة إلاّ لتحل محل كروم قديمة، أما نص عين الجمّالة الذي يعود إلى عهد هادريان فقد حمل إجابة من بروكيراتور الإمبراطور بخصوص طلب الكولون السماح لهم

بزراعة الأراضي غير المستغلة زيتونا وكروما[421]، ولم ترد في كل النّصوص المكتشفة ولو إشارة بسيطة إلى السماح بزراعتها في أراض خصبة جديدة أو في الأراضي التي اعتاد المزارعون زراعتها قمحا.

يبدو أن الكروم الأفريقية حسب ما يقدمه القدماء من شهادات كانت ذات خصائص مذهلة ، فقد اخبرنا سترابون عن عناقيد العنب العملاقة التي تتميز بها موريتانيا الطنجية [422]، أمّا بلين فقد ذكر أن بعض عناقيد العنب المنتجة بالمناطق الداخلية الأفريقية حجمها اكبر من طفل شاب وانّ الكروم الأفريقية لا مثيل لها في مكان آخر[423]، فخلال تلك الفترة كانت الكروم الأفريقية حاضرة بقوة في الموائد وكان يصنع منه نبيذ ذو جودة عالية فحسب بلين دائما فانّ الأفارقة كانوا يستعملون الجير لخفض حموضته[424].

لقد انتشرت زراعة الكروم في عموم أفريقيا وخاصّة بالمناطق الرطبة المحاذية للسواحل ، فقد توصلت الأبحاث التي أقيمت حول زراعة هذه الشجرة بأفريقيا إلى أنّها تتطلب نسبة كبيرة من أمطار الخريف والشتاء حتى تتمكن من مقاومة حرارة الصيف[425]، وقد اخبرنا بلين عن زراعة الكروم حتى في بعض الواحات الصحراوية تحت أشجار النخيل لتستفيد من ظلالها[426].

كما دلّت العديد من الصور الفسيفسائية على زراعة الكروم واستهلاك النبيذ بالإضافة إلى الأبحاث الأثرية التي زودنا بمعلومات قيمة حول تجارة هذا المنتوج ، فقد عُثر على نوع من الجرار الخاصة بموريتانيا القيصرية التي يخزن فيها النبيذ تمهيدا لتسويقه، كما عُثر بميناء اوستيا(*Ostie*) في حفريات أقيمت به على أنواع عديدة من هذه الجرار الأفريقية في طبقات

---

(421) انظر أعلاه ص77.

(422) *Strabo, XVII, III, 4.*

(423) *Pline l'Ancien, XIV, III.*

(424) *Ibid., XIV, XXIV.*

(425) *Larnaude (M.), La Vigne en Algérie, in: Annales de Géographie, T. 57, N°308, 1948, p357.*

(426) *Pline l'Ancien, XVIII, LI. 22.*

مؤرخة ما بين(225-250)م ، كما عُثر بنفس الميناء على فسيفساء عليها صورة جرة تعود لنهاية القرن الثاني الميلادي[427].

إن زراعة الكروم بدون شك لم تتوقف في التطور بأفريقيا خلال الفترة الرومانية، فقد دلّت عليها النصوص الأدبية والأثرية كما أسلفنا الذكر، لكن من غير الممكن مقارنة أهميتها بزراعة القمح والزيتون فربما كانت زراعة ثانوية[428] موجهة لإنتاج أجود الخمور وتزيين ارقي الموائد وفي نفس الوقت يجب أن نقر بان تجارتها مهمة ومربحة يحرص الأباطرة المتعاقبون وكبار الشخصيات على احتكارها.

2-II. سياسة الزيتنة:

كان الزيتون في القديم ذا أهمية كبيرة لدي جميع الشعوب خاصة شعوب البحر المتوسط التي اهتمت بزراعة هذه الشجرة والعناية بها أكثر من أيامنا هذه ، فقد كان الزيتون يمثل منتوجا استهلاكيا أساسيا ومصدرا وحيدا للإنارة النظيفة في تلك المرحلة، وقد حضيت هذه الشجرة بتقديس لم تحض به الأصناف الأخرى من الأشجار فقد اتخذته الشعوب رمزا للسلام وقد ذكرنا فيما سبق حادثة توجه أهالي تبسة إلى القائد القرطاجي حانون يستعطفونه ليطلق سراح أهاليهم حاملين معهم أغصان الزيتون[429].

1-2-II تطور التوسّع في زراعة الزيتون:

إن زراعة الزيتون بمنطقة شمال أفريقيا ضاربة في القدم، فقد دلّت على ذلك النصوص والرسومات الصخرية والآثار التي عثر عليها بمختلف أرجاء المنطقة، ولم تكن يوما فضلا رومانيا

---

[427] *Robert (L.), le vin Africain à l'époque impériale, in : Ant.Af., N°16, 1980, p190.*
[428] *Ibid..p191.*

[429] انظر أعلاه ص21 ؛ ونظرا للفوائد المتعددة للزيتون فقد رفعه الإغريق قديما وسكان منطقة القبائل *(Kabyles)* إلى صف الأشجار الأسطورية الميثولوجية انظر:

- *Angles (St.) , l' Olivier, un arbre et une culture au cœur de la -Méditerranée , édition du temps , pp113-128*

أو فينيقيا كما يدعي البعض، غير أن التوسّع في زراعتها قد عرف تطورا ملحوظا خلال الفترة الرومانية بشكل أدهش الباحثين خاصة خلال أواخر القرن الثاني و وبدايات القرن الثالث الميلادي، وتنبغي الإشارة هنا إلى أنّ أفريقيا قبل هذه الفترة كانت قد سجلت محاولات في التوسّع في زراعة هذه الشجرة ، فقد اخبرنا أوريليوس فيكتور *(Aurellus Victor)* أن القائد القرطاجي هانيبال بعد إمضاء قرطاج لمعاهدة سنة201 ق.م مع الرومان قد وجّه جنوده إلى استصلاح الأراضي وزراعة الزيتون لإلهائهم عن القيام بأي محاولة انقلاب أو إثارة فوضي في البلاد[430].

ويبدو أن الأباطرة الرومان قد شرعوا في تشجيع هذه الزراعة بعد الالتماسات التي رفعها الكولون إليهم والذين طالبوا السماح لهم باستغلال الأراضي البور وأراضي المستنقعات والأراضي التي تخلى عنها المساحون الرومان أثناء قيامهم بعملية كنترة الأراضي وذلك بزراعتها كروما وزيتونا كما ورد في عريضة عين الجمّالة ونص جنان الزيتونة [431]، وهذا ما طوّر دون شك زراعة الزيتون بأفريقيا فربحت الزراعة بها مساحات إضافية ، ومن جهة أخري نشير إلى أن الإمبراطور هادريان كان قد أمر بان تصبح الأرض ملكا لكل شخص استصلحها حتى لو كانت ملكا لشخص أخر وان يدفع المستصلح النصف عن المنتوج إذا كانت الأرض ملكا للدولة[432]، وبهذا الإجراء يكون قد وفر الحماية القانونية التي تشجع المزارعين على استصلاح الأراضي وزيادة الإنتاج.

انتشرت زراعة الزيتون في عموم أفريقيا ، ويشهد على ذلك العديد من آثار المعاصر التي عثر عليها بالمنطقة(انظر أدناه الخريطة (9) ص130)، فقد لاحظ العديد من الباحثين إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية وجود هذه الآثار في مناطق هي اليوم مناطق صحراوية قاحلة لا تصلح للزراعة ، فقد أكد اغزال أن سهل بحيرة الأرنب الواقع جنوب تبسة كان خلال الفترة

[430] ديكيريه (فرنسوا)، مرجع سابق ، ص ص96-97.

[431] انظر أعلاه ص ص77-78.

[432] *Spartien, **Vie d'Hadrien, écrivains de l'Histoire Auguste**, traduit par FL. Leglay, T.1, C.L.F. Panckoucke , Paris 1844, XVIII.*

الرومانية سهلا تغطيه غابات الزيتون[433]، أما الباحثة هنريات كامبس فقد لاحظت أن المناطق التي قدمت لنا اليوم العديد من آثار هذه المعاصر هي نفس المناطق التي وصفها سالوست بأنها مناطق جرداء وجافة ما يدلّ حسبها على أن الرومان هم من قام بتوسيع هذه الزراعة إلى هذه المناطق[434]، غير أن هذه الباحثة قد غفلت بانّ هذه المناطق التي عُثر بها على كم هائل من هذه المعاصر هي مناطق القبائل المكنطنة التي لم تخضع للسلطة الرومانية كإقليم قبائل الموزولام، فأمام الحاجة الملحة لها إلى الأرض بعد انتزاع الأراضي الخصبة منها لم تجد هذه القبائل من وسيلة أخري غير تكثيف الزراعة في المساحة المتاحة لها واستصلاح أراضي جديدة [435] لذا من المجحف إرجاع كل الفضل للرومان في مسألة توسيع زراعة الزيتون، وفي نفس الإطار نتحفظ على استنتاج اقزال الذي اعتبر أن غابات الزيتون لا يمكن إلا أن تكون من انجاز الرأسماليين الكبار لأنّه على حد تفسيره يتمتعون بالثروة والاكتفاء لذا يتركون أشجار الزيتون تنمو في هدوء ، عكس المزارعين البسطاء الذين تدعوهم الحاجة إلى زراعة الأنواع التي لا تستغرق وقتا طويلا للإثمار[436].

كان التوسّع في زراعة الزيتون بالمناطق الجنوبية مدهشا نظرا لكون كمية الأمطار بها غير كافية لقيام هذه الزراعة ، فقد لاحظ باراداز وجود آثار لمعاصر رومانية في مناطق هي اليوم مناطق صحراوية[437]، ولعل العامل الذي جعل من هذه الزراعة تصل إلى تخوم الصحراء هو تطور تقنيات الرّي الرومانية المستعملة بهذه المناطق وحسن استغلال الأمطار الموسمية ببناء جدران تحمي التربة من السيول في العديد من المناطق لمنع انجراف التربة ولتخزين المياه لاستغلالها في الرّي الزراعي[438]، ولم تكتف روما بهذا فقط بل عملت على استغلال مياه

---

(433) *Gsell (St.) , Inscriptions Latines de l’algerie ,T.1, p351.*

(434) *Camps-Fabrer (Henriette), l’Olivier et l’Huile dans l’Afrique Romaine…Op.Cit.,p9.*

(435) عقون (العربي) ، الاقتصاد والمجتمع...مرجع سابق ، ص99.

(436) *Gsell (St.),grandeur et décadence de Rome en Afrique...Op.Cit., p10.*

(437) *Baradez (J.),**Vue aerienne de l’organisation romaine dans le Sud-Algérien (Fossatum Africae)**, Arts et métiers graphiques, Paris1949, pp 204-212.*

(438) *Ibid., 185.*

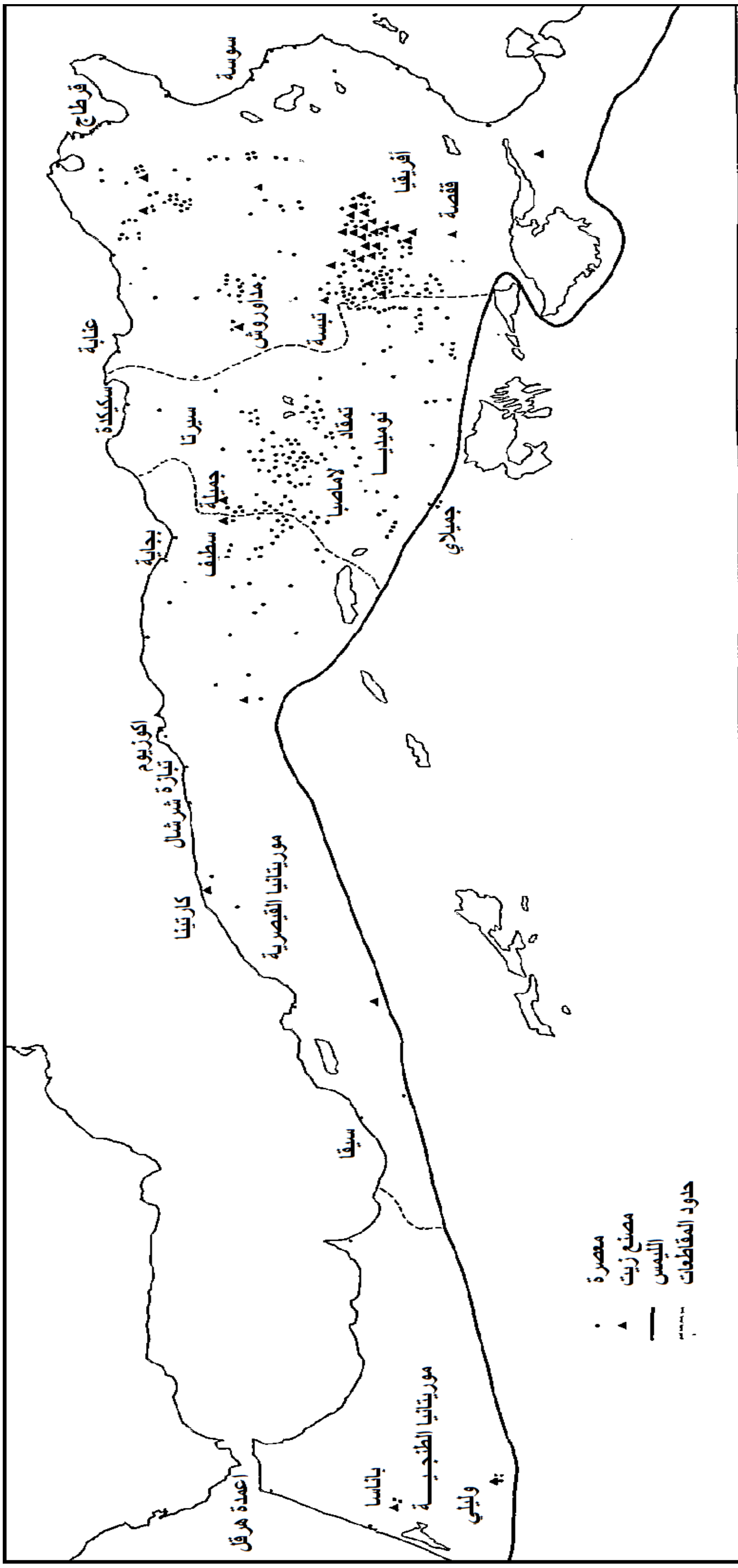
العيون المتواجدة بها وفي هذا الشأن اخبرنا بلين عن التقسيم العادل لمياه العيون بين المزارعين في واحة قابس *(Tacapes)* جنوب تونس(439).

لقد كانت زراعة الزيتون على العموم أكثر الأنواع انتشارا في أفريقيا بحيث شملت مختلف المناطق سواء الرطبة أو الجافة، وقد أكدت النّصوص على هذا التوسّع الكبير خلال الفترة الرومانية وعلى الاهتمام بهذه الزراعة الناتج من الأهمية الاقتصادية للزيت والاستعمالات المختلفة له التي جعلت من الأباطرة الرومان يشجعون زراعته، ولم تكن الفترة الرومانية فقط هي الفترة الوحيدة التي ازدهرت فيها زراعة هذه الشجرة بل استمر ذلك إلى ما بعد هذه الفترة بقرون، ومن الواضح أن الازدهار الذي عرفته افريقية خلال فترة الفتوحات الإسلامية كما وصفه لنا ابن عبد الحكم وابن عذاري (440) قد كان استمرارا للقرون التي قبلها خصوصا إذا علمنا أن شجرة الزيتون من الأشجار التي تعمر أكثر من 500 سنة.

---

(439) *Pline l'Ancien , XVII , LI,22.*

(440) نقل لنا ابن عبد الحكم رواية تدل على استمرارية تصدير الزيت إلى روما خلال مرحلة الفتوحات الإسلامية : "إن عبد الله بن سعد هو الذي افتتح افريقية...وانه كان يوضع بين يديه الكوم من الورق ، فيقول للأفارقة : من أين لكم هذا؟ قال: فجعل إنسان منهم يدور كالذي يلتمس الشيء حتى وجد زيتونة، فجاء بها إليه، فقال: من هذا نصيب الورق. قال: وكيف؟ قال: إن الروم ليس عندهم زيتون، فكانوا يأتوننا يشترون منا الزيت ، فنأخذ هذا الورق منهم"، انظر: ابن عبد الحكم ، **فتوح مصر والمغرب** ، تحقيق عبد المنعم عامر ،ج1، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة 2001م، ص248. أما ابن عذاري فقد وصف افريقية زمن الكاهنة فقال:" أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منظمة حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن حصوناً من إقليم أفريقيا" ، انظر: ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، دار صادر، بيروت 1950م، ص36.



خريطة(9): خريطة التوزيع الجغرافي لمصانع ومعاصر الزيتون بافريقيا القديمة

(Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et son importance économique dans l'Afrique Antique, CIHEAM-Option Méditerranéennes, N 24, p23.)

II-2-2 دوافع التوسّع في زراعة الزيتون:

لقد كان للظروف الطبيعية المساعدة على نمو هذه الشجرة بالإضافة إلى زيادة الرغبة لدي الأباطرة والمزارعين في توسيع زراعتها الدور الكبير في تحقيق هذا التقدم، فأفريقيا وفق ما اخبرنا به القدماء مهيّأة لزراعة هذه الشجرة نظرا لمناخها المعتدل المساعد على ازدهار هذا النوع من الأشجار، وفي هذا الشأن اقتبس بلين[441] عبارة من فابيان(*Fabian*) يؤكد فيها "أن شجرة الزيتون لا تزدهر في البلاد الشديدة البرودة ولا في البلاد الشديدة الحرارة"، فدرجة الحرارة عامل مهم في زراعة هذه الشجرة ، فهي لا تقاوم درجة الحرارة الأقل من 5° فوق الصفر في المقابل تتحمل درجة الحرارة العالية نسبيا شرط ريها لتجنب جفافها[442]، بينما يعتبر الجليد من اشد أعدائها حيث أنها لا تتحمل البرودة القارسة أو الأمطار التي تتساقط خلال فترة إزهارها التي تتسبب في إسقاط ثمارها المزهرة ما يسبب خسائر في المنتوج.

كما أنّ معدل الأمطار الذي يتناسب مع زراعة الزيتون هو300 ملم سنويا على الأقل، وهو الشيء الذي توفره أفريقيا بل وتعرف تساقطا اكبر بكثير من هذا المعدل على الأقل في المناطق المحاذية للساحل ، ونشير إلى أن زراعة هذه الشجرة تصلح في التربة الخفيفة التي يجب ألاّ تكون رملية تماما ولا طينية ، لذا ينبغي تجنب زراعتها في أراضي المستنقعات وفي الأراضي التي بها نسبة ملوحة كبيرة، فما يلاحظ على هذه الشروط الطبيعية والمناخية التي تتطلبها زراعة هذه الشجرة هو تطابقها مع الخصائص التي تتميز بها أفريقيا، ولهذا لا نستغرب تمسّك الأفارقة بزراعتها منذ عهود طويلة.

ومن العوامل الاقتصادية المساعدة على توسيع هذه الزراعة هو سهولة غرسها وقلّة تكاليفها[443]، بالإضافة إلى أنّ هذه الشجرة لا تتطلب عناية مستمرة بها في المناطق التي تفوق

---

[441] *Pline l'Ancien, XV,II.*
[442] *Camps-Fabrer(Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine…Op.Cit., p14.*
[443] *Columelle, V ,VIII.*

كمية التساقط بها 300 ملم سنويا، وحتى عملية إزالة الأعشاب الضّارة وقلب تربتها وتقليم أغصانها هي من الأعمال السهلة المتيسر على الفلاح القيام بها مرة كل عام أو عامين، ومن مميزات هذه الشجرة وفق ما أكده كلوميل[444] هو تميز إنتاجها بما يشبه مبدأ التناوب حيث يكون إنتاجها وفيرا في عام ويقل في العام الموالي له، ومن جهة أخري فقد تحدث بيكار عن عامل كثرة فترات الجفاف التي ميزت أفريقيا أواخر القرن الثاني وهو ما أدي بالحكام إلى الاهتمام بزراعة الزيتون في المناطق التي كانت تزرع بها الحبوب باعتبارها أكثر مقاومة للجفاف من القمح[445].

أما فيما يتعلق بالدوافع التي أدت بروما إلى تشجيع هذه الزراعة فهي في الحقيقة عوامل متعددة، بعضها سياسي وبعضها عوامل بشرية والبعض الأخر اقتصادي؛ لابد أن نقرّ في البداية إلى أن التوجيه السياسي لهذه الزراعة قد ساهم في انتشارها ، هذا التوجيه الذي دلّت عليه صراحة التشريعات الأفريقية التي دعت إلى زراعة الأراضي غير المستغلة كروما وزيتونا، كما أن سياسة التوزيع المجاني للقمح والزيتون بروما التي درج عليها أباطرة القرن الثاني والثالث خاصة تعتبر من أهم العوامل التي ساهمت في توسيع هذه الزراعة، ولعل هذه الوضعية قد نشأت نتيجة تراجع الزراعة في ايطاليا نتيجة انتقال السكان من الأرياف إلى المدن واندثار الطبقة المتوسطة من الفلاحين وبذلك أهملت مستثمرات الزيتون ، وأمام هذا الوضع الذي عرف تزايدا في الطلب على هذا المنتوج خاصة من طرف السكان الحضر لم يتردّد الأباطرة في الاستعانة بالزيت الأفريقي كبديل جاهز لتعويض النقص في الإنتاج باعتبار أن زراعة الزيتون قد كانت مزدهرة بضواحي قرطاج قبل مجيء الرومان بكثير[446].

ومن الأسباب المهمة كذلك ، هو ما أشارت إليه هنريات كامبس التي اعتبرت أن زراعة الزيتون هو أمر مساعد على استتباب الأمن خاصة بالمناطق التي تنتقل عبرها القبائل المرتحلة،

---

[444] *Columelle,V ,VIII.*
[445] *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine…Op.Cit., p74.*
[446] عقون (العربي) ، الاقتصاد والمجتمع…مرجع سابق ، ص99.

فزراعة الزيتون من الأمور المشجعة على استقرار هذه القبائل وهو ما يساهم في تخفيض أعباء ومتاعب الإدارة الرومانية بهذه المناطق ، وقد صورت لنا الباحثة تلك الفائدة المتبادلة بين الطرفين ؛ فالبدو يهدفون إلى الثراء والحكام الرومان ينشدون الأمن والاستقرار والازدهار الاقتصادي الذي يعود بالفائدة على لروما[447]، وعلى نفس الفكرة علق الأستاذ شنيتي بانّ زراعة الزيتون هو العامل الذي ساهم في تدعيم الجبهة الرومانية أمام القبائل البدوية[448].

لقد أدى ازدهار تجارة هذه المادة واتساع السوق الاستهلاكية سواء الداخلية أو الخارجية إلى اهتمام الأباطرة والفلاحين على حد سواء بزراعة هذا النوع ،لانّ تسويقها يعتبر مضمونا وهو الأمر الذي يشجع الفلاح على زيادة الإنتاج و زراعة فسائل جديدة، ومن الأمور المهمة التي أثرت كذلك على زيادة التوسّع هو تزايد ظاهرة التحضر بروما حيث تخلى الفلاحون عن أراضيهم وتحولوا إلى المدن ، في مقابل ذلك زاد طلبهم على هذه المادة الضرورية في الحياة الحضرية خصوصا بعد أن اندمج هؤلاء وتأثروا بمغريات المدينة، كما أن روما قد عرفت على عهد الأنطونيين والسيفيريين نهضة عمرانية واتساعا في الأسواق الاستهلاكية الداخلية وزيادة في الطلب على مادة الزيت[449]، فعلى العموم كان للزيادة السكانية والإقبال على الحياة الحضرية دوره في التأثير بصفة مباشرة على ازدهار هذه الزراعة بعد أن زاد الإقبال عليها وزادت أرباح تجارتها.

ومن العوامل الاقتصادية المهمة –إضافة إلى اتساع الأسواق الداخلية والخارجية التي تحدثنا عنها– تفضيل الملاّك الكبار والمزارعين لزراعة هذه الشجرة نظرا للامتيازات التي خصها الأباطرة بها والمتمثلة في الإعفاءات الضريبية خلال عدد من السنوات للذين يقيمون على أراضيهم مستثمرات للكروم والزيتون وللذين يطعمون الزيتون البري[450]، وفي الأخير لا يجب

---

(447) *Camps-Fabrer(Henriette),l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine..Op.Cit., p10.*

(448) شنيتي (محمد البشير) ، التغيرات الاقتصادية... مرجع سابق، ص99.

(449) نفسه ، ص ص91-92.

(450) انظر أعلاه ص82.

أن نهمل الفوائد الجمة التي يتميز بها الزيت ما جعله يتبوأ مكانة مرموقة لدي مختلف الأجناس ومنهم البربر المعروفون باستهلاكهم الكبير لهذه المادة، حيث يستعملونها في طهي مختلف المأكولات وفي الإنارة وصناعة مواد التنظيف، كما يستعملونها أيضا في معالجة العديد من الأمراض وفي أغراض التجميل والزينة حيث عرف عن نساء البربر دهن شعورهن بالزيت لتصبح لماعة نظرة[451].

II-2-3 خصائص الزيت الأفريقي:

لما حلّ الرومان بأفريقيا وجدوا اهتمام الأفارقة بزراعة هذه الشجرة فما كان منهم إلا مواصلة السير في هذا الاتجاه بعد أن وجدوا قاعدة اقتصادية في المنطقة نمت منذ عهد الملوك النوميد[452]، وبهذا عرفت أفريقيا ازدهارا في زراعة هذا النوع أكثر مما عليه اليوم، و شهدت وسائل الإنتاج تطورا ملحوظا ساهمت في زيادة الإنتاج بالإضافة إلى توفر الشروط المناخية المناسبة لإقامة هذه الزراعة التي تتميز بها أفريقيا.

حاول بلين استثناء أفريقيا من المناطق التي تنتج الزيتون حيث يقول:" إن المقاطعات الأخرى تنتج الزيتون ما عدا أفريقيا التي لا تنتج إلا الحبوب، هذه الأرض هي مملكة سيريس *(Cérès)* التي لم تجعل الزيت والخمر من نصيبها ولكن ما تنتجه من القمح كاف لازدهارها"[453]، غير أن هذا المؤرخ قد تراجع عن هذا الحكم في العديد من المواضع بل وذكر أن هناك نوعا من الزيتون الطري النادر الذي لا يوجد إلاّ في أفريقيا وامريتا ***(Emerita)*** مذاقه حلو ينضج ويجف لوحده حتى يصبح أحلى من الزبيب[454].

اصدر العديد من الباحثين حكما قاسيا بخصوص جودة الزيت الأفريقي حيث اعتبروه ذا نوعية رديئة لذا يستعمله الرومان في إنارة المصابيح وفي الحمامات، والسبب حسبهم يعود

---

(451) *Laoust (E.), Op.Cit., p460.*
(452) *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit., p74.*
(453) *Pline l'Ancien ,XV,III.2.*
(454) *Ibid.,XV,4.*

إلى عدم حرص الأفارقة على صنعه بطريقة جيدة واعتمادهم على وسائل بدائية في إنتاجهم له بالإضافة إلى حرصهم على وفرة المحصول أكثر من حرصهم على جودته[455]، والعجيب في الأمر أن هؤلاء لم يبنوا فرضياتهم على نتائج توصلت إليها الأبحاث أو على استنتاجات مختصين في علم النبات وإنّما استخلصوا حكمهم هذا من قصيدة هجائية للشاعر يوفينال*(Juvénal)* الذي وصف فيها الزيت الأفريقي الذي عكف أبناء مسيبسا على إرساله إلى روما بأنه زيت جعل حمامات روما مقرفة وانّه لشدة حموضته ورداءته يدفع حتى سموم ولسعات الثعابين[456].

لا يمكن الاقتناع بفرضيات هؤلاء ببساطة طالما أن الأبحاث المتخصصة لم تشر إلى ذلك ويبقي هذا الحكم في نظرنا حكما غير موضوعي لم يبن على أدلة علمية أو شهادة خبير من تلك المرحلة مثلا، وإنّما بني انطلاقا من عاطفة وأهواء شاعر عرف عنه الهجاء ؟ ، وقد سار على نفس النهج رستوقتزف هو الآخر الذي اعتبر أن الزيت الأفريقي ارخص واقل جودة من الزيت الاسباني[457]، والحقيقة أن الشروط المناخية المساعدة على إنتاج الأنواع الجيدة منه هي أكثر ملاءمة في أفريقيا منها في أروبا " فأساس الزيت يأتي من الحرارة " كما عبر عن ذلك بلين نقلا عن ثيوفراست *(Théophraste)*[458]، وحتى هنريات كامبس قد أكدت أن ثمرة الزيتون الأفريقي اغني بالمواد الدهنية مقارنة بأنواع الزيتون المغروسة بفرنسا بسبب الحرارة التي تحضي بها أشجار الزيتون الأفريقية مقارنة بنظيرتها في أروبا[459].

ففي كل الأحوال يبقى موضوع جودة الزيت الأفريقي من عدمه محل جدال ويحتاج إلى بحوث متقدمة خاصة من طرف المختصين في علم النبات، لانّ حجج الباحثين الغربيين غير

---

[455] *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile…Op.Cit., p63. ; Gsell(St.), l'Algérie dans l'antiquité…Op.Cit., p68. ; Lacroix (F.), Afrique Ancienne (produits végétaux) , R.Af., Volume13, 1869,p99. ;* جوليان(شارل أندري)، مرجع سابق، ص209 .

[456] *Juvénal ,Satires, V,v88. D'après Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile… Op.Cit., p63.*

[457] رستوقتزف.م ، مرجع سابق، ص221.

[458] *Pline l'Ancien ,XV,III.3.*

[459] *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine …Op.Cit., p 14 .*

كافية للحكم عليه، خصوصا وانّ المؤرخين الذين عاصروا تلك المرحلة ما انفكوا يمدحون مختلف المحاصيل التي تنتجها أفريقيا ويشيدون بجودتها كالتمور والعنب والقمح...الخ فمن غير المعقول أن يستثني الزيتون من بينها؟ خصوصا وانّ زراعته بالمنطقة قديمة جدا.

II-2-4 صناعة الزيت وتسويقه:

إذا كانت زراعة الزيتون وإنتاجه قد شهدت تطورا بأفريقيا منذ المراحل الأولى التي سبقت الفترة الرومانية فانّ طريقة صناعته وتحويل المنتوج الزراعي إلى زيت قابل للاستهلاك قد عرفت هي الأخرى تطورا في تقنيات التصنيع، فلم يعد الأفارقة يستعملون تلك الطرق البدائية التي تتمثل في سحق الثمار وتركها في الماء تحت صخور كبيرة حتى يطفو الزيت فوق الماء[460]، فقد دلّت المعاصر والصور الفسيفسائية التي عُثر عليها بالمنطقة على تطور في طرق التصنيع.

رجّحت هنريات كامبس أن تكون المعصرة المستعملة خلال الفترة الرومانية بأفريقيا سواء من طرف الرومان أو البربر مستوحاة من المعاصر الإغريقية، غير أن الرومان حسبها قد عملوا على تطويرها وتحسينها عكس البربر الذين ابقوا على معاصرهم كما أخذوها من الإغريق(انظر أدناه الشكل (14) ص138) وانّ المعاصر الرومانية قد عرفت تقدما في التقنيات وإضافات جديدة بينما اكتفى البربر بما هو أساسي فيها دون التفكير في تطويرها والسعي لتحديثها، واعتبرت الباحثة من خلال ملاحظاتها ودراستها لهذه المنشآت أنّ المعصرة الرومانية أكثر انتشارا بأفريقيا من نظيرتها البربرية[461].

طبعا، هذه الآراء تخص الباحثة التي تعمل دائما على تمجيد السياسة والتقنية الرومانية على حساب الشعوب الخاضعة وهي أراء في نظرنا غير موضوعية تحتاج للمراجعة ، وتجدر

---

(460) كامبس (غابريال) ، مرجع سابق، ص63.

(461) Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine…Op.Cit., pp50-52.

الإشارة إلى أن المعاصر الأفريقية تتفاوت في حجمها والقدرة الإنتاجية لها فهي على العموم ثلاثة أنواع:

- **مؤسسات صناعية كبري** على شاكلة مصنع الزيت الموجود بخربة اعقوب بضواحي عين الكبيرة (سطيف) الذي يتوفر على واحد وعشرين قاعدة إنتاج وعصر ومصنع الزيت المتواجد بمداوروش ومصنع بير اسقاون *(Bir Sgaoun)* الذي يقع على بعد 35 كلم جنوب تبسة[462].
- **معاصر حضرية** تتواجد بمناطق الإنتاج الهامة فهي على العموم تتركز حول المدن المهمة مثل تونس وجميلة ومادور...الخ،
- **معاصر ريفية** خاصة بالعائلات ومستغلة من طرفها[463].

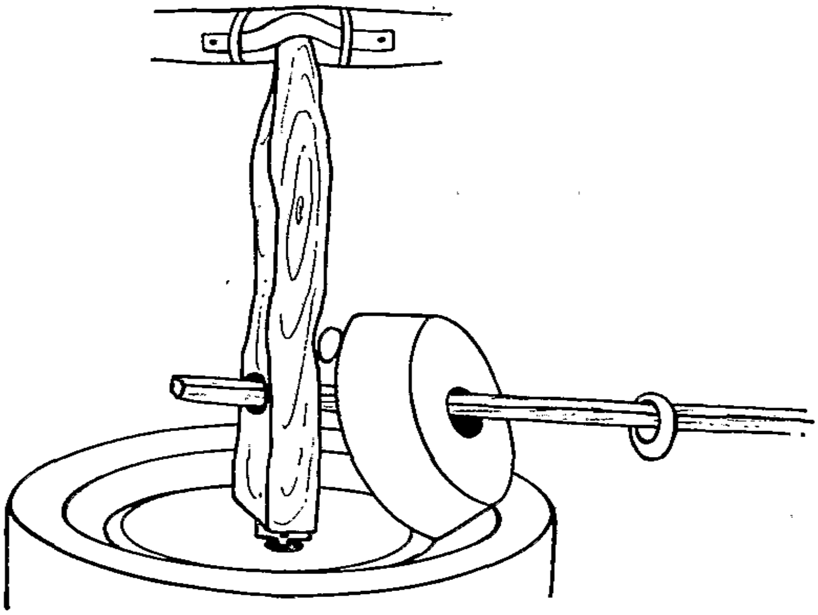
أمّا فيما يتعلق بتجارة الزيت فقد كانت منتشرة بكثرة خلال تلك المرحلة، فإذا كان جزء من الزيت المنتج بأفريقيا يوجّه للاستهلاك العائلي المحلى فانّ الجزء الآخر كان يوجّه للدولة على شكل ضرائب وعائدات تمول بها الأنونة الأفريقية الموجهة لروما، ومن جهة أخري فقد كانت تجارته المحلية منتشرة بافريقيا في مختلف الأسواق خاصة مع الزيادة السكانية و زيادة متطلبات الحياة الحضرية التي تنامت بأفريقيا هذا فضلا عن الاستعمالات المختلفة للزيت التي زادت من درجة الإقبال عليه.

بعد جني الزيتون وعصره يُوجّه القسط المخصص للدولة إلى المخازن *(Horrea)* المخصصة له؛ ففي البداية يوجّه إلى المخازن القريبة ثم إلى المخازن التي تقع عادة على الطرقات الرئيسة ثم يحول بعدها سواء إلى مخازن المدن الداخلية لتموين الجيش والمقاطعة أو باتجاه الموانئ القريبة لشحنه إلى روما عبر الناقلات البحرية، فعلى العموم كانت الكمية الموجهة إلى روما من الزيت الأفريقي معتبرة، فقد عرف عن أباطرة القرن الثاني والثالث توزيعهم المجاني للزيت بروما

(462 *Gsell (St.)* ***, les monuments antiques de l'Algérie*** *, T.II , Albert Fontemoing Editeur, Paris1901, p30.*

(463) *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et son importance économique…Op.Cit., p26.*

خاصة خلال عهد نيرون وانطونيوس وعهد سبتيميوس سيويروس، وكانت الموانئ المكلفة بشحن الزيت باتجاه روما عديدة منها ميناء قرطاج، لبتيس، روسيكادا، صلداي، سيقا، طنجة...الخ ويستقبله الرومان في ميناء أوستيا *(Ostie)*[464].

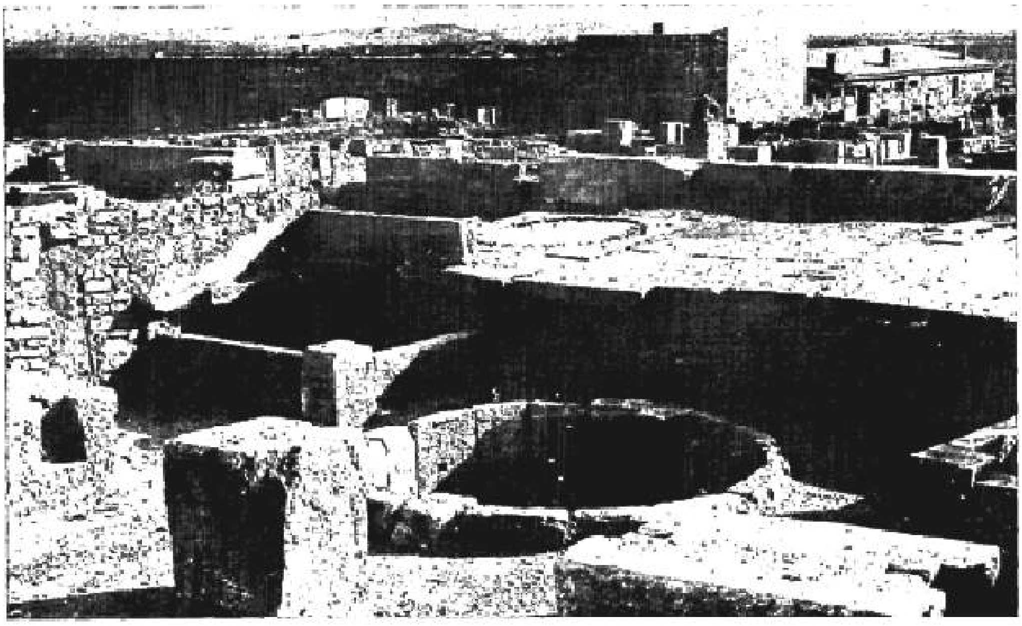


الشكل(14): طاحونة زيتون بربرية من بني فرح (الاوراس)

(Camps-Fabrer(Henriette),l'Olivier et l'Huile...op.cit.,p41.)

---

[464] *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine ...Op.Cit., pp79-82.*



الشكل(15):مصنع زيت روماني من مداوروش(الجزائر)
(Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et son importance économique dans l'Afrique Antique, CIHEAM-Option Méditerranéennes, N 24,p27.)

III. زراعة المدرجـــات:

إنّ عملية التوسّع الزراعي والاستغلال الاقتصادي مرتبطة أساسا بطبيعة الوسط الطبيعي الذي يفرض طريقة الاستغلال، فالتوسّع في السهول والأراضي المستوية يختلف كليا عن المناطق التي تتميّز بالانحدار، وقد أكد العديد من الباحثين المختصين في التاريخ القديم لأفريقيا الشّمالية أنّ الاستعمار الروماني قد اهتم بغزو واستغلال المناطق السهلية الغنية بالموارد المائية ولم يهتم بالمناطق الجبلية التي تحصن بها السكان المحليون ، في مقابل ذلك كشفت البحوث الأثرية المقامة حديثا عن العديد من الآثار والجدران الصغيرة الداعمة للتربة في العديد من المناطق الجبلية والتي نُسب اغلبها إلى الفترة الرومانية، وهذا في الحقيقة ما يدعو للتساؤل عن أصحاب الفضل في هذه الانجازات؟ ولأنّ هذه التّقنيات متطورة حرص بعض المؤرخين على الالتفاف حول الحقائق التاريخية ونسبوا هذا التطور إلى الرومان لأنه وفق نظرتهم المحدودة كل تقنية فيها شيء من التطوّر و روح الابتكار والتكيف مع مختلف الأوساط الطبيعية فهي رومانية ببساطة.

III–1 دوافع استغلال الجبال:

لقد سبق وان اشرنا في الفصل الأول إلى أن الشعب الأهلي قد عرف هذه التقنية في تهيئة الأراضي الجبلية قبل مجيء الرومان بوقت طويل[465]، لكن الشّواهد الأثرية التي تنسب للفترة الرومانية تؤكد أن تطورا ملحوظا واتقانا مميزا قد مسّ تقنيات إنشاء المدرجات، ولعلّ ذلك ما جعل البعض ينسبونها ويصفونها على أنها "مدرجات رومانية"، بل وذهب لوفو بعيدا حين أكد أن زراعة المدرجات قد شغفت بال الرومان أكثر من الشعوب الأخرى التي استعمرت المنطقة، فحسبه لم يهتم الاستعمار الفرنسي بالزراعة الجبلية مقارنة بالاستعمار الروماني الامبريالي الذي اهتم بكل الجهات الغنية ومن بينها الجبال عكس الفرنسيين الذين كانوا قليلي الحضور بهذه المناطق بالرغم من تشابه المناخ والمقاومة خلال المرحلتين[466]، والحال أنّ ما اعتبره لوفو وغيره مدرجات رومانية لأنّ تقنيتها متطورة؟ يتعارض مع المعلومات التاريخية التي تؤكد أن قاطني هذه المناطق هم السكان الأمازيغ الذين لجأوا إليها وتحصنوا بها بعد أن انتزعت منهم أراضيهم بالسهول ، فبعد أن استقر بهم المقام هناك أقاموا بها هذا الشكل من الاستغلال الزراعي بعد أن دفعتهم الضرورة الاقتصادية والعسكرية إلى استغلال الأراضي التي بالجبال وتشييد المدرجات.

فقد كان من بين نتائج استيلاء الإدارة الرومانية على الأراضي السهلية الخصبة حدوث نزوح الأهالي إلى الجبال والاستقرار في سفوحها لتظهر زراعة المدرجات وتتوسع كنتيجة لذلك، فالأفارقة لم يجدوا أمام الضغط عليهم من كل الجوانب المحيطة بالسلاسل الجبلية من وسيلة إلاّ استصلاح الأراضي الجبلية التي عادة ما تتميز بالانحدار وتربتها الحصوية ، ما يجعل مجهوداتهم تتضاعف عما كانوا يبذلونه عندما كانوا يستغلون السهول، ورغم ذلك فقد حاولوا الاستفادة من الجبال اقتصاديا بعدما جعلوها ملجأ يحميهم من بطش الرومان.

---

[465] انظر أعلاه ص55.

[466] *Leveau (Ph.), l'opposition de la montagne et de la plaine dans l'historiographie de l'Algerie du Nord antique, in :<u>Annales de Géographie</u>,T :86 ,N°474,1977,pp 204-205.*

وقد دلّت الأبحاث على أن الأفارقة فرضوا بدافع الحاجة الزراعة في مناطق عالية جدا عن مستوي سطح البحر، فقد عُثر بمنطقة الأوراس على نحو 175 معصرة خاصة بالزيتون بعضها في علو يتجاوز 1500م رغم أنّ المعروف أن شجرة الزيتون بشمال أفريقيا لا تتجاوز 800الى900م [467]، وقد عُثر أيضا بمنطقة قسنطينة عن آثار لمعاصر على علو يتجاوز 1000م ، اجتهدت هنريات كامبس المعروف عنها نسب كل الانجازات إلى الرومان في افتراض أن الرومان يكونون قد ادخلوا إلى المنطقة سلالة زيتون مقاومة للجليد[468]، ويبقي هذا مجرد افتراض لم تأكده البحوث إلى غاية اليوم. ونشير إلى أنّ زراعة الشّعير كانت من اختصاص السكان الأهالي القاطنين بالجبال باعتبار أن التربة بهذه المناطق تربة خفيفة تصلح أكثر لزراعة الشّعير عكس القمح الذي ينتج بالسهول خاصة القريبة من السواحل ، وقد تكون زراعة المدرجات واستغلال الجبال من العوامل التي أثرت على تفضيل الكثير من البربر للشّعير عن القمح[469].

III-2 التقنيات المعتمدة والانتشار الجغرافي للمدرجات:

لقد فرضت البيئة الجبلية على الفلاحين الأفارقة اعتماد تقنية المدرجات لاستغلال المساحات الصالحة للزراعة القليلة بهذه المناطق، ويشار إلى أنّ هذه التقنية تصلح لتربة خفيفة سريعة الجفاف[470]، فقد عملوا على تهيئة هذه الأراضي بإنشاء شبكة من الجدران الصغيرة الداعمة للتربة التي تعمل على منع انجراف التربة من جهة ومن جهة أخرى تسهل عملية تحويل الأراضي إلى انحدار مناسب يسمح باستغلالها وتمنع سيلان المياه الجارفة مسهلة بذلك عملية نفاذ المياه في التربة خاصة بالمناطق الجافة القليلة التساقط [471]، وهذا الابتكار يسمح بالاستغلال الجيد والمحكم لمياه الأمطار والثلوج بصفة ذكية حيث دلّت الأبحاث الأثرية على

---

[467] *Morizot (P.) ,l'Aurès et l'Olivier ,in :Ant.Af. , N° 29, 1993,pp 178-179.*

[468] *Camps-Fabrer(Henriette),l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine..Op.Cit., p14.*

[469] كام بس (غابريال)، مرجع سابق، ص102.

[470] *Despois (J.), la culture en terrasses…Op.Cit.,p43.*

[471] *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine…Op.Cit., p65.*

تواجد العديد من الأحواض الصغيرة التي تسمح بحجز المياه وكذا تواجد قنوات ري صغيرة تنقل المياه بهذه المناطق التي إن لم يتم كبح جريان المياه بها فستتحول إلى سيول جارفة.

لا تزال بعض المدرجات التي تعود للفترة الرومانية منتشرة على العديد من السلاسل الجبلية بأفريقيا الشّمالية ويعود سبب صمودها حسب بونسي *(J. Poncet)* وجان ديبوا إلى تواجدها بالقرب من المراكز الحضرية التي عُرفت باستغلال الموارد المائية والأرض بكثرة من بينها بالبلاد التونسية حاليا المدرجات الواقعة بمطماطة و زغوان والكاف وقفصة وفريانة وغرب القيروان...الخ [472].

والملاحظ أن المدرجات منتشرة تقريبا في كل المناطق الجبلية حتى على مستوى المناطق الخارجة عن السيطرة الرومانية غربا، وتظهر أثارها بصفة جلية في الصور الجوية ببلاد البربر الشرقية وبالأطلس الأوسط المغربي وفي الأوراس والجنوب الغربي المغربي، وقد لاحظ ديبوا أن المنطقة الجنوبية الغربية للمغرب الأقصى تتميز بتواجد مدرجات عديدة مهيأة بشكل جيد رغم أن المنطقة كانت دائما بعيدة عن التأثير المتوسطي والروماني كما سجل نفس الباحث أنّ المناطق التي لا تزال بها تقنية المدرجات محفوظة ومستغلة هي المناطق التي لا يزال أهلها يحتفظون بالتراث الأمازيغي القديم ومنه اللّغة الأمازيغية التي تمثل الوعاء الذي يختزن ذلك التراث ويمارسون تقاليد زراعية بربرية مثل جبل نفوسة وبلاد الشاوية والجبال التي يقطنها الشلوح بالمغرب الأقصى[473].

ما يمكن استخلاصه في الأخير هو أنّ للأفارقة دور كبير في تطوير واستعمال هذه التقنية خصوصا إذا علمنا أنّها كانت معروفة عندهم قبل وصول الرومان إلى المنطقة وقد مثّلت لهم متنفسا ومجالا يمارسون فيه أنشطتهم ويستخلصون منه حاجياتهم بعد أن انتزعت منهم

---

(472) *Poncet (J.) et Despois (J.), pour une Histoire rurale de l'Afrique du Nord, in :* *E.S.C. , 12éme Année, N °3 , 1957, pp 456-457.*

(473) *Despois(J.), la culture en terrasses…Op.Cit.,p48.*

الإدارة الرومانية المناطق السهلية الغنية ، وفي نظرنا لا مجال للحديث عن فضل روماني في هذه التقنية بل ما يجب الحديث عنه هو الإضافة الأفريقية في هذا المجال.

IV. التوسّع الزراعي نحو الجنوب:

لم يكتف الرومان باستغلال المناطق التلية ذات التربة الخصبة فقط، بل عملوا بمرور الوقت على غزو المناطق الجنوبية المتاخمة للصحراء، وكانت الضرورة العسكرية والاقتصادية هي الدافع الرئيسي لهذا التوسّع الذي أثار دهشة الباحثين نظرا لكون مناخ هذه المناطق مناخ جاف مشابه للمناخ السائد في أيامنا هذه وفق ما خلص إليه اغزال في أبحاثه[474]، كما أنّ المصادر الأدبية تشهد بانّ العوامل المناخية لم تكن مثالية ؛ فسالوست مثلا يخبرنا بانّ المناطق المحيطة بكابسا(*Capsa*) خلال فترة الحرب بين الرومان والنوميد بقيادة الملك يوغرطة كانت مناطق جرداء وجافة[475]، وقد اخبرنا القدامى أيضا أن زيارة هادريان إلى افريقيا سنة 128م قد تزامنت مع هطول أمطار غزيرة على المنطقة بعد خمس سنوات كاملة من القحط[476]، ومن جهة أخري فقد بلغت السيطرة الرومانية إلى مناطق بعيدة جدا يشهد عليها حصن القرارة (*Guerrara*) بمنطقة امزاب الذي يعد ابعد اثر روماني عثر عليه بالجنوب الجزائري[477].

IV-1 تطور التوسّع:

إن عملية التوسّع الروماني باتجاه الجنوب قد تمّت بطريقة ضيقة ومحصورة واتخذت خطوات بطيئة وحذرة استغرقت سنين طويلة، وقد كانت للمقاومة المحلية دورها الكبير في كبحها والتأثير عليها، فبهدف إرساء الأمن بالأراضي التي تم التوسّع على حسابها فكرت الإدارة الرومانية في إنشاء سلسلة من التحصينات تعرف باللّيمس وهي عبارة عن جهاز مركب ومعقد كانت له أهداف إستراتيجية دفاعية ، يمتد هذا اللّيمس بشكل أفقي على طول المناطق

---

[474] *Gsell(St.), H.A.A.N., T. I, pp51-52.*
[475] *Salluste, LXXXIX.*
[476] *Spartien, Vie d'Hadrien , XXII.*
[477] *Berbrugger (A.), les romains dans le sud de l'Afrique, R.Af., Volume2, 1957, p283.*

الجنوبية لأفريقيا الشّمالية وقد تغيّر موقعه على فترتين متباعدتين :الأولى خلال القرن الأول للميلاد والثانية خلال القرن الثالث للميلاد ، ويتكون اللّيمس من ثلاثة عناصر أساسية: الخندق(*fossatum*) والحصون المشيدة وراء الخندق وشبكة الطرق الرئيسية والثانوية، والمعروف أن الجنود الرومان يحرصون على تثبيت هذه الإنشاءات قبل الشروع في عملية الاستعمار وقبل توزيع الأراضي[478].

فيما عدا التوسّعات المحدودة على حساب الأراضي القريبة فانّه يظهر بانّ عملية التوسّع قد تمّت على مرحلتين رئيسيتين ارتسمت من خلالهما الحدود الجنوبية للإمبراطورية[479]؛ فالخط الدفاعي الأول (اللّيمس) قد احكم انجازه خلال القرن الأول للميلاد خاصّة في عهد الإمبراطورين تراجان وخليفته هادريان أين كان اللّيمس خلال هذه المرحلة لا يتجاوز الطرف الشّمالي للاوراس متجها نحو الشّمال الغربي إلى سهول سطيف ومجانة ثمّ إلى البرواقية إلى غاية غليزان مقتربا أكثر من البحر المتوسط، وكان الرومان يتنقلون بحرا إلى طنجة (انظر أدناه الخريطة (10) ص145). لكن خلال القرن الثالث نُقلت الحدود جنوبا لتتوسع روما على حساب ارض جديدة خاصة في عهد سبتميوس سيفيروس الذي جعل التوسّع الروماني يبلغ مداه الأقصى جنوبا بموريتانيا ونوميديا حيث تجاوزت الحدود الخط الدفاعي الأول وانتقلت إلى جنوب الاوراس والضفة اليمنى لوادي جدي متجهة غربا إلى جبال الزاب ثم إلى منطقة الحضنة إلى غاية تيارت وما بعدها(انظر أدناه الخريطة (10) ص145).

إنّ هذا النظام الدفاعي لم تفرضه فقط الظروف السياسية والخوف من الهجمات المستمرة للقبائل القادمة من الجنوب على الأراضي الزراعية وإنّما فرضه أيضا التطور الزراعي ورغبة الاستعمار في تحسين موارده بشكل يعود بالفائدة على الوضعية الاقتصادية والمالية

---

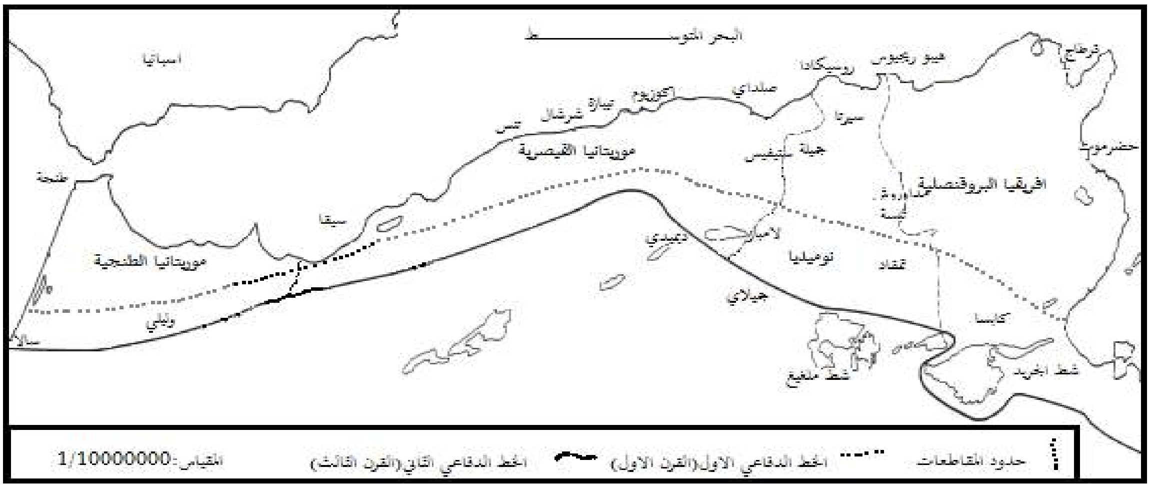
(478) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص184.

(479) *Gsell(St.), l'Algérie dans l'antiquité…Op.Cit., pp46-60. ;*

-شنيتي (محمد البشير)، **الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريتاني) ومقاومة المور**، ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999، ص ص 117-125.

لروما[480]، ولابد هنا الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبه الجنود وخاصة الفيلق الأغسطي الثالث الذي اشرف على إنشاء اللّيمس وكلف بكنترة الأراضي والتوسّع الجنوبي، وخلال عملية التوسّع هذه ركّز الرومان أكثر على الأراضي الخصبة وهو ما يفسر لنا الصفة غير المنتظمة لليمس ، فقد كان التنظيم العسكري والإداري الروماني يأخذ بعين الاعتبار عدّة حقائق أثناء إنشاء التحصينات منها خصوبة الأراضي والمحاور التي تسمح بمراقبة القبائل والطرق المهمة في التجارة والهجرة[481].

إن المناطق التي تقع خارج اللّيمس بقيت حرة تتنقل فيها القبائل البدوية بكل حرية رغم أنّها تتميّز بفقرها من ناحية الموارد، وتجدر الإشارة إلى أنّ أغلب المناطق لم تتعرض للتأثير الروماني ماعدا البعض منها؛ فتوتان يرى أن سبتيميوس سفيروس وخلفاؤه قد فرضوا على قبائل القرامنت استقبال بعض الحاميات العسكرية الرومانية رغم أن هذه القبائل قد بقيت دائما خارج اللّيمس الروماني [482].



الخريطة(10): الحدود الجنوبية لأفريقيا خلال الفترة الرومانية

المصدر: قداش(محفوظ)، مرجع سابق، ص133.

---

(480) *Baradez (J.),Op.Cit.,pp207-208.*

(481) *Hilali (A.) , la conquête du désert et la gestion de l'eau en Afrique Romaine : environnement et modes d'occupation ,chaire de recherche du canada en interactions société-environnement naturel dans l'Empire Romain : Revue d'histoire comparée de l'environnement , Canda 2004,p13.*

(482) *Toutain (J.) , les romains dans le Sahara, in : M.A.H. , T.16, 1896, p77.*

IV-2 دوافع التوسّع الزراعي وأهدافه:

دلّت التشريعات الزراعية التي عُثر عليها بأفريقيا أنّ بداية البحث عن مساحات وأراض زراعية جديدة لخدمتها قد برزت أكثر خلال القرن الأول للميلاد، فقد شجع الأباطرة عن طريق القوانين التي سنوها أو أحيوها المزارعين على الإقدام على استصلاح أراضي الأحراش والمستنقعات والغابات...الخ إنّ هذه السياسة في البداية كانت تشمل الأراضي الواقعة داخل المستثمرات الكبرى أو الأراضي التي خلّفها المهندسون الرومان أثناء عملية الكنترة ، لكن سرعان ما فكرت الإدارة الرومانية بدفع الحدود نحو الجنوب إلى أراض بكر غير مستغلة ابتغاء تحقيق جملة من الأهداف.

يأتي في مقدمة الأهداف التي أراد الرومان تحقيقها إخضاع القبائل البدوية التي تشكل تهديدا مستمرا على المزارعين المستقرين حيث تتعرض محاصيلهم بصفة مستمرة لعمليات النهب والتخريب، ولم تتوقف هذه التهديدات حتى مع استكمال التحصينات الحدودية مع نهاية القرن الثاني للميلاد فالحرب بين الطرفين قد استمرت إلى ما بعد هذه الفترة؛ لقد حاول بعض المفتتنين بالحضارة الرومانية أن يصوروا لنا تلك السياسة المثالية في نظرهم التي انتهجها الحكام الرومان تجاه القبائل البدوية المعرقلة لديناميكية التوسّع نحو الجنوب ، ففي وجهة نظر السيدة كامبس فانّ روما قد استعملت سياسة مزدوجة تعتمد على الترهيب والترغيب في نفس الوقت؛ فالحكام الرومان حسبها لم يستعملوا فقط القوة من اجل طرد القبائل البدوية خارج اللّيمس بل استعملوا أيضا الوسائل السلمية المتمثلة في تشجيعهم على الاستقرار وممارسة زراعة الزيتون بصفة خاصة ولأجل تحقيق أهدافها اضطرت الدولة الرومانية إلى التدخل بنفسها من اجل تأمين الأهالي المزارعين وتأمين أراضيهم وملكياتهم[483]. وقد حرص بواسيي***(Boissier)*** هو الأخر على تمجيد السياسة الرومانية بهذه المناطق فللرومان حسبه الفضل الكامل في تحضير أفريقيا وهم حسبه من جذب البدو شيئا فشيئا إلى الأراضي الخصبة وغمروهم بالأمن وجعلوهم

---

[483] *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et son importance économique…Op.Cit., pp21-22.*

يؤمنون بحياة أفضل ثمّ حملوهم على غزو الأراضي البور المجاورة لهم وبهذا أصبح البلد غير القابل للسكن يتوسّع دون توقف ولم تبق هناك ارض قابلة للزراعة لم تزرع[484].

لا شك أن في أوصاف هؤلاء الباحثين بعض المبالغة، فروما في أفريقيا كانت أمام موقف صعب خاصة إذا علمنا أنّها كانت في هذه المناطق مرغمة من جهة على مقاومة الجفاف ومن جهة أخرى على ترويض البدوي وتغيير نمط حياته الذي ألفه وورثه جيلا بعد جيل ، ولا ينبغي انطلاقا من آراء هؤلاء الباحثين أن نقتنع ببساطة بتحليلاتهم فإلى جانب هذه المثالية وحسن التعامل الذي يصورونه هناك العديد من الحروب والصدامات المستمرة على الحدود الجنوبية التي تدلّ على الرفض والمقاومة، فقد اخبرنا ديون كاسيوس*(Dion Cassius)* بانّ الجيتول قد شنّوا حربا ضد الملك يوبا الثاني والرومان بعد أن أرادا فرض قبضتهما على المناطق الصحراوية لكن رغم تحقيقهم للانتصار في البداية إلاّ أنّهم استسلموا وانهزموا في النهاية وكان ذلك في العام السادس للميلاد[485]، كما اخبرنا تاسيت *(Tacite)* عن الحروب التي قادها البربري تاكفاريناس زعيم قبائل الموسولام في عهد تبيريوس جنوب البروقنصلية وقد جرّ معه مازيبا زعيم الموريين للمشاركة في هذه الحرب التي دامت سبع سنوات رفض خلالها تاكفاريناس الاستسلام بل و"تجرأ" حسب تاسيت بمطالبته تسوية للأمر باستعادة الأراضي المنتزعة من هذه القبائل مقابل توقيف الحرب[486].

لقد فكر الرومان مبكرا في عملية توطين هذه القبائل والقضاء على ظاهرة البداوة[487] التي تميز المناطق الداخلية ، فهي العملية الكفيلة في نظرهم التي تمهد لاستغلال اقتصادي

---

[484] *Boissier (G.), **l'Afrique Romaine, promenades archéologiques en Algérie et en Tunisie**, 5eme édition, Librairie Hachette et Cie, Paris 1912, pp135-136.*

[485] *Dion Cassius, **Histoire Romaine**, traduit par E.Gros, librairie de Firmin Didot frères , Paris 1845, LV, 28, 3-4.*

[486] *Tacite, **Annales**, traduit par Dureau de Lamalle, Paris 1827, III, XX.*

[487] إن البداوة بشمال أفريقيا ظاهرة قديمة جدا وفق ما اخبرنا به القدامى مثل هيرودوت والمعاصرين للفترة الرومانية مثل سالوست وبوليب واسترابون الذي أشاد في هذا الشأن بالمجهودات التي قام بها ماسينيسا من اجل توطين البدو وتشجيعهم على استصلاح الأراضي للاستقرار وممارسة الزراعة ،وقد وصف ابن خلدون البدو وصفا بليغا جامعا حيث يقول:" إن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون

منظم، ويري البعض أن الرومان قد وفقوا جزئيا في تحقيق هذا الهدف ، فخلال القرون الثلاثة الأولى للسيطرة الرومانية تراجع نمط البداوة وربحت الزراعة مساحات واسعة من الأراضي(488)، فقد تزايدت درجة التحضر في أقاليم القبائل التي تم تثبيتها وعُوض النظام القبلي الذي كان سائدا بالتنظيم الإقليمي والإداري المستحدث وتغيرت عادات الرعي والنهب إلى الزراعة والاستقرار(489)، وقد سمحت المدن التي بها مخازن والمدن التي استقر بها الجنود القدامى في تكوين نواة من السكان المترومنين التي مارست هي الأخرى تأثيرا على المجموعات السكانية المحيطة بها(490).

خلال المرحلة الأولى السابقة للعهد السيفيري وفي إقليم موريتانا كانت عملية ضمّ الأقاليم التي سيطر عليها المور إلى الإمبراطورية الرومانية قد تمّت دون مراعاة الاختلافات النوعية بين أراضي تلك الأقاليم وما يتوقع الاستفادة منه اقتصاديا بعد عملية الاحتلال نظرا لانّ الدوافع العسكرية الدفاعية كانت أولى من غيرها ولكن ابتداء من العهد السيفيري تميزت العملية بانتقاء الأراضي الخصبة للتوسع على حسابها(491).

ولعلّ من بين الأهداف الهامة التي سعى الرومان لتحقيقها أيضا هو الاستجابة لأمرين هامين؛ يتعلق أولهما بأطماع كبار الملاّك والمستثمرين المتزايدة في ضمّ أراضي وضيعات جديدة

على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي ، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد يأوون إلى الغيران والكهوف..." انظر: ابن خلدون(عبد الرحمان)، **مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: شحادة خليل، مراجعة زكار سهيل ، دار الفكر، بيروت ، لبنان 2001، ص151.

(488) *Bernard (Augustin) et Lacroix (Nicole), L'évolution du nomadisme en Algérie. In: Annales de Géographie, T.15,N°80, 1906, p153.*

(489) *Kotula (T.)et Michalak (M.), Op.Cit., p 345.*

(490) *Dondin-Payre (Monique), recherches sur un aspect de la romanisation de l'Afrique du Nord, l'expansion de la citoyenneté romaine jusqu'à Hadrien, in: Ant.Af., N°17, 1981, p112.*

(491) شنيتي (محمد البشير)، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني.... مرجع سابق، ص ص271-272.

خصوصا وانّ اغلبهم من الطبقة السيناتورية والشخصيات المهمة بالإضافة إلى توزيع الأراضي على قدماء الجند تكريما لهم على خدماتهم، ويتعلق الثاني بتزايد الهجرات ونمو السكان حيث لجأت الإدارة الرومانية إلى الاستيطان الزراعي خاصة على عهدي أغسطس وتيبريوس وهو ما جعل المستوطنين يتوغلون نحو الداخل ويستولون على الأراضي الزراعية و الموارد الاقتصادية لهذه المناطق[492].

وفي الأخير لا يجب أن نتجاهل الأهداف الاقتصادية والمالية للإمبراطورية الرومانية فأفريقيا بالنسبة للإمبراطورية ارض للاستغلال لا للعمران[493]. إنّ روما تدرك تمام الإدراك أن الاستغلال الواسع والمثالي للإمكانيات الاقتصادية الأفريقية سينعكس إيجابا على الإمبراطورية كلها ولهذا شجعت استصلاح أراضي البور والأراضي البكر وأقامت السدود وقنوات الرّي وقامت بمسح الأراضي، فالانتعاش الاقتصادي بأفريقيا يحلّ مشاكل التغذية بروما ولهذا سايرت الإدارة الرومانية أطماع المستثمرين باعتبار أنّها ستساهم في زيادة الأنونة وزيادة مداخيل الدولة من الضرائب.

IV-3 النهضة الزراعية بالجنوب:

لقد كان توسيع الزراعة إلى الحدود الجنوبية لأفريقيا السبيل الوحيد لروما الذي تحقق من خلاله أهدافها ، فقد استجابت للأطماع المتزايدة للطبقة البرجوازية الرومانية من جهة وسعت لتلبية حاجيات سكان روما من جهة أخري خاصة في ظل التوزيع المجاني لبعض المحاصيل الزراعية بروما ، وما زاد من أهمية هذا التوسّع هو حماية هذا المجال المرومن بواسطة حدود محصنة واستحكامات دفاعية فعالة (اللّيمس) ما جعل المزارعين يستغلون أراضيهم بكل أمان بعيدا عن هجمات البدو ، وقد كان لهذا التوسّع أثره البالغ في ازدهار الاقتصاد حيث طرق المزارعون الحدود الجنوبية وفرضوا بمجهوداتهم في مجال الرّي واستصلاح الأراضي ازدهارا ملحوظا في طبيعة

(492) شنيتي (محمد البشير)، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني.... مرجع سابق، ص 89.

(493) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص205.

صعبة ناكرة لجميل من يقوم بمجهود لكنها غنية لمن يمنحها المياه حتى يعيد إليها خصوبتها[494].

IV–3–1 منظومة الرّي:

لقد لاحظ العديد من الباحثين خلال فترة الاستعمار الفرنسي وجود آثار لهياكل تعود للفترة الرومانية بالمناطق المحاذية للصحراء كأحواض المياه وقنوات نقل المياه ...الخ فقد أظهرت الدّراسة التي قام بها باراداز*(Baradez .J)* انطلاقا من فحصه للصور الجوية وجود منشآت مائية ريفية في المناطق المجاورة للصحراء خاصة في المنطقة الواقعة بين جبال الحضنة وهضبة النمامشة [495]، كما تتجلى اليوم آثار مدن كانت قائمة بالمناطق الصحراوية حيث شيّدت على أراض مقفرة، أو كانت قبل ذلك عبارة فقط عن أسواق أو قرى صغيرة[496]. فالأرجح أن تكون هذه المناطق خلال الفترة الرومانية مزدهرة زراعيا ، فمدينة تيمقاد أو جميلة مثلا لم تشيّد أبنيتها دون شك في مثل هذا الأفق العاري القاحل أين تبرز أطلالها شاخصة في أيامنا هذه على حد تعبير جوليان[497].

كان للرّي دوره الأساسي في استغلال الرومان للمناطق الجنوبية التي تقع بمحاذاة اللّيمس خاصة جنوب الأوراس ، فالعدد الكبير لأثار الآبار والأحواض والقنوات التي كشفت عنها الصور الجوية والحفريات الأثرية بهذه المناطق تدلّ على الاستغلال الكثيف للمياه خلال الفترة الرومانية وتؤكد أن انتشار الزراعة بها كان أكثر مما هو عليه اليوم[498].

فعلي العموم كانت السياسة المائية الرومانية بالمناطق القريبة من اللّيمس المعروفة بمناخها الجاف وقلة التساقط قد بنيت على عدة أسس نلخصها فيما يلي:

---

(494) *Baradez(J.), Op.Cit.,p165.*
(495) *Ibid.,p185-100.*
(496) *Gsell(St.), l'Algérie dans l'antiquité…Op.Cit., p60.*
(497) جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص20.
(498) *Baradez(J.),Op.Cit., p173.*

- حماية التربة من الانجراف الذي تسببه الأمطار المحلية عن طريق بناء جدران داعمة للتربة لحمايتها وجعل المياه تنفذ في التربة ومنعها من السيلان، فمياه الأمطار بهذه المناطق نادرة ووقتية لذا وجب استغلالها أحسن استغلال.
- حفظ المياه المحلية لأطول مدة ممكنة عن طريق حجزها في السدود أو الأحواض سواء كانت طبيعية أو اصطناعية وهي عبارة عن ارتفاعات ترابية أو حجرية ، بالإضافة إلى استعمال تقنية تقسيم مساحة من الأرض إلى مجموعة من الأحواض لحجز مياه العيون خاصة لتفادي ضياعها، وقد لاحظ دو كودراي *(Du Coudray)* وجود عدة آثار لسدود صغيرة على امتداد الضفة اليسرى لوادي سبيطلة وعدد آخر لهذه السدود بين منطقتي قفصة وفريانة مشيدة بأحجار، كما أشار إلى وجود منشآت مماثلة بمنطقة الحضنة ومنطقة باغاي وعلى وادي جدي الذي عُثر به على سد يزود الضفة اليمني واليسرى بالمياه على حد سواء[499]. كما عُثر على العديد من آثار السدود المبنية خاصة في الخوانق الجبلية الضيقة في وادي بريكة *(Thobonae)*[500] وسد آخر على وادي القصب بالمسيلة[501] وسد الجير *(Ced el Djir)*[502] ، وبالأوراس هناك العديد من السدود بالوادي الذي يتواجد بمنطقة هنشير بو فروح *(Henchir Bou Ferouh)*[503]، أما على وادي أغريب *(Ogrib)* تظهر لنا الصور الجوية سدا مربع الشكل طول ضلعه يتراوح بين40 و50 م، يري باراداز أن له ثلاث وظائف؛ تجميع مياه الوادي ، وتقدير كمية المياه بالإضافة إلى انّه يسمح باستغلال المياه وفق نظام فعّال وديناميكي في عملية الرّي[504]. أما فيما يخص الأحواض فهي منتشرة بكثرة على ضفاف الأودية ولا تخلو مستثمرة زراعية من منشآت من هذا النوع نذكر على سبيل المثال حوض تامقرا *(Tamagra)* ذو 80 م في الطول و30 م في العرض[505]، والأحواض المنتشرة

(499) *Du Coudray La Blanchère,Op.Cit., pp77-81.*
(500) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°37, N°7.*
(501) *Ibid., F°25, N°75.*
(502) *Ibid., F°25, N°28.*
(503) *Ibid., F°38, N°83.*
(504) *Birebent (J.),Op.Cit.,p94.*
(505) *Ibid.,p146.*

بكل من كدية الخطوة *(Koudiat el Kretoua)* و راس وادي الرمل*(Ras oued er Remel)*[506] بمنطقة الجلفة، وأحواض بالقرب من مصب وادي بريش*(Berriche)* المنتشرة على ضفتيه بالقرب من سهل الحضنة[507].

- استغلال المياه الجارية عن طريق إنشاء السدود على أسرة الأودية وهي صغيرة وقليلة الارتفاع بهذه المناطق وأيضا عن طريق إنشاء قنوات جانبية لتحويل المياه إلى مناطق أخري وقد لاحظ باراداز وجود هذه القنوات في واد بانيان*(Baniane)* محفورة على ضفتي الوادي، وبالضفة اليمني لوادي جمورة *(Djemorah)* ببسكرة عُثر على قنوات محفورة في صخور تنقل المياه من الوادي إلى تجمع سكاني قديم[508]، وتتواجد قناة عظيمة تدعي ساقية بنت الخراس*(Saguiat-Bent-el-Kras)* التي يبدأ امتدادها بالقرب من واحة أولاد جلال عبر صحراء مقران إلى غاية شط ملغيغ[509]، وقد عثر لويس ليشي *(Leschi L.)* هو الأخر على آثار قناة نقل للمياه قريبة من نبع عين شرشار*(Ain Cherchar)* الذي أشار إليه اغزال[510] ، وقد عثر على بعد 200م من هذه العين على نقيشة متعلقة بانجاز هذه القناة ورد فيها أن المسؤول عن تشييدها هو كلوديوس سيبتيمينوس*(Clodius Septiminus)* مهندس*(librator)* تابع للفيلق الأغسطي الثالث[511]، كما عُثر أيضا على قناة رومانية مماثلة ببوسعادة بالقرب من أولاد خالد *(Ouled Kraled)*[512].
- توزيع المياه على الأراضي بنقلها سواء من الأودية أو السدود أو الأحواض أو مباشرة من المنابع الطبيعية حيث أن هناك قنوات رئيسية وأخرى ثانوية.
- إعادة تجميع المياه الفائضة بعد عملية الرّي حيث أن المياه الزائدة عن الحاجة بعد أن تشبعت الأرض بالمياه يعاد تجميعها في الأسفل لإعادة استغلالها، وقد لاحظ باراداز

---

(506) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°35, N°7.*
(507) *Ibid., F°37, N°31-34.*
(508) *Baradez (J.),Op.Cit., p192.*
(509) *Du Coudray La Blanchère,Op.Cit., p82.*
(510) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°27, N°347.*
(511) *Leschi (L.), Un aqueduc romain dans l'Aurès, R.Af.,Vollume 85, 1941,pp23-30.*
(512) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°36, N°2.*

وجود ثلاث مناطق تستعمل بها هذه التقنية في المنحدرات الواقعة بين جبل متليلي ووادي القنطرة[513].

ومن الواجب الإشارة أيضا إلى العيون والآبار التي تمثل هي الأخرى مصدرا من مصادر المياه بهذه المناطق، فعلى طول المناطق المحاذية للّيمس والواحات الصحراوية تنتشر هذه الآبار والعيون اغلبها جاف في وقتنا الحالي لكن في القديم كان لها دور هام في ري المحاصيل الزراعية مثلما اشرنا إليه في لامصبا، نذكر من بينها بير ماجور *(Madjor)*، وبير سيدياس*(Cedias)* بمنطقة خنشلة[514]، وفي عين البيضاء بمنطقة قصر بلقاسم هناك بئر يدعي بير الدروج[515]، وبهنشير جيمي بالأوراس *(Henchir Gemi)* هناك بئر رومانية[516]. أما العيون فهناك في ترمونت *(Tarmount)* بالمسيلة على سفح جبل الطرف*(Tarf)* العديد من العيون الرومانية[517]، وهناك عين سلانيس*(Slanis)* التي تقع جنوب سهل المحمل بخنشلة ونحو ثمان أخري بالقرب منها أهمها عين اجمل *(Ain Djemel)*[518].

إنّ هذه المنشآت المائية على حد تعبير ضابط الطيران الفرنسي باراداز تتعدي المجال الفردي وهي دليل على تنظيم كامل ودقيق[519]، وقد لاحظ بيربان هو الأخر أن منشآت الرّي المكتشفة لها نفس الخصائص ومتشابهة بين مختلف المناطق ما يوحى حسبه بأنها كانت عملا لسلطة عليا[520]، طبعا هو يقصد الإدارة الرومانية ولكن علينا ألاّ نهمل دور الأهالي في المساهمة في انجازها، ثم أنّ اغلب هذه المنشآت قد بني على قاعدة محلية كانت متواجدة قبل وصول الرومان إلى هذه المناطق، ومن جهة أخرى فانّ حضور هذه المنشآت المائية في مناطق

---

(513) Baradez (J.), Op.Cit., p194.
(514) Birebent (J.),Op.Cit.,pp131-133.
(515) Gsell (St.) , A.A.A. , F°28, N°267-268.
(516) Ibid., F°38, N°88.
(517) Ibid., F°25, N°10.
(518) Birebent (J.),Op.Cit.,p140.
(519) Baradez(J.),Op.Cit.,p165.
(520) Birebent (J.),Op.Cit.,p122.

هي اليوم جافة وقاحلة لدليل كاف في نظرنا لتأكيد التوسّع والازدهار الزراعي الذي عرفته هذه المناطق خلال الفترة الرومانية.

IV-3-2 الزراعة واستصلاح الأراضي:

إنّ الزراعة بالمناطق الشّمالية للصحراء تعتمد على الرّي كعامل ضروري لنمو المزروعات وازدهارها، والزراعة المروية بهذه المناطق لها ثلاث مصادر أساسية وهي مياه الأمطار على قلتها، والمياه الجوفية المتمثلة في مياه الآبار والعيون الطبيعية، بالإضافة إلى المياه السائلة(الأودية) أو المتجمعة التي تنقل إلى مناطق أخري عبر قنوات ، وحسب باراداز فانّ النخيل يتطلب كميات كبيرة من المياه عكس زراعة القمح التي تتطلب اقلّ ممّا يخصص للنخيل أما شجرة الزيتون فتتطلب كميات متوسطة من المياه أكثر من القمح واقلّ من النخيل(521)، وهذا دون شك ما شجع على توسيع زراعة الحبوب والزيتون إلى هذه المناطق.

هناك العديد من الهياكل الزراعية التي عثر عليها الباحثون في هذه المناطق القاحلة، من بينها آثار المعاصر الخاصة بالزيتون المنتشرة بكثرة في مناطق انقرض منها نهائيا في وقتنا الحالي مما يدلّ على الانتشار الواسع في زراعته خلال الفترة الرومانية(522)، كما انتشرت بالمناطق القريبة من الصحراء زراعة الحبوب التي تشهد عليها آثار الطواحين المائية المقامة على مستوى مجاري الأودية جنوب الأوراس(523)، ففي بعض المناطق المتواجدة على ضفاف الأودية الصحراوية هناك كثافة في انتشار البساتين الناتجة عن عملية استصلاح الأراضي وتهيئتها وربطها بشبكة من قنوات الرّي ما ولّد سلسلة من الواحات القريبة من بعضها البعض(524).

لقد حملت المخلفات الأثرية التي عثر عليها بالأوراس أدلة على اتساع الخريطة الزراعية لتشمل أنواع أخري منها على الخصوص زراعة الزيتون التي تسببت في إجلاء القاطنين بهذه

---

(521) *Baradez(J.), Op.Cit.,p180.*
(522) *Camps-Fabrer (Henriette), l'Olivier et son importance économique ..Op.Cit., p21.*
(523) *Leschi (L.) , nouvelles recherches aériennes sur le ''Limes'' d'Afrique , **R.Af.**, Volume 91, 1947, p208.*
(524) *Baradez (J.),Op.Cit., p199.*

المناطق نحو الجنوب ونزع الأراضي الرعوية منهم بهدف استصلاحها وزراعتها[525]، من جهة أخري كان للشعب الأهلي أيضا دوره في استصلاح هذه الأراضي بعد أن طُرد إليها وهو ما دلّت عليه ضفاف الأودية الصحراوية التي عثر فيها على العديد من منشآت الرّي وهياكل الاستغلال الزراعي خصوصا المعاصر التي تدل على انتشار زراعته بهذه المناطق، ولعلّ استجابة هذه الشجرة للشروط المناخية التي تتميّز بها أفريقيا هي التي شجعت الرومان والأهالي على توسيع زراعتها في المناطق الداخلية والجنوبية خصوصا وأنها تتأقلم نسبيا مع المناخ الحار بشرط ريها باستمرار، وقد لاحظ باراداز تواجد طاحونات خاصة بالزيتون ومعاصر وأحواض وبقايا جرار بكثرة ويقول انّه عثر على معصرة بمنطقة سبع مقاطع *(Seba mgata)*[526].

اشتهرت ضفتا وادي العرب بالبساتين الممتدة على جانبيه ، التي اتخذت أشكالا متعدّدة بعضها مربع وبعضها الآخر مستطيل، مدعومة بأحجار كبيرة ، تنتشر بها زراعة الحبوب في المناطق التي تقع شمال قلوع التراب *(Gueloa el Trab)* وزراعة الزيتون بالمناطق الجنوبية، وقد عُثر على طول وادي العرب على طواحين خاصة بالقمح ما يدلّ على انتشارها في المنطقة منذ القديم ، كما عُثر على معاصر وأحواض خاصة بالزيتون ابتداء من وادي ملاقو*(oued Mellagou)* إلى غاية ولجة *(Ouldja)* وهنا أيضا تمّ العثور على قاعدة مربعة تسحق عليها حبات الزيتون[527].

بالموازاة مع ذلك فقد عُثر على جوانب نفس الوادي على العديد من آثار منشآت الري، وتتمثل أساسا في القنوات الناقلة للمياه التي تتواجد في اعلي المزارع بانحدار يسمح لها بتزويد هذه البساتين بالمياه الضرورية للرّي، فقد عُثر على إحدى هذه القنوات على مجري وادي ملاقو التي تتزود من منبع بعيد ببعض الكيلومترات منها وأخرى تتجه من قلعة التراب إلى ولجة، وهناك حوض من10 أمتار في الطول و6 في العرض مصنوع من مواد بدائية على مجري وادي

---

(525) *Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit., p71.*

(526) *Baradez (J.),Op.Cit.,p200.*

(527) *Alquier (J.) , les ruines antiques de la vallée de l'Oued el Arab (Aurès), R.Af., Vollume85, 1941,pp33-35.*

العرب[528]، كل هذه الأعمال المائية تفسّر لنا الازدهار الكبير لهذه المنطقة خلال الفترة الرومانية.

وبمنطقة القنطرة أكّد باراداز أنّ المساحات المزروعة بها في القديم كانت أكثر بحوالي عشرين مرة من المساحة الحالية، ويشهد الباحث على وجود أثار زراعة الزيتون بجنوب منطقة القنطرة، حيث يقول انّه قد عثر على احد جذورها المتحجرة كدليل على انتشار زراعة الزيتون بالمنطقة خلال الفترة الرومانية[529].

أكد بيربان أنّ سفح الأوراس كان كله مستغلا من طرف الرومان وهناك العديد من الدلائل التي تدلّ على هذا الاستغلال من بينها تواجد أحواض وقنوات الرّي في ارتفاع عال، وتواجد أثار مستثمرات سواء رومانية أو محلية على امتداد هذا الإقليم، كما أشار إلى ما سماه السهل الصحراوي جنوب الأوراس والذي حسبه كان مستغلا من طرف الرومان نظرا للعدد الكبير من منشآت الرّي القديمة المتواجدة به خاصة قنوات نقل المياه[530].

كما أنّ هناك مجمع زراعي بالأوراس بالقرب من وادي الشرفة ووادي سيدي فتح الله به أحواض ومعاصر بالإضافة إلى الآبار[531].أما بمنطقة بادس(*Badès*) فقد عُثر على عدد كبير من المنشآت والآثار المائية تتمثل في قنوات وخزانات وأحواض (انظر أدناه الشكل (16) ص159)، تضاف إليها العديد من آثار المعاصر المتواجدة بالمنطقة الواقعة بين ليانة وبادس وهي دليل كاف على انتعاش الزراعة بالمنطقة في المرحلة الرومانية[532] .

وقد عرفت الواحات الصحراوية في تلك المرحلة زراعة مكثفة ومزدهرة ، فقد شُرع في استعمارها ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد بالسيطرة على قابس وقفصة إلى غاية القرن الثالث بعد الميلاد أين تمّت السيطرة على واحة غدامس، وقد ساهم ذلك في مراقبة حركة الهجرة

(528) *Alquier (J.) , Op.Cit., pp35-36.*
(529) *Baradez (J.), Op.Cit. , pp200-201.*
(530) *Birebent (J.),Op.Cit., pp288-293.*
(531) *Gsell (St.) , A.A.A. , F°38, N°90.*
(532) *Birebent (J.),Op.Cit., p186-191.*

والتجارة ، في هذه الواحات تنتشر أعراف قديمة حول تقسيم المياه التي تتم بطريقة عادلة يحرص كل مالك على حقه كاملا في مياه الرّي التي عادة ما تكون مياه عيون أو آبار أو مياه أودية موسمية[533].

وقد قدم لنا بلين وصفا رائعا عن الاستغلال الزراعي المكثف بالواحات بناحية قابس *(Tacape)* التي تقع على حدود الصحراء جنوبا في سواحل السيرت الصغير غربي لبتيس الكبرى *(Leptis Magna)* حيث يقول:" هنا تحت نخلة مترامية الأطراف تنبت شجرة زيتون ، وتحت شجرة الزيتون شجرة تين ، وتحت شجرة التين شجرة لوز ، وتحت شجرة اللّوز كرمة، وتحت الكرمة يزرع القمح ثم نباتات قرنية وأخيرا الخضروات ، كل هذا في نفس العام وكل واحدة تنمو تحت ظلّ الأخرى"[534]. إنّ أهمية هذا النّص تكمن في انّه يقدم لنا أمثلة عن الزراعات المنتجة في الواحات في تلك الفترة ، فباستثناء النخيل فانّ باقي المحاصيل معروف أنّها تنمو في المناخ المعتدل أي محصورة في المناطق الشّمالية لأفريقيا ، ولعلّ السبب في هذا الاستغلال المتنوع والمكثف يكمن في رغبة الفلاحين في استثمار طول مدّة إنتاج بعض الأشجار في إنتاج محاصيل أخرى موازية لها واقتصاد كمية المياه خصوصا وانّ المياه نادرة بالصحراء ، والعامل الأساسي في نجاح هذه العملية يكمن في استفادة النباتات من الظلّ الذي توفره لبعضها البعض وهذا ما يخفف عنها ندرة المياه وقسوة المناخ ، ولا تزال هذه الطريقة ممارسة بواحات الصحراء الجزائرية رغم أنّها ليست بالكثافة التي تحدث عنها بلين الذي نلمس في وصفه بعض المبالغة.

أشاد بلين بالخصوبة العجيبة التي تتميز بها هذه المنطقة الصحراوية واخبرنا أن الكروم بها تنتج مرتين في العام ، واخبرنا أيضا أن سعر الأرض هناك مرتفع جدا حيث تباع قطعة ارض من أربعة أذرع *(coudées)* مربعة بأربعة دنانير*(deniers)*، والفضل في خصوبة هذا

---

(533) *Trousset (P.), les oasis présahariennes dans l'antiquité : partage de l'eau et division du temps , in : An.Af., N °22 ,1986 , pp164-166.*

(534) *Pline l'Ancien, XVIII, LI. 22.*

الإقليم حسبه "يعود إلى منظومة الرّي الممتازة ، حيث يتواجد بالمنطقة نبع غزير له ثلاثة أميال في القطر ، توزع مياهه الغزيرة حسب عدد من الساعات لكل مزارع"[535].

ولعل أهمية هذا النص تكمن في انّه عرفنا بالطريقة المستعملة في تقسيم المياه بالواحات الصحراوية، فبلين يشير إلى توزيعها على المزارعين " حسب عدد معين من الساعات" وهو نظام معروف حاليا يعتمد على جرّ المياه عبر أروقة وفق عدد معين من الساعات كنصيب لكل مزارع ما جعل البعض يفترضون أن يكون هذا النظام هو أصل نظام الفقارات الحالي[536]، ورجّح البعض أن تكون روما قد أعجبت بهذا النظام وعممته على الواحات الأخرى وقد يكون هذا النظام قد نقش على حجر على شاكلة ما رأيناه في لاماصبا[537]، ويكتسب حق استغلال مياه العيون من ملكية الأرض بالقرب منها ونظرا للتنافس الكبير على مياهها نشأت فكرة تقسيمها بالعدل بين مالكي الأرض، فالأرض بهذه المناطق تفقد قيمتها إذا كانت مصادر المياه بها منعدمة[538].

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الذي لعبه حرس الحدود وهم الجنود الفلاحون الذين مُنحت لهم القطع الأرضية الواقعة على طول الحدود لاستغلالها وصدّ أي غارات محتملة قادمة من الجنوب وقد أعفوا مقابل ذلك من دفع الضرائب، وكان لهم دور فعّال في دفع عجلة التقدم الزراعي والاستيطان البشري نحو الجنوب، وقد كانت بصمات الفيلق الأغسطي الثالث ومهندسوه بارزة في تهيئة العديد من القنوات والعيون، كما أنّ الفرقة بحضورها في هذه المناطق تؤمن تسييرا مثاليا للمستثمرات الزراعية ومراقبة الطرق.

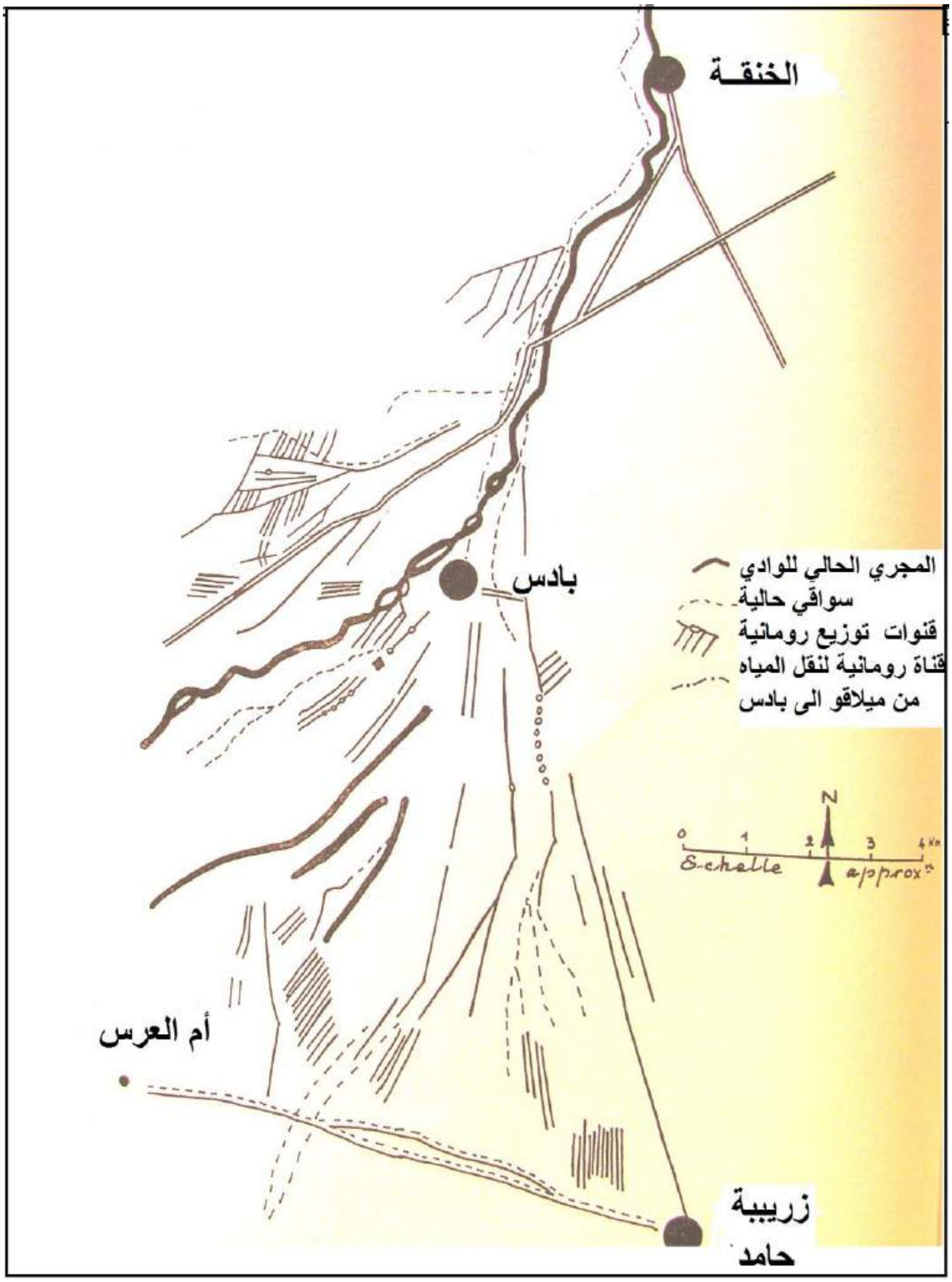
وفي الأخير ينبغي التنويه بدور الأهالي في تحقيق التنمية الزراعية في هذه المناطق ولا يجب الاكتفاء بنظرة المؤرخين الأحادية التي تصور هذا الازدهار انّه معجزة رومانية بحتة، ففي

---

[535] *Pline l'Ancien, XVIII, LI. 22.*
[536] *Camps-Fabrer(Henriette), l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine..Op.Cit.,p18.*
[537] *Pavis d'Escurac (H.), Op.Cit. , p180.*
[538] *Trousset (P.) , De la montagne au désert, Limes et maitrise de l'eau, in : Revue de l'Occident musulman et de Méditerranée , N°41-42, 1986, pp99-100.*

حقيقة الأمر أنّ الأهالي هم من كانوا يشكلون القوة العاملة التي اعتمد عليها كبار الملاّك الرومان في استغلال ضيعاتهم ومستثمراتهم الفلاحية[539] فقد كانوا أكثر ارتباطا بالأرض من غيرهم ثمّ أنّ القبائل المبعدة من أراضيها الخصبة في الشّمال هي التي سعت للبحث عن أراض أخرى في الجنوب لاستصلاحها وزراعتها غير أن الآلة العسكرية الرومانية سرعان ما أبعدتهم من جديد وهذا ما يفسر لنا العلاقة المتوترة باستمرار التي كانت تربط الرومان بالقبائل البدوية خصوصا إذا علمنا بانّ اللّيمس قد تقدم خلال فترات متعدّدة نحو الجنوب، وهذا ما يفسر لنا أيضا تمسّك القبائل المتوطنة بهذه المناطق بالمقاومة والتمرد لكون عملية إعادة نزع الأراضي منهم قد ولّد غيضا وشعورا بالقهر لديها.

[539] جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص205.



الشكل(16): منظر جوي للمنشآت الرومانية بجهة بادس

المصدر: *Birebent (J.), Op.Cit.,p188.*

V أثر التوسّع الزراعي:

نلاحظ أنّ هناك نوعا من التوافق عند المؤرخين حول صورة التغلغل الروماني في أفريقيا، فهم يصوّرونه على أنّه تقدم للحضارة والحياة الحضرية واستغلال للأراضي البكر في الزراعة والاستقرار الذي أدى إلى الازدهار الاقتصادي، يقابله تغافل مطلق من طرف هؤلاء عن التغيرات التي أحدثها الاستعمار الروماني بهذه المناطق وعمّا أحدثته سياسة التوسّع من تغييرات على البيئة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الأفريقية خلال تلك المرحلة ، والحقيقة أن المعطيات التاريخية تبرز أن سياسة التوسّع قد كانت لها انعكاسات ايجابية وأخري سلبية.

اصطدمت الإدارة الرومانية بعد أن تمت لها السيطرة على البلاد بتعلق المجتمع الأهلي بالأرض التي هي المصدر الأساسي لمعاشه ، وهذا ما أعاق سياسة التوسّع الاستغلالي الذي يتميّز به الاستعمار الروماني ، لكن الرومان سرعان ما اخضعوا العديد من القبائل و شرعوا في انتزاع أراضيها بالقوة بموجب حقّ الفتح ، وكان تأثير ذلك واضحا على المجتمعات الريفية الأفريقية التي فقدت أجزاء كبيرة من أراضيها أو أجبرت على النزوح كليا أو جزئيا إلى أراضي بعيدة عنها لتستقر بها.

إنّ سياسة توسيع الزراعة إلى مناطق جديدة التي انتهجها الحكام الرومان نظرا للضرورة الاقتصادية الملحة واستقبال جاليات رومانية جديدة تعد من أهم العوامل التي أدت إلى كنطنة[540] المجتمعات الريفية الأفريقية، هذه العملية التي كان لها ثلاثة أهداف رئيسية : توسيع مجال الاستيطان، و تثبيت القبائل عن طريق تحديد مجالها ومنع تحركاتها وكذا ربط هذه العشائر بمراكز حضرية تحت سياسة تحضير القبائل[541]، ومن جهة أخرى استهدف الرومان البنية

---

[540] الكنطنة *(Cantonnement)*: أو سياسة الحشد، وهي عزل قبيلة ما داخل إقليم محدود بناء على تشريعات قانونية وإجراءات مساحية، ويكون ذلك بتجريد القبيلة من أراضيها الخصبة أو ترحيلها إلى أراضي جبلية أو صحراوية فلا يبقي للقبيلة إلا الأراضي الأقل خصوبة بينما تضم الأراضي المنتزعة إلى أملاك الإمبراطور أو إلى أراضي الملاك الكبار أو إلى أقاليم المستعمرات القريبة منها ، انظر: عقون (العربي)، الاقتصاد والمجتمع... مرجع سابق، ص281.

[541] *Trousset (P.), Les bornes du bled Segui… Op.Cit. , p 161.*

الاجتماعية لهذه المجتمعات حيث عمل على تشتيتها وعزلها عن بعضها البعض لمنع الاتصال والتقارب بينها.

في الحقيقة لم يقض الرومان على المجتمعات الريفية الأفريقية نهائيا وإنّما اهتموا أكثر بتحديد مجالاتها الحيوية على مستوى مواطنها الأصلية أو نقلها إلى مناطق أخري ، والشواهد تؤكد أنّ الحكام الرومان قد أبقوا على أجزاء من الأرض في أيدي هذه العشائر، في حين انتزعت اغلبها خصوصا الأراضي الخصبة منها التي منحت إلى المستوطنين المدنين أو قدماء الجند، ولما كان مجال القبيلة غير كاف لأفرادها اضطر هؤلاء إلى النزوح باتجاه الأراضي الجرداء لاستصلاحها أو استئجار أراضي أو العمل كأجراء لدى غيرهم[542].

قبل إخضاع أقاليم القبائل إخضاعا تاما يقوم الحكام الرومان بتعيين ضباط حربيين بها يسمون رؤساء العشائر(*Praefecti gentium*) ، لكن بعد الإخضاع الكامل لها يشرعون في تأسيس مستوطنات بها كما هو حال قبيلة الموزولام التي أنشئت بها مستعمرتا امايدارا ومادور خلال فترة حكم تراجان اللتين استهلكتا الكثير من الأراضي، زيادة على انتزاع أجزاء أخري منها، بعضها منح لملاك جدد وبعضها الآخر خصص للإمبراطور بينما ترك الباقي لأفراد القبيلة، ولقد تزامن انتزاع الأرض مع عملية المسح وإقامة نصب حجرية تحدد المجال المكنطن ويرجَّح أن يكون قسم من القبيلة قد نُقل إلى المزاق[543]، ونفس الإجراءات تعرضت لها قبائل أخري مثل قبيلة نوميديا(*Numidae*) قرب مداواروش وقبيلة النيبجينيين(*Nybgenii*) بالقرب من الفجاج التي قسمت أراضيها بين مستعمرتي كابسا وتاكاب وتركت مساحة صغيرة لها. وقد أكد تروسي من خلال دراسته لكنترة المناطق الجنوبية للبروقنصلية أن قبيلة النيبجينيين قد تمّ تحديد مجالها وتقليصه بالموازاة مع مد خطوط المسح نحو الجنوب[544].

---

[542] رستوفتزف(م) ، مرجع سابق، ص 393.

[543] *Gsell (St.) , Inscriptions Latines de l'Algérie ,T.I, p267.*

[544] *Trousset (P.), Les bornes du bled Segui… Op.Cit. , p169.*

إن النظام المعتمد في تحديد مجال القبائل التي بالتل أو السباسب أو الصحراء هو نظام واحد، ويتمثل كما يظهره مثال قبيلة الموزولامين والنيبجينيين في سعى السلطة إلى تجنيب علاقات أفرادها مع المدن القريبة وتنظيم التنقل في حياة أنصاف البدو وإدخالهم في إطار رسمي يسمح بمراقبتهم، وقد رجّح البعض أن يكون هناك مخطط مشترك يطبق على جميع الأقاليم خاصة التي تعرف تنقلات موسمية للقبائل الخاضعة للسلطة الرومانية [545].

في الغالب يحيط بملكيات القبائل المكنطنة مستثمرات خاصة بالجنود وقدماء الجنود ، وقد عُثر في أفريقيا على العديد من النصب الحجرية المحدّدة لحدود ملكيات هذه القبائل بالإضافة إلى القلاع ***(castellum)*** المخصصة لمراقبة تحركاتها مثل قبيلة تابيانونسيس ***(Tabianenses)*** قرب أطلس شرشال التي تعرضت لهذه الإجراءات ، حيث عثر على هياكل من هذا النوع بالقرب من موطنها كدليل واضح على كنطنتها[546]، ومن جهة أخري يظهر التدخل الروماني في شؤون القبائل أساسا في مراقبتين أساسيتين: مراقبة اقتصادية للأراضي عن طريق تحديد مجال التنقل، ومراقبة سياسية تمارس على الأفراد بإدارة شؤونهم[547].

لقد تسبب استحواذ كبار الشخصيات على ملكيات كبيرة بأفريقيا بالإضافة إلى أنظمة الاستغلال السائدة خصوصا خلال القرن الرابع والخامس أين اتجه نظام الإنتاج والاستغلال إلى الإقطاع في نشوء الطبقية في المجتمع الأفريقي وهو ما لم يكن معروفا بأفريقيا قبل ذلك، فهذه الوضعية الحديثة المبنية على الفوارق تسببت في انتفاض الطبقات الكادحة وأدت إلى قيام ثورة الريفيين خلال القرن الرابع الميلادي ، حيث وجدت فئة من المحرومين اقتصاديا واجتماعيا نفسها تتحالف مع بعض الفئات الدينية المسيحية (الدوناتيين) لإرجاع الاعتبار لنفسها.

---

[545] *Trousset (P.), Les bornes du bled Segui… Op.Cit. , p162.*

[546] *Leveau (Philippe), paysans maures et villes romaines en Maurétanie central(la resistance des populations indigenes à la romanisation dans varrière-pays de Caesarea de Maurétanie, in: M.E.F.R.A., N°2, 1975,p864.*

[547] *Benzina Ben Abdallah (Zeineb),Du coté d'Ammaedara (Haidra): Musulamii et Musunii Regiani, in: An.Af.,N°28,1992, p142.*

فخلال القرن الرابع أهمل آلاف من فلاحي الريف –خصوصا بنوميديا- محاريثهم وفرّوا إلى صحراء جيتوليا وبثّوا الرعب في نفوس الطبقات الحاكمة والبرجوازية وموظفي الدولة وروّاد الكنيسة الكاثوليكية المنافسين لحلفائهم الدوناتيين، وقد احدث هؤلاء الذين وصفتهم الكتابات اللاّتينية باسم "الدوارين"[(548)] فوضي كبيرة بأفريقيا، وكان السبب الرئيسي لثورتهم هو حالة البؤس الاجتماعي التي كانوا يعيشونها، حيث انتهز هؤلاء فرصة قيام صراع بين الكاثوليك والدوناتيين لإعلان ثورتهم، وما لبث هؤلاء أن تحالفوا مع الدوناتيين ليواجهوا متحدين تحالف السلطة مع الكنيسة الكاثوليكية[(549)]. وقد عكف المؤرخون على تشويه صورة هؤلاء متبنين بذلك نظرة الدولة الرومانية تجاههم، لكن رغم كل أعمال النهب والتخريب التي أحدثها هؤلاء إلاّ انّه لا ينبغي الحط من قيمة هذه الثورة الاجتماعية كشكل من أشكال الصراع والمقاومة ، فالعبرة على حد تعبير البعض في نبل أهدافها ومشروعية الأسباب التي قامت عليها[(550)].

كما لا يجب أن نهمل التغييرات البشرية والديموغرافية التي أحدثها الاستعمار على العموم والتوسّع الزراعي على الخصوص، ويبدو أن قبائل أنصاف البدو قد كانت أكثر تضررا من هذه السياسة، فقد أدي توسيع الزراعة إلى الجنوب إلى فقدانها للأقاليم التي الفت الرعي والانتجاع فيها بسبب تحويلها إلى أراض زراعية ما أدي إلى تشتيتها وتغيير مواطنها وتغيير طبيعة نشاطها، ومن جهة أخري أحدثت الهجرة وحركة الاستيطان الكثيف خللا في الوضع الديموغرافي للبلاد من حيث التوزيع ومن حيث الجنس، وهذا ما تؤكده شواهد القبور المدروسة

(548) الدوارون *(Circum Cellas)*: يعرفون بالسيركونسيليون*(Circoncellions)* وتعني الذين يحومون حول مخازن الحبوب لسرقتها، انظر: جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص297.

(549) نفسه، ص ص297-301 .؛

-*Sismondi(J.C.L.Simonde De)*, ***histoire de la chute de l'Empire Romain et du déclin de la civilisation, de l'An250 à l'An 1000***, *T.I, Librairie Treuttel et Wurtz, Paris 1835, p130.*

(550) عقون (العربي)، الاقتصاد والمجتمع...مرجع سابق، ص294.

على مستوي شرق نوميديا، فاغلبها للذكور وهذا ما جعل البعض يرجّح أن فئة الوافدين الشباب غير المتزوجين هي التي أدت إلى طغيان فئة الذكور على الإناث[551].

أمّا من الناحية الاقتصادية فقد كان لسياسة التوسّع الزراعي أثرها البالغ في ازدهار الاقتصاد بالمناطق الجنوبية والجبلية، حيث حقق المزارعون بجهودهم في مجال الري واستصلاح الأراضي ازدهارا ملحوظا في طبيعة صعبة ، فقد تمكن المزارعون-الأفارقة على الخصوص- من إقامة استغلال زراعي في مناطق لم يتصوروا يوما الوصول إليها ، ولعلّ ذلك يعدّ من الجوانب الايجابية للضغط الروماني من الشّمال رغم آثاره السلبية على الجانب الاجتماعي ، ومن جهة أخرى فلا شك أن توسيع المجال المزروع قد خلق فرص عمل جديدة خاصة بالنسبة للذين رضوا بالاستقرار والخضوع للسلطة الرومانية وقد وصلتنا في هذا الشأن بعض الأخبار عن أفراد تمكنوا من تحسين وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية [552].

وينبغي هنا التأكيد على أمر مهم وقد أشار إليه في الحقيقة العديد من الباحثين وهو الدور السياسي الذي لعبه التوسّع في زراعة الزيتون ، فتشجيع الأباطرة لزراعته لم يكن فقط لضرورة اقتصادية، بل كان أيضا من العوامل الفعّالة التي ساعدت على فرض السلم والهدوء بالمناطق التي كانت مركزا للحياة البدوية أو منتجعات لعبور الرُّحّل ، ولقد كان التوسع في زراعة الزيتون عاملا مهمّا ساهم في جذب هذه القبائل إلى الاستقرار والزراعة وهو الأمر الذي كان ينشده الحكام الرومان وهنا تتقاطع سياسة الإدارة الرومانية مع تحول أولئك الرُّحّل إلى مزارعين مستقرين ميّالين إلى السلم .

---

(551) شنيتي(محمد البشير)، التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة، مجلة التاريخ، ع23، الجزائر1987م، ص ص 12-13.

(552) كان الفضل للنقوش *(C.I.L.,VIII,11814.)* في إخبارنا بتلك القصة الرائعة التي رواها احد المزارعين البسطاء بجهة سيرتا والذي تمكن بفضل عمله في الحصاد من تحسين وضعيته الاقتصادية والاجتماعية ،حيث تمكن بعد أن كان فقيرا محروما من أن يشتري أرضا وان يبني بيتا بل وعين عضوا في مجلس الشيوخ ببلدته.

كان اقتصاد أفريقيا يرتكز على الفلاحة بالدرجة الأولى، وبسيطرة الملاّك الكبار على المستثمرات الزراعية أصبحت مصادر الثّروة بأيديهم وتعاظم شأنهم وأصبحوا بذلك أسيادا مطلقي السلطة على عبيدهم وعلى الكولون ، بل وتطاولوا حتى على السلطات المحلية فقد كانت ثروتهم تسمح لهم بشراء ضمائر موظفي الدولة، ولعلّ ما زاد سيطرة هؤلاء على موارد الاقتصاد هو انتهازهم الفرصة في الأعوام التي ساد فيها الجفاف والمجاعة ليستولوا على أراضي الملاّك الصغار الذين اضطروا أمام الأزمات الطبيعية وثقل الضرائب إلى بيع أراضيهم إلى الملاّك الكبار المجاورين لهم، والذين كان لهم من الثروة ما يسمح لهم باجتياز أعوام الأزمة بسلام[553]، وهذا في الحقيقة ما ترك أثرا سلبيا على الزراعة بحيث تخلى القائمون الفعليون عن زراعة أراضيهم التي أصبحت في أيدي أثرياء ينشدون زيادة أملاكهم العقارية فحسب.

لقد تسبّب التوسّع الزراعي في إحداث تغيرات على نظام الاستغلال و تحويل طبيعة الإنتاج، فقد كان اقتصاد الكفاف هو النمط السائد بأفريقيا قبل وصول الرومان نظرا للنظام القبلي المتجذر بالمنطقة خلال تلك المرحلة، لكن بعد ترسيخ الاستغلال الرأسمالي المبني على الملكيات الواسعة تحول الإنتاج إلى الاقتصاد التجاري المالي وهذا ما تؤكده الأنونة وانتشار الأسواق، لكن بداية من أواخر القرن الثاني للميلاد عرفت أفريقيا والإمبراطورية الرومانية في عمومها أزمة اقتصادية حقيقية نتيجة انخفاض قيمة العملة الناتجة عن قلّة إنتاج الذهب في المناجم، ما أدي إلى إضافة مواد أخري إلى العملة وبذلك ارتفعت أسعار السلع بالأسواق وعرفت المبادلات اختفاء متصاعدا ما أدي إلى اتجاه عام نحو الاقتصاد الطبيعي [554].

ومن جهة أخري أدي استئثار فئة الأثرياء بأغلب الأراضي إلى ظهور نظام الاستغلال بالوكالة المعتمد على استئجار أراضيهم إلى الكولون ليستغلوها نيابة عنهم وتعيين مسيرين يكلفون بالقيام بشؤون ملكياتهم[555]، وفي أواخر عهد الإمبراطورية ، اتّجه الملاّك شيئا فشيئا

---

[553] *Gsell (St.), grandeur et décadence de Rome en Afrique...Op.Cit., p18.*

[554] *Weber(Max), les causes sociales du déclin de la civilisation antique, in : <u>Revue Pluridisciplinaire en science humaines</u>, N°1, 2005, p159.*

[555] شنيتي(محمد البشير)، التغيرات الاقتصادية...مرجع سابق، ص ص321-323.

إلى الاعتماد على العبيد بصفة شبه كلية. إن زيادة التوسع الروماني قد أدي إلى زيادة تموين سوق العمل بيد عاملة إضافية ، وبمرور الوقت أدي ذلك إلى توسع القاعدة التي كان يشكلها العبيد المعتمد عليهم في استغلال اللاّتيفونديا وهذا ما أضرّ بفئة الكولون الذين تدهورت وضعيتهم ، وما زاد في تردى أوضاعهم تلك الضرائب القاسية التي اجبروا على دفعها عمّا استصلحوه من أراضي ، فحتى بعد تخليهم عنها تجنبا لدفع تلك الضرائب صدموا بمراسيم الأباطرة التي تربطهم بالأرض وتفرض عليهم خدمتها(556).

والملاحظ على النظام الضريبي المنتهج خلال الفترة الأخيرة من عهد الإمبراطورية هو انعكاسه السلبي على الزراعة فهو لم يكن أبدا مشجعا على الاستثمار بل وكثيرا ما تسبب في حدوث اضطرابات وانتفاضات، فقد اخبرنا القديس أوغسطين ***(Augustin)*** في رسائله المكتشفة خلال السبعينات من القرن الماضي أن بعض الاضطرابات التي عرفتها أفريقيا على عصره كان سببها ثقل الضرائب و اللاّعدالة في توزيعها محملا المسؤولية للمسيرين البلديين في التسبب في هذه الأزمات(557).

وقد اشتهرت بأفريقيا تلك الثورة التي قام بها مزارعو منطقة الجم(*Thysdrus*) على عهد الإمبراطور ماكسيمينوس ثراكس(*Maximinus Thrax*)(235م-238م) بسبب فرض ضرائب إضافية عليهم، حيث اندلعت هذه الثورة بداية عام238م وهو ما يتزامن مع موسم جني الزيتون الذي تشتهر بإنتاجه هذه المنطقة ما جعل البعض يصفها ب"عاصمة الزيتون"(558)، وقد أدت قيادة غرديان الأول(*Gordien I*[er]) بروقنصل قرطاج السابق لهذه البروليتارية الريفية الغاضبة على ثقل الضرائب المفروضة عليها إلى مقتل بروكيراتور الإمبراطور ومرافقيه، ليس هذا فحسب بل انتشرت هذه الثورة بسرعة في الأرياف الأفريقية وعمت

---

(556) Code Théodosien , XI, 1,17.

(557) Lepelley(Claude), la crise de l'Afrique Romaine au début du V[éme] siècle, D'après les lettres nouvellement découvertes de Saint Augustin, in: C.R.A.I., 125[éme] Année, N°3, 1981, p453.

(558) Picard (G.Ch-.), la civilisation de l'Afrique romaine… Op.Cit., p76.

الفوضى و سرعان ما انتقل تأثيرها إلى ايطاليا اين ادت إلى الإطاحة بحكم الإمبراطور ماكسيمينوس[559] .

بحلول القرن الخامس الميلادي كانت كل المؤشرات توحي إلى قرب نهاية الاستعمار الروماني ، حيث فقد الأباطرة السيطرة على أمور الدولة ليس فقط بأفريقيا وإنّما بأرجاء الإمبراطورية كلها ، ففي أفريقيا تصاعدت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وظهر الانقسام في الكنيسة المسيحية و كثرت الانتفاضات وحركات المقاومة التي كانت طابعا مميّزا لأفريقيا ليس فقط خلال القرن الرابع بل وقبلها بكثير، فقد حدث مثلا وان ثار أهالي جهة سطيف فطردوا المعمرين من أراضيهم على عهد سبتيميوس سواريوس [560]، ومن جهة أخري عرفت الزراعة التي كانت العماد الأول للاقتصاد الأفريقي والروماني تدهورا بسبب ثقل الضرائب رغم محاولة بعض الأباطرة إنقاذ الوضع بتخفيضها حفاظا على استمرارية الإنتاج الزراعي إلاّ أنّ ذلك لم يغير من الوضع شيئا. وفي حدود عام 429 ميلادية غزا الوندال أفريقيا بقيادة قائدهم جنسريق ***(Genséric)*** منهيين بذلك السيطرة الرومانية التي دامت أزيد من خمسة قرون .

إن فقدان أفريقيا كان دون شك اكبر نكسة مسّت الإمبراطورية الرومانية، نظرا للمكانة التي تتمتع بها عند حكامها وأثريائها؛ فقد كانت المقاطعة التي تُجلب منها الأموال والأسلحة والجنود ، كما أنّها كانت أهراء بحق مونت شعب روما بالمواد الغذائية مجانا على امتداد قرون طويلة، وهذا ما جعل أسقف قرطاج كودفولتدوس ***(Quodvultdeus)*** يبكيها عند غزوها من طرف الوندال متحسرا على ضياع هذه الجنّة قائلا:" أين هي أفريقيا، التي كانت بالنسبة للعالم كله جنّة من الخيرات، أين هي كل دولها ومدنها الغنية العامرة"[561] .

([559]) *Hilali (A.), la crise de 238 en Afrique et ses impacts sur l'Empire romain, in: <u>Crises and the Roman Empire</u>, édition Brill, Leiden, 2007, pp58-61.*

[560] جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص221.

[561] *Lepelley (Claude), la crise de l'Afrique* Romaine au début du V*ème* *siècle…Op. Cit. p449.*

خاتمة

خاتمة

ما يمكن قوله في نهاية هذه الدراسة هو أنّ التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الشّمالية في عمومه مجال خصب للبحث حيث لقي اهتماما ملحوظا من طرف الباحثين خصوصا الغربيين منهم الذين درسوا جوانب عديدة منه ، وبمعالجتنا لإشكالية التوسّع الزراعي الذي عرفته المنطقة خلال الفترة الرومانية والإحاطة بالعوامل التي عرفتها الزراعة على العموم خلال تلك المرحلة، توصلنا إلى استخلاص مجموعة من الاستنتاجات أهمّها أنّه يجب تجاوز مسألة الخوض في أصول الزراعة الأفريقية بعد الآن– وهي في الحقيقة متجاوزة عند الكثير من الباحثين الموضوعيين – وينبغي أن نسقط من أبحاثنا كل التأويلات القائمة على نظرية عجز المغاربة التي أرجعت كل فعل حضاري إلى أصول أجنبية.

لقد أثبتت العديد من الدراسات الحديثة التي اعتمدت خاصة على علم الآثار والرّسومات الصخرية وعلم النبات بالإضافة إلى الدّلالات اللّغوية لأغلب أسماء المزروعات، أصالة الزراعة الأفريقية، وحتى بعض كبار المؤرخين – الذين عرفوا بأطروحاتهم الغربية أو السّامية التي تصور الشعب الأهلي "الأمازيغي" في صورة البدائي المتلقي دائما للحضارة من جيرانه الفينيقيين أو الإغريق أو الرومان – فلتت منهم بعض العبارات التي تقرّ بالأصل المحلي للزراعة والدور الأفريقي "الأمازيغي" في اكتشاف وتطوير الزراعة، وقد آن الأوان أن نعيد النظر في العديد من الدراسات التي أنجزت خلال فترة الاستعمار الفرنسي الذي حرص على تمرير العديد من الأطروحات لتحقيق مصالحه وتكريس عقدة التفوق التي عرف بها الأوربيون على العموم.

يبدو أن الازدهار الذي ستعرفه أفريقيا الشّمالية خلال الفترة الرومانية تعود بداياته إلى عهد الملوك النوميد وبالخصوص عهد ماسينيسا الذي عُرف بسياسته الفعّالة في المجال الزراعي،

ومن جهة أخري يظهر أن الرومان قد استفادوا من سياسة هذا الملك فيما يتعلق بتوطين القبائل في المناطق الداخلية نظرا لكون الطرفين قد انتهجا سياسة متشابهة في معالجة مشكلة التنقل المستمر لهذه القبائل الذي يتنافي مع قيام زراعة منتجة بهذه المناطق، كما لا يجب تجاهل منجزات الشعب الأهلي في الفترة السابقة لوصول الرومان في الميدان الزراعي التي استفاد منها الرومان فيما بعد، فالمزارعون الأفارقة هم الذين هيّأوا القاعدة الأساسية للزراعة، والحقيقة أنّ الرومان والقرطاجيين من قبلهم قد وجدوا المجال خصبا للاستثمار ، فاغلب الأراضي الزراعية كانت مهيأة وقابلة للزراعة وقنوات المياه مشيدة ...الخ، وببساطة فانّ الرومان لم ينطلقوا من فراغ.

إنّ الملاحظ من خلال قراءتنا للدراسات التي تناولت الجانب الزراعي هو التحيز الكبير في أغلبها إلى الجانب الروماني وتحاملها على الشعوب الأهلية خاصة فيما يتعلق بالأعمال الفنية والتقنية، وحسب تلك الدراسات فإنّ كل تقنية متطورة هي رومانية؟ مجرِّدةً بذلك أسلافَنا من كل مبادرة ومشدّدة دوما على بدائية هذا الشعب الأهلي الذي تطلق عليه عبارة قبائل لتلصق بها صفة البدائية والتخلف، والملاحظ أيضا استعمالها لمصطلح "روماني" بإسهاب (الزراعة الرومانية، المعاصر الرومانية، آبار رومانية... الخ) في حين أنّه كان ينبغي عليها التحلي بالروح العلمية والموضوعية واختيار مصطلحات تشمل الجميع و كان عليها أن تنسب المجهود للفترة وإلى البلد لا إلى أجناس على حساب أخري.

لعلّ العامل الأساسي في نجاح الاستثمار الزراعي في أفريقيا وتحقيق التطور والتوسّع يعود إلى منظومة الاستغلال الزراعي المبنية على أسس علمية شُرع في التخطيط لها مباشرة بعد إحكام السيطرة على أفريقيا، فسياسة الإدارة الرومانية انصبت منذ البداية على مسح الأراضي وتوطين المزارعين *(Colons)* وتوزيع الأراضي عليهم، وإعادة تهيئة منشآت الرّي وتوسيعها إلى مناطق جديدة، ثمّ سن مجموعة من التشريعات التي تنظم الاستغلال واستحداث مستثمرات للاستغلال الواسع ...الخ ، وما كان لروما أن تحقّق أهدافها –خاصة خلال القرن الأول والثاني

للميلاد– لولا تهيئتها لهذه الأرضية التشريعية وتنظيمها الدقيق للمجال وتحديد مسؤوليات الأفراد.

ما يعاب على السياسة الرومانية في نظرنا في المجال الزراعي هو ذلك النظام الضريبي الجائر المنتهج الذي بقدر ما استفادت روما من عائداته بقدر ما فقدت ثقة المزارعين وأبعدتهم عن استغلال الأرض رغم أنّها في الفترة الأخيرة للإمبراطورية قد حاولت استدراك الأمر. كما كان لوقوع المستثمرات الزراعية في أيدي الطبقات البرجوازية أثره السلبي أيضا على الزراعة ذلك أن هؤلاء عادة ما يكونون بعيدين عن العمل الزراعي وعن مستثمراتهم، وكان على الأباطرة إصدار أوامر في هذا الشأن تضمن الاستغلال الأمثل والمستمر للأرض الزراعية، ووضع جزء من هذه الأراضي في أيدي الطبقات الوسطى والكادحة لأنّهم في الحقيقة يشكلون القوة الفعلية التي تقوم بأعمال الزراعة .

لعلّ الاهتمام الذي حظي به الجانب الزراعي عند الرومان لم تحظ به المجالات الأخرى، وهو ما يؤكد الطابع الاقتصادي الزراعي للاحتلال الروماني ، ويظهر ذلك جليا على الخصوص في حرص الدولة على السيطرة على الأراضي الزراعية ذات الخصوبة والمردود الجيد باعتبارها مصدر الثراء الأساسي خلال تلك الفترة ، ومن العوامل الرئيسية التي ولّدت هذا الاهتمام بالأرض وبالإنتاج الزراعي هو التموين المجاني لسكان روما بالمواد الغذائية الذي كان على رأس واجبات الأباطرة بداية من عهد اوكتافيوس، خاصّة وأنّ أي ضعف أو خلل يصيب التموين سينعكس سلبا على هؤلاء وسيعرض حكمهم للاضطراب ، وهذا ما يفسر تشجيع هؤلاء على التوسّع نحو الأراضي الجديدة وتشجيع الإنتاج الكثيف ، وقد كانت الإجراءات التي تستوجبها الأنونة دليلا واضحا على تخوف الأباطرة من انعكاسات أي نقص في الغذاء، ومن جهة أخرى فقد كانت الزراعة الأفريقية عاملا مؤثرا على سير الأحداث التاريخية والسياسية، فقد ساهم تراجعها خلال المرحلة الأخيرة من عهد الإمبراطورية بصفة غير مباشرة في تردى الأوضاع بأفريقيا والإمبراطورية بصفة عامة.

لعل المبالغة في اعتبار التوسّع الزراعي خلال الفترة الرومانية معجزة وفضلا رومانيا بحتا يعتبر من المغالطات التي ينبغي علينا اليوم تصحيحها ، فبصمة الأفارقة (الشعب الأهلي) واضحة في هذا المجال فهم الذين شكلوا القوة العاملة على مستوى مستثمرات كبار الشخصيات سواء كمستأجرين أو أجراء، وكان لهم الفضل أيضا في طرق سفوح الجبال والأراضي المتاخمة للصحراء بعد أن انتزعت منهم أراضيهم الخصبة بالسهول بموجب حق الفتح فاستعاضوا عنها باستصلاح أراضٍ جديدة على مستوى المناطق التي نزحوا إليها، لذا من غير الممكن إقصاء مساهمة هؤلاء من ذلك الازدهار الذي اعتبر معجزة رومانية.

لقد كان لسياسة التوسّع الزراعي أثرها على الجانب الاقتصادي والاجتماعي في أفريقيا على الخصوص، فان كان ذلك قد ساهم في تحسين الوضعية الاقتصادية للبلاد وتحسين الوضعية الاجتماعية لبعض الأفراد المترومنين فانّه في المقابل قد ساهم في التأثير على الشعب الأهلي بتجريده من أراضيه وتحديد مجاله وتحميله ضرائب قاسية، بالإضافة إلى تغيير نمط المعيشة لدى قبائل الجنوب التي اعتادت التنقل بين الشمال والجنوب.

إنّ دراسة موضوع التوسّع الزراعي في المناطق الجنوبية والأسس التي قام عليها هو في الحقيقة موضوع ليس الهدف منه دراسة التاريخ ومعرفة حضارة أسلافنا فقط، بل يمثل نموذجا تاريخيا ومثالا تطبيقيا رائدا في ما يجب أن يكون عليه الاستثمار الفعّال الناجح في البيئات الصعبة التي تكثر بها العراقيل الطبيعية والبشرية إذا كانت الضرورة الاقتصادية تملي ذلك، فالتجربة الرومانية-الأفريقية خلال تلك المرحلة تستطيع العديد من المصالح التي تهتم بالاقتصاد والبيئة الاستفادة منها حاليا، لاسيما وانّ العديد من التجارب المحدودة المماثلة قد أثبتت نجاحها كزراعة الزيتون التي عرفت نجاحا وانتشارا في منطقة وادي سوف ، وإذا كان الرّي هو عماد الزراعة بهذه المناطق خلال الفترة الرومانية فانّ التقنيات الحديثة كفيلة بترقية الزراعة بأنواعها في مناطق مماثلة لمنطقة وادي سوف خصوصا مع استعمال التقنيات الحديثة المتطورة مثل الرّي بالتقطير والآبار الارتوازية...الخ.

ملاحق:

I–طريقة صناعة النبيذ من العنب الجاف حسب ماغون.

II– ذكر علماء الزراعة القدامى عند بلين الكبير.

IV– التويزة *(Tiwizi)*.

I–طريقة صناعة النبيذ من العنب الجاف حسب ماغون:

" نقطف العنب الناضج، وننقيه من الحبات العفنة والفاسدة، ثم نعرضه للشمس فوق عيدان قصب مرفوعة على أوتاد ومذاري غرست في الأرض على عمق أربعة أقدام وربطت بعصي طويلة، ونغطيه ليلا كي لا تبلله قطرات الندي، وحينما يجف نأخذ حبات العنب ونلقي بها في جرة أو خابية، ونسكب فيها أفضل أنواع المسطار(عصير الخمر قبل طبخه) حتى يغمر حبات العنب. وفي اليوم السادس وحين تكون حبات العنب قد تشربت بالمسطار وانتفخت، نضعها في قفة، ثم نكبسها لنأخذ منها عصيرها، بعد ذلك نضيف عليه المسطار الطازج المستخلص من عناقيد أخري تركت ثلاثة أيام تحت أشعة الشمس، ونضع هذا الخليط في المكبس بعد مزجه بشكل جيد، ثم نقوم بوضع السائل الناتج عن وجبة العصير الثانية هذه في أوان مغلقة بإحكام بالطين كي لا يصبح النبيذ لاذعا، وبعد عشرين أو ثلاثين يوما، حينما يتوقف التخمر، نفرغ النبيذ في أوان أخري وندهن أغطيتها فورا بالكلس ثم نغطيها بالجلود"

Columelle, De l'économie rurale, traduit par Luis Du Bois, C.L.F.Panckoucke, paris1844, XII, XXXIX.

II– ذكر علماء الزراعة القدامى عند بلين الكبير:

" عند الأجانب أنفسهم، كان هناك شخصيات من الصف الأعلى قد كتبوا حول الزراعة، من بين هؤلاء الكتاب نسمى ملوكا: هييورون *(Hiéron)*، فيلوميتور *(Philométor)* ، أتال *(Attale)*، أرشيلاوس *(Archélaus)*، وجنرالات : أقزينوفون *(Xénophon)*، ماغون *(Magon)* ، هذا الأخير الذي كان قرطاجيا . فمجلس شيوخنا بعد إخضاع قرطاج قد كرمه تكريما مجيدا، حيث أمر عند توزيع مكتباتها على الملوك الأفارقة بترجمة كتب ماغون الثمانية والعشرين إلى اللاتينية، رغم أن كاتون قد سبق وان نشر مؤلفاته. إن مهمة العناية بهذه الترجمة قد أوكلت إلى أشخاص عارفين باللغة البونية ود. سيلانوس *(D. Silanus)* المنحدر من إحدى العائلات العريقة الذي جعل من هذا العمل مهمته الأساسية ، ونذكر أيضا جمع من العلماء، وقد أشرت أعلى مؤلفي هذا ما اقترحت أن اتبعه، وأسمى فولونتي فارون *(Volontiers Varron)* الذي حتى وهو في الثمانين من عمره استطاع أن ينشر مؤلفا في هذا المجال".

Pline l'Ancien , Histoire Naturelle ,C.L.F.Panckoucke , Paris 1831 , XVIII ,V.

IV- التويزة *(Tiwizi)*:

"التويزة *(Tiwizi)* هي المساعدة الطوعية المتبادلة بين مجموعة من الأفراد ينتمون إلى نفس العشيرة مقابل الانتفاع بالثلث، وتهدف إلى إتمام الأعمال الكبيرة التي يصعب القيام بها فرديا، فبواسطة التويزة يستطيع العديد من الفلاحين انجاز العديد من الأعمال الزراعية التي تستلزم إما يدا عاملة مهمة كالعزق ونفض أشجار الزيتون أو الحصاد، أو الأعمال التي تستلزم استعمال عدد كبير من الدواب مثل الدرس .

إن التويزة متعلقة عموما بمصلحة أفراد لكنها قد تتعلق بمصلحة الجماعات أيضا كأعمال البناء وتهيئة الطرقات والسدود والعيون والقوتارة *(ghottara)* وقنوات الري حيث يستدعي إلى العمل كل أعضاء الجماعة.

نستطيع اعتماد الرأي الذي يري أن كلمة ثيويزي *(Tiwizi)* من أصل بربري؛ فبنية كلمة تويزة *(Touisa)* المستعملة في عربية شمال افريقيا (الدارجة) بصيغة الجمع هي استعارة من الأمازيغية..."

Laoust (E.), Mots et choses berbères, notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc, librairie maritime et coloniale , Paris 1920, p322.

فهارس:

فهرس المصادر والمراجع:

1-باللغة العربية:

أ-المصادر:

ابن خلدون(عبد الرحمان)،

مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: شحادة خليل، مراجعة زكار سهيل ، دار الفكر، بيروت ، لبنان 2001.

ابن عبد الحكم ،

فتوح مصر والمغرب ،تحقيق عبد المنعم عامر ،ج1، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة 2001 م.

ابن عذاري المراكشي،

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، دار صادر، بيروت 1950م.

قيصر(يوليوس) ،

حرب افريقية (47-46 ق.م)، ترجمة محمد الهادي حارش ، دار هومة ،الجزائر.

ب-المراجع:

الناضوري (رشيد) ،

المغرب الكبير، ج1 (العصور القديمة: أسسها التاريخية الحضارية والسياسية)، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.

انديشة (احمد محمد)،

التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، ط1 ، الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان ، ليبيا 1993م.

بورونية (الشاذلي)و الطاهر (محمد)،

قرطاج البونية : تاريخ حضارة ، مركز النشر الجامعي ، تونس 1999م.

تشارلزورث (أ.ب)،

الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، مراجعة محمد صقر خفاجة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1999م.

جودة(حسنين جودة)،

الجغرافيا الطبيعية لصحاري العالم العربي، ط6، منشاة المعارف الاسكندرية، 1997م.

جوليان (شارل أندري) ،

تاريخ أفريقيا الشمالية (تونس ، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م) ، تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة ، ط5، الدار التونسية للنشر ، جويلية 1985م .

حارش(محمد الهادي)،

-التاريخ المغاربي القديم (السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة ،الجزائر1995م.

- التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول (203-46ق.م)، دار هومة، الجزائر1996.

حليمي (عبد القادر علي)،

جغرافية الجزائر(طبيعية-بشرية-اقتصادية)، ط2، مطبعة الإنشاء، دمشق 1968م.

حميدة (عبد الرحمان)،

جغرافية الوطن العربي، ط2، دار الفكر- دار الفكر المعاصر، دمشق-بيروت،1997.

ديكيريه (فرنسوا) ،

قرطاجة أو إمبراطورية البحر ، ترجمة عزالدين احمد عزو ، مراجعة وتحقيق عبد الله الحلو ، ط1، الأهالي للنشر والتوزيع ، دمشق 1996م.

رستوفتزف (م.) ،

تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ج1 (المتن) ، ترجمة ومراجعة زكي على ومحمد سليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1957م.

شامو(فرنسوا)،

في تاريخ ليبيا القديم : الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ، ترجمة وتقديم محمد عبد الكريم الوافي، ط1، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي 1990.

شنيتي (محمد البشير) ،

-أضواء على تاريخ الجزائر القديم(بحوث ودراسات) ، دار الحكمة ، الجزائر 2003م .

-التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني ودورها في أحداث القرن

الرابع الميلادي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

-الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريتاني) ومقاومة المور، ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999.

صفر(احمد) ،

مدنية المغرب العربي في التاريخ ، ج1 ، دار النشر بوسلامة ، تونس1969م.

طريح شرف (عبد العزيز)،

الجغرافيا المناخية والنباتية مع التطبيق على مناخ أفريقيا ومناخ العالم العربي،دار المعرفية الجامعية ، 2000م.

عبد العليم(مصطفى كمال) ،

دراسات في تاريخ ليبيا القديم ، المطبعة الأهلية ، بنغازي ، 1966م.

عقون (محمد العربي) ،

الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم ، نشر دار الهدى ، عين مليلة الجزائر 2008م.

فرحاتي (فتيحة) ،

نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213ق.م-46ق.م (الحياة السياسية والحضارية) ، منشورات أبيك ، مطبعة متيجة ، الجزائر 2007م.

فنطر(محمد) ،

يوغرطة (من ملوك شمال أفريقيا وأبطالها)، الدار التونسية للنشر، 1970م.

قداش (محفوظ)،

الجزائر في العصور القديمة ، ترجمة صالح عباد ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1993م.

كامبس (غابريال) ،

في أصول بلاد البربر: ماسينيسا أو بدايات التاريخ ، تعريب وتحقيق العربي عقون، نشر المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2010م.

مازيل(جان) ،

تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية ، ترجمة ربا الخش ، تقديم ومراجعة عبد الله الحلو، ط1، دار الحوار، سوريا 1998م.

ميادان (مادلين هورس) ،

تاريخ قرطاج ، ترجمة إبراهيم بالش ، ط1، منشورات عويدات ، بيروت-باريس 1981م.

ج–الرسائل الجامعية:

عقون(محمد العربي)،

من التاريخ البلدي للجزائر خلال العهد الإمبراطوري الأول: الاتحاد السيرتي، دراسة في تاريخ وأثار ونظم سيرتا العتيقة، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري، قسنطينة2004-2005م.

د–الدوريات:

شنيتي(محمد البشير)،

التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة، مجلة التاريخ، ع23، الجزائر1987م.

ج–القواميس والموسوعات:

ايمار (أندري) و ابوييه(جانين) ،

تاريخ الحضارات العام (روما وإمبراطوريتها) ،ج2 ، إشراف موريس كروزيه ترجمة فريد م.داغر وفؤاد ج.أبو ريحان ، ط2 ، منشورات عويدات، بيروت –باريس 1986م.

بورتير(رولان) و بارو(جاك) ،

بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها ، تاريخ إفريقيا العام ، المجلد الأول (المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا) ،إشراف ج.كي– زيربو ، جان أفريك/اليونسكو، 1983م.

ديزانج (جيهان)،

البربر الأصليون، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني (حضارات إفريقيا القديمة) ، إشراف جمال مختار، نشر جين أفريك/اليونسكو 1985م.

لعروق (محمد الهادي)،

أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى،عين مليلة.

محجوبي (ع.) ،

العصر الروماني وما بعده في شمال أفريقيا(القسم الأول) ، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الثاني (حضارات أفريقيا القديمة)، إشراف جمال مختار ، طبع جين افريك/ اليونيسكو ،1985م.

د–نسخ الكترونية:

البرغوثي(عبد اللطيف محمود) ،

التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي ،ج1، نسخة الكترونية أعدها للنشر تامغناست،*www.dzlib.com*.

دراز(احمد عبد الحليم) ،

مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م ، نشر موقع تاوالت الثقافي،
http://www.tawalt.com/

2–باللغات الأجنبية:

أ–المصادر:

***Code Théodosien**, éditions T.Mommsen et P.Meyer, Berlin1905.*

Columelle,
De l'économie rurale, traduit par Luis Du Bois, C.L.F.Panckoucke, paris1844.

***Corpus Inscriptionum Latinarum (CIL.)**,Berlin,1881 , VIII.*

Diodore de Sicile ,
Histoire Universelle ,traduite en français par l'Abbé Terrasson , imprimerie de Quillau ,Paris 1737.

Dion Cassius,
Histoire Romaine, traduit par E.Gros, librairie de Firmin Didot frères , Paris 1845.

Gsell (St.),
Hérodote,Textes relatifs a l'Histoire de l'Afrique du Nord, Typographie Adolphe Jourdan, Alger1915.

Pline l'Ancien ,
Histoire Naturelle ,C.L.F.Panckoucke , Paris 1831.

Polybe ,
Histoire Générale , traduit par Félix Bouchot , Adolphe Delahays libraire, Paris 1847.

Procope de Césarée,
Bellum Vandalorum , traduit par D.Roques ,Belles Lettres, Paris 1990.

Salluste ,
la guerre de Jugurtha, les fragmens de la grande histoire romaine, la conjuration de catilina ,et les deux épîtres a César, traduit par Ch . Du.Rozoir,T.I.,imprimerie de C.L.F.Panckoucke, paris 1835.

Spartien,
Vie d'Hadrien, écrivains de l'Histoire Auguste*, traduit par FL. Leglay, T.1, C.L.F. Panckoucke , Paris 1844.*

Strabo ,
The Geography , translated by H.C.Hamilton and W.Falconer, John Childs and Son Printers, London ,1857.

Tacite,
Annales, traduit par Dureau de Lamalle, Paris 1827.

Varron ,
l'économie rurale , traduit par M.X. Rousselot, C.L.F.Panckoucke , Paris 1843.

ب–المراجع:

Baradez (J.),
Vue-aerienne de l'organisation romaine dans le Sud-Algérien (Fossatum Africae),Arts et métiers graphiques,Paris1949.

Beaudouin (Edouard),
les grands domaines dans l'Empire Romain D'après des travaux récents , Librairie de la société du recueil général des lois et des arrèts , Paris 1899.

Birebent (J.),
Aqvae Romanae, recherches d'hydraulique romaine dans l'est Algérien, Service des antiquités de l'Algérie, Alger 1962.

Boissier (G.),
l'Afrique Romaine, promenades archéologiques en Algérie et en Tunisie, 5eme édition, Librairie Hachette et Cie, Paris 1912.

Camps-Fabrer (Henriette),
l'Olivier et l'Huile dans l'Afrique Romaine , imprimerie officiale , Alger ,1953.

De Condole (Alph),
Origine des plantes cultivées , 3éme édition ,Félix Algan éditeur , Paris 1886.

Du Coudray (La Blanchère),
l'aménagement de l'eau et l'installation rurale dans l'Afrique Ancienne, Imprimerie Nationale , Paris 1895.

Falbe (C.T.),
Recherches sur l'emplacement de Carthage, l'imprimerie royale, Paris, 1833.

Fournier De Flaix(E.),
l'impôt dans les diverses civilisations ,T.I, Librairie de la société du recueil général des lois et des arrèts , Paris 1897.

Gsell (St.) ,
- Atlas Archéologique de l'Algérie(A.A.A.),2éme édition, Agence

Nationale d'Archéologie et de protection des sites et monuments historiques, Alger1997.
- *Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord , 8 Tomes, Librairie Hachette, Paris.*
- *Inscriptions Latines de l'Algérie ,T.I, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris 1922.*
- *l'Algérie dans l'Antiquité, Typographie Adolphe Jourdan, Alger 1903.*
- *les monuments antiques de l'Algérie , T.I , Albert Fontemoing Editeur, Paris1901.*

Laoust (E.),
Mots et choses berbères, notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc, librairie maritime et coloniale , Paris 1920.

Martin (René) ,
Recherches sur les agronomes latins ,Les Belles Lettres , Paris 1971.

Picard (G.Ch-.),
La civilisation de l'Afrique Romaine, librairie Plon, Paris 1950.

Reynier(L.) ,
De l'Economie publique et rurale des Egyptiens et des Carthaginois , J.J.Paschoud imprimeur-libraire ,Genéve-Paris 1823.

Sismondi(J.C.L.Simonde De),
histoire de la chute de l'Empire Romain et du déclin de la civilisation, de l'An250 à l'An 1000, T.I, Librairie Treuttel et Wurtz, Paris 1835.

د–الدوريات:

Albertini (E.),
documents d'époque vandale découverts en Algérie, in : C.R.A.I., 72 éme Année , N°3, 1928.

Alquier (J.) ,
les ruines antiques de la vallée de l'Oued el Arab (Aurès), R.Af., Vollume 85, 1941.

Angles (St.) ,
l' Olivier, un arbre et une culture au cœur de la Méditerranée , édition du temps .

Basset (Henri) ,
les influences Puniques chez les Berbères ,R.Af ,Année 1921.

Benzina Ben Abdallah (Zeineb),
Du coté d'Ammaedara (Haidra): Musulamii et Musunii Regiani, in:

An.Af.,N°28,1992.

Berbrugger (A.),
les romains dans le sud de l'Afrique, R.Af., Volume2, 1957.

Bernard (Augustin) et Lacroix (Nicole),
L'évolution du nomadisme en Algérie. In: Annales de Géographie, T.15,N°80, 1906.

Boudribila (Mohamed-Mustapha),
les anciens Amazighs avant les Phéniciens : modes de vie et organisation sociale , Awal , N°29 ,2004.

Bourgarel-Musso (Andrée),
recherche économiques sur l'Afrique Romaine, R.Af., V.75,1934.

***Blé antique de Novi**, R.Af., N°3 , 1857.*

Cagnat(R.),
Inscription d'Henchir-Mettich, in : C.R.A.I., 41éme année, N°2, 1897.

Caillemer(A.),
Chevallier(R.), Les centuriations de l'Africa Vetus, in : E.S.C., 9eme Année, N°4, 1954.

Camps-Fabrer (Henriette),
l'Olivier et son importance économique dans l'Afrique Antique, CIHEAM-Option Méditerranéennes, N° 24.

Carcopino (J.),
- Inscription découverte vers Ain Tounga intéressant l'histoire de la colonisation en Afrique et du colonat partiaire dans tout le monde romain, in : C.R.A.I. , 50éme année ,N°8, 1906.
- L'inscription d'Ain-el-Djemala, contribution à l'histoire des saltus africains et du colonat partiaire, in : M.A.H., T.26,1906.
- Mission en Tunisie (1906), Extrait de souvenirs romains, Hachette, 1967, ch.VII.

Carton (Dr.) ,
la lex Hadriana et son commentaire par le procurateur Patroclus, R.Ar., Paris 1893.

Chevallier(R.),
- Essai de chronologie des centuriations romaines de Tunisie , in : M.A.H., T.70, 1958.
- La Centuriation Romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique , l'inform.Géogr, 22éme année ,septembre-octobre 1958.

Christol (M.),
Le blé africain et Rome, Remarques sur quelques documents, In:

Le Ravitaillement en blé de Rome et des centres urbains des débuts de la République jusqu'au Haut-Empire, Actes du colloque international de Naples, 14-16 Février 1991, Rome : École Française de Rome, N°196,1994.

Cuq (E.),

le colonat partiaire dans l'Afrique romaine d'apres l'Inscription d'Henchir Mettiche, in: C.R.A.I., N°11, 1ere serie ,1901.

Deneuve (J.) Villedieu (F.),

Le cardo maximus et les édifices situés à l'est de la voie (secteur C), in : Ant.Af., N°11 , 1977.

De Pachtre (F.G.),

le règlement d'irrigation de Lamasba , in : M.A.H. ,T.28, 1908.

D'Escurac-Doisy Doublon (Henriette),

Notes sur le phénomène associatif dans le monde paysan à l'époque du Haut-Empire, in : An.Af. , N°1, 1967.

Despois(J.),

La Culture en terrasses dans l'Afrique du Nord , in : E.S.C. , 11éme Année , N°1,1956.

Dondin-Payre (Monique),

recherches sur un aspect de la romanisation de l'Afrique du Nord, l'expansion de la citoyenneté romaine jusqu'à Hadrien, in: Ant.Af., N°17, 1981.

D.Shaw (Brent) ,

Lamasba; an ancient irrigation community, An.Af., T.18, 1982.

El Alaoui (Narjys),

L'Arganier,RAM Magazine(sept-oct),Casablanca 2001.

El Bouzidi (Said),

- La conception de la villa rustica chez Caton, entreprise agricole où simple ferme rurale ?, Gérion, N°21, Année 2003.

- le Figuier : Histoire ,rituel et symbolisme en Afrique du nord , in : D.H.A , Volume 28 ,N°2,2002.

Gsell (St.),

- grandeur et décadence de Rome en Afrique,(texte, rédigé par Gsell, d'une conférence qu'il devait faire à Louvain dans l'hiver 1931-32), Le Correspondant,1933.

-le climat de l'Afrique du Nord dans l'antiquité , R.Af , Année1911.

Hilali (A.) ,

- la conquête du désert et la gestion de l'eau en Afrique Romaine : environnement et modes d'occupation ,chaire de recherche du canada en interactions société-environnement naturel dans

l'Empire Romain : Revue d'histoire comparée de l'environnement, Canda 2004.
- la crise de 238 en Afrique et ses impacts sur l'Empire romain, in: Crises and the Roman Empire, édition Brill, Leiden, 2007.

Heurgon (Jacques) ,
l'agronome carthaginois Magon et ses traducteurs en latin et en grec , in : C.R.A.I.,120 éme Année ,N°3 ,1976.

Jaleaud (L.) ,
l'ancienneté de la fabrication de l'huile d'Olive dans l'Afrique du Nord , R.Af ,Année 1929.

Kolendo(J.),
Le colonat en Afrique sous le Haut-Empire, centre des recherches d'histoire ancienne, vollume17,Paris 1976.

Kotula (T.)et Michalak (M.),
Les Africains et la domination de Rome. In: D.H.A., Volume 2, 1976.

Lacroix (F.),
- Afrique Ancienne (procédés agricoles), R.Af, Année 1870.
- Afrique Ancienne (produits végétaux) , R.Af., Volume12, 1868.
- Afrique Ancienne (produits végétaux) ,R.Af , 13 éme Année, 1869.

Laronde(A.) ,
la vie agricole en Libye jusqu'à l'arrivée des Arabes , Libyan studies 20, edeted by D.J.Mattingly and J.A.Lloyd , 1989.

Larnaude (M.),
La Vigne en Algérie, in: Annales de Géographie, T. 57, N°308, 1948.

Lassére (J-M.),
un conflit routier : observations sur les causes de la guerre de Tacfarinas, in : An.Af., N°18,1982.

Le Du(R.) et Saccardy (L.) ,
étude de quelques charbons préhistoriques de la région de Tébessa , R.Af , année 1948.

Lepelley (C.),
déclin ou stabilité de l'agriculture africaine au Bas-Empire ? À propos d'une loi de l'empereur Honorius, in : Ant.Af., N°1,1967.

Lepelley(Claude),
la crise de l'Afrique Romaine au début du Véme siècle, D'après les letters nouvellement découvertes de Saint Augustin, in: C.R.A.I., 125éme Année , N°3, 1981.

Leschi (L.) ,

nouvelles recherches aériennes sur le ''Limes'' d'Afrique , R.Af., *Volume 91, 1947.*

Leschi (L.),

Un aqueduc romain dans l'Aurès, R.Af.,*Vollume 85, 1941.*

Leveau (Philippe),

- *la situation colonial de l'Afrique Romaine, in:* E.S.C.,*33éme Année, N°1, 1978.*
- *l'opposition de la montagne et de la plaine dans l'historiographie de l'Algerie du Nord antique, in :*Annales de Géographie,*T :86 , N°474,1977.*
- *Occupation du sol, Géo systèmes et systèmes sociaux , Rome et ses ennemis des montagnes et du désert dans le Magrib antique , in :* E.S.C *,41éme Année , N °6 ,1986.*
- *paysans maures et villes romaines en Maurétanie central (la resistance des populations indigenes à la romanisation dans varrière- pays de Caesarea de Maurétanie, in:* M.E.F.R.A., *N°2, 1975.*

Loskutov, Igor (G.),

Vavilov and his institute,A history of the world collection of plant genetic resources in Russia, International Plant Genetic Resources Institute (R.I.P.G.R.I.), *Rome, Italy1999.*

Masqueray(E.) ,

2éme rapport à M. le Général Chanzy gouverneur général de l'Algérie sur la mission dans le sud de la province de Constantine, R.Af. *,N°21, 1877.*

Masson (Olivier) ,

Grecs et Libyens en Cyrénaïque,d'après les témoignages de l'épigraphie, in : Ant.Af, *T.10,1976.*

Mispoulet(J-B.),

l'inscription d'Ain-Ouassel, Nouvelle Revue Historique de Droit Français et étranger *,16 éme Année , Paris , 1892.*

Moatti (C.),

*Etude sur l'occupation des terres publiques à la fin de la république romaines, in :*Cahiers du centre Gustave Glotz, *N°3 ,1992.*

Morizot (P.) ,

*l'Aurès et l'Olivier ,in :*Ant.Af. *, N° 29, 1993.*

Mowat (R.),

Letter à M. Desjardins dans laquelle sont expliqués plusieurs texts épigraphiques, in : C.R.A.I., *24eme année, N°2, 1880.*

Pernot (M.),
L'inscription d'Henchir-Mettich, in : M.A.H., T. 21,1901.

Peyras (J.) ,
- *la potestas occupandi dans l'Afrique romaine, in: D.H.A., volume 25, N°1 , 1999.*
- *Le Fundus Aufidianus : étude d'un grand domaine de la région de Mateur (Tunisie du Nord), in : An.Af., N°9, 1975.*
- *les cités libres à l'époque romaine , in : D.H.A.,Volume 23, N°1 , 1997.*
- *paysages agraires et centuriations dans le bassin de l'oued Tine (Tunisie du Nord), in :Ant.Af. ,N°19,1983.*

Picard (G.Ch-.),
Néron et le blé d'Afrique, in :C.R.A.I.,100éme Année, N°1, 1956.

Poncet (J.) et Despois (J.),
pour une Histoire rurale de l'Afrique du Nord, in : E.S.C. , 12éme Année, N °3 , 1957.

Robert (Jean-Baptiste),
A propos de l'évolution du climat en Afrique du Nord depuis le début de la période historique, In: Revue de géographie jointe au Bulletin de la Société de géographie de Lyon et de la région lyonnaise, Volume 25,N°1, 1950.

Robert (L.),
le vin Africain à l'époque impériale, in : Ant.Af., N°16, 1980.

Saumagne (ch.),
- *Inscriptions de Jenan ez Zaytouna, in: C.R.A.I. , 81 éme Année , N°4,1937.*
- *La photographie aérienne au service de l'archéologie en Tunisie, in: C.R.A.I., N°2,1952 .*
- *Les vestiges d'une centuriation romaine a l'est d'El-Djem, in : C.R.I.A., 73ème Année, N°4,1929.*

Schulten (A.),
l'arpentage romain en Tunisie ,Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques, année 1902, Paris.

Soyer (J.),
Les cadastres de la région de Saint-Donat (Algérie), in : Ant.Af., N°7, 1973.

Thouvenot (R.),
une remise d'impôts en 216 ap.J-C., in: C.R.A.I., 90 éme Année, N°4, 1946.

Toutain (J.),

- Le cadastre romain dans l'Afrique du Nord au début de l'Empire, inscriptions du Sud tunisien relatives à l'arpentage sous Tibère, in : C.R.A.I. ,50éme année , N°4, 1906.

- les romains dans le Sahara, in : M.A.H. , T.16, 1896.

- L'inscription d'Henchir Mettich, un nouveau document sur la propriété agricole dans l'Afrique romaine, in : C.R.A.I.,1902.

Trousset (P.) ,

- De la montagne au désert, Limes et maitrise de l'eau, in : Revue de l'Occident musulman et de Méditerranée , N°41-42, 1986.

- les bornes du bled Segui. Nouveaux aperçus sur la centuriation romaine du Sud Tunisien, in Ant.Af., N°12, 1978.

- les oasis présahariennes dans l'antiquité : partage de l'eau et division du temps , in : An.Af., N °22 ,1986.

- Nouvelles observations sur la centuriation romaine à l'est d'El-Jem, in : Ant.Af, N° 11, 1977, p184.

Weber(Max),

les causes sociales du déclin de la civilisation antique, in : Revue Pluridisciplinaire en science humaines, N°1, 2005.

ج–القواميس والموسوعات:

Robert (Estienne) ,

Dictionarum Latinogallicum, 1522, vertion électronique, www.ebooksfrance.com.

Saglio (E.) et Daremberg(Ch.),

Dictionnaire des antiquités Grecques et Romaines (D.A.G.R), (5tome et 9 volumes) ,éditions hachette ,paris1873-1919.

د–مواقع انتيرنيت:

Decramer(L.R.)et autres,

approche géométrique des centuriations romaines, les nouvelles bornes du bled Segui, Histoire et mesure(en ligne) ,XVII-1/2 , 2002,mis en ligne de15 Novembre 2005, URL : http:// histoire mesure. revues.org/903.

France (J.),

l'Afrique Romaine des Flaviens aux Vandales Cours de Jérôme France– Université Michel de Montaigne-Bordeaux 3, http:// www. youscribe. Com.

- *http://fr.wikipedia.org/wiki/Magon_le_Carthaginois*.
-*L'agriculture romaine: les Latifundia, D'après le cite suivant: http://www.civilisation-romaine.com/la-vie-economique/l-agriculture-romaine-les-latifundia.*
- *http://magister-optimus.blogspot.com*
-*http://ar.wikipedia.org/wiki/البليستوسين*
-*http://www.arabgeographers.net*
- *http://venitism.blogspot.com*
- *http://www.sciencefile.org*
- *http://www.memo.fr*
-*http://www.grabovrat.com.*

فهرس الجداول والأشكال والخرائط

أ–الجداول:

ب–الأشكال:

ج-الخرائط:

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان والمدن

فهرس القبائل والشعوب

– أ –

– ب –

– ت –

– ج –

– ر –

– س –

– ش –

– ط –

فهرس الموضوعات:

الفصل الأول:

الزراعة الأفريقية قبل الفترة الرومانية

الفصل الثاني:

الزراعة الأفريقية خلال الفترة الرومانية

التنظيمات ووسائل الإنتاج

الفصل الثالث:

التوسّع الزراعي وآثاره

ملخص الدراسة:

يندرج موضوع الدراسة ضمن التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الشمالية خلال عصورها القديمة، ويتعرض بالتحديد إلى ظاهرة التوسع الزراعي التي عرفتها المنطقة خلال الفترة الرومانية ، سواء تعلق الأمر بتركيز القائمين على الزراعة اهتمامهم على إنتاج أنواع معينة خلال فترات زمنية محددة أو توسيع للمجال الزراعي إلى مناطق تتميز اليوم بالجفاف والتصحر ، وإذا كان موضوع التوسع الزراعي قد أكدته المعلومات التاريخية و شهدت عليه الاكتشافات الأثرية، فان ما حرص البعض على طمسه هو دور السكان الأهالي (الأمازيغ) وجهودهم في هذا التوسع وهذا ما حاولنا إبرازه إضافة إلى دراسة العوامل التي عرفتها الزراعة خلال تلك المرحلة.

كان تشخيص الحالة التي عرفتها الزراعة خلال الفترة السابقة للتواجد الروماني هي المنطلق الذي سلكناه لدراسة الموضوع قصد إبراز الإضافة الرومانية وتقييمها في الفصول اللاحقة، وفي الفصل الثاني ركزنا على عوامل الإنتاج وعلى القاعدة القانونية والتنظيمية التي ساهم الرومان بتشريعاتهم ومهندسيهم في بنائها، والتي كان لها دورا مهما في التطور الزراعي الذي عرفته أفريقيا على عهدهم، أما الفصل الثالث–الذي يمثل جوهر البحث– فقد تعرضنا فيه إلى ظاهرة التوسع الزراعي التي عالجناها وفق منظورين : توسيع إقليمي إلى الجبال والصحراء وتوسع نوعي في الإنتاج.

اتضح بعد التعمق في البحث أن عوامل متعددة كانت تتحكم في السياسة الزراعية التي انتهجتها الحكام الرومان بأفريقيا، ففي اغلب الأحيان كانت العوامل السياسية هي المتحكمة ، ويتجلى ذلك أكثر من خلال أوامر أباطرة روما الداعية لتشجيع زراعة بعض الأنواع خلال فترات معينة حرصا منهم على الحفاظ على مصالحهم واحتكاراتهم من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يهدفون إلى ضمان تموين روما بالمواد الغذائية ومنه ضمان الاستمرارية لحكمهم ،كما كانت الزراعة وسيلة من وسائل التهدئة وإرساء السلم بالمناطق الجنوبية لأفريقيا.

إن اعتبار التوسّع الزراعي خلال الفترة الرومانية معجزة وفضلا رومانيا بحتا يعتبر من المغالطات التي ينبغي تصحيحها ، فبصمة الأفارقة (الشعب الأهلي) واضحة في هذا المجال فهم الذين طرقوا بمجهوداتهم سفوح الجبال والأراضي المتاخمة للصحراء بعد أن انتزعت منهم أراضيهم الخصبة بالسهول بموجب حق الفتح ، وقد كان للسياسة الزراعية المطبقة حينذاك أثرها في الوصول بالزراعة إلى مناطق هي اليوم مناطق جرداء وجافة تشهد عليها آثار المسح والمدرجات ومنشآت المياه... التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

Résumé :

Le sujet de notre recherche se situe dans l'histoire d'économie Nord Africaine pendant l'Antiquité, il traite au plus exact le phénomène d'expansion agricole qu'a connue la région lors de l'époque romaine, qu'il s'agisse de l'importance accordée par les responsables agricoles à produire certaines espèces à des moments donnés où que se soit l'expansion dans le domaine de l'agriculture jusqu'à des régions connues aujourd'hui de sécheresse est de désertification, cependant si ce phénomène fut prouvé par les connaissances historiques et les découvertes archéologiques, certains insistèrent à nier le rôle des autochtones (Amazighs) et leurs efforts dans cette expansion , et c'est ce que nous avons tenter de démontrer en plus d'étudier les facteurs qu'à subis l'agriculture à cette époque-là.

C'est du diagnostic de l'état agricole qu'a connu l'époque préromaine que nous sommes partis dans notre étude dans le but de démontrer les ajouts romains et les évaluer dans les parties qui suivent, puis dans la deuxième partie nous avons visé les facteurs de production et la base légale et organisatrice à laquelle les Romains ont contribué à fonder avec leurs constitutions et leur ingéniosité, et qui avait joué un rôle important dans le développement agricole qu'a connu l'Afrique pendant leur règne. Et en ce qui concerne la troisième partie – qui traite le vif du sujet – nous l'avons consacrée au phénomène de l'expansion agricole que nous avons abordé selon deux angles de vision: l'élargissement géographique et la diversification typologique des produits.

Ce qui nous fut clair à travers l'étude approfondie, est que plusieurs facteurs décidaient la stratégie agricole qu'adoptaient les gouvernants romains en Afrique. En la plupart, le facteur politique en était le détenteur, ceci s'avère à travers l'ordonnance des empereurs de Rome encourageant à cultiver certains produits dans des périodes données, dans le souci de préserver leurs intérêts et monopoles d'une part, et d'autre part dans l'ordre d'assurer le fournissement des produits alimentaires à Rome ce qui garantit la prolongement de leur gouvernance; de même l'agriculture fut un moyen d'établir la paix dans le Sud Africain.

Considérer que le développement agraire à l'époque romaine est un miracle et un apport purement romain est à discréditer et à corriger. Car l'emprunte des Africains (autochtones) est clairvoyante dans ce domaine à travers leurs efforts et exploitations dans les montagnes et les terres subsahariennes, après avoir été expropriés de leurs terrains fertiles suite au droit de la conquête, à noter également que la politique agraire de l'époque a eu l'effet d'élargir l'activité agricole jusqu'à des régions aujourd'hui incultes et arides dont témoignent les traces de centuriation, des gradins et des fondations aquatiques… qui subsistent jusqu'à nos jours.

Abstract :

The subject of our research lies in the history of North African economy in antiquity, it treats the more accurate the phenomenon of agricultural expansion experienced by the region in Roman times, it was called whether the emphasis agricultural officials to produce certain species at certain times where the expansion whatsoever in the field of agriculture to areas known today desertification drought, however, whether this phenomenon was proved by historical knowledge and archaeological discoveries, some insisted to deny the role of indigenous (Amazigh) and efforts in this expansion, and that's what we try to show in addition to studying the factors that suffered in agriculture that time.

It is diagnosis of the state of agriculture has experienced pre-Roman times that we went in our study in order to demonstrate and evaluate Roman additions in the following sections and in the second part we aimed factors of production and the legal basis and organizer in which the Romans helped to found with their constitutions and their ingenuity, and had played an important role in agricultural development in Africa has experienced during their reign. And in the third part - which treats the heart of the matter - we have devoted to the phenomenon of agricultural expansion we approached from two angles of vision: the geographical expansion and diversification typological products.

It was clear to us through the comprehensive study is that several factors decide the agricultural strategy qu'adoptaient Roman rulers in Africa. In most, the political factor was held, this is through the order of the emperors of Rome encouraged to grow certain products in specified periods, in order to safeguard their interests and monopolies on the one hand, and other hand, in order to ensure food fournissement Rome which guarantees the continuation of their governance so agriculture was a way to establish peace in South Africa.

Consider the Agrarian Development in Roman times is a miracle and a purely Roman contribution to discredit and correct. Borrow because Africans (natives) is sighted in this area through their efforts and the mountains and farms in sub-Saharan lands, having been dispossessed of their land fertile right after the conquest, should also be noted that the agrarian policy the time had the effect of broadening the agricultural activity to regions now uncultivated and barren as evidenced by traces of centuriation, bleachers and foundations remaining water ... until today.